

فى الثقـــافـــة والســيـاســة والفكـــر

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثون - السنة الحادية عشرة - نوفمبر ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 130 - Noveber 2009

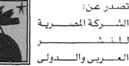
خطّة اغتيال عبد الناصر

قرن من الجاسوسية البريطانية !

حلمي التوني 2008

السنة الحادية عشرة
العدد ١٣٠
نوفمبر ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد حجاج.. أمين عام الجمعية الأفريقية - القاهرة.
- أحمد زكريا الشلق.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- آلان جريش.. صحفى فرنسى.
- بول إيريك بلانرو.. كاتب فرنسى متخصص فى التاريخ.
- جايل فور.. صحفى فرنسى.
- جويل بينين.. أستاذ التاريخ بجامعة ستانفورد - كاليفورنيا - الولايات المتحدة الأمريكية.
- سايمون أوزبورن.. صحفى بالإندبندنت.
- عبد الخالق فاروق.. خبير فى الشئون الاقتصادية.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ بجامعة واترلو - كندا.
- مايكل ماسينج.. كاتب فى النيويورك ريفيو أوف بوكس.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد عامر.. أستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية.. مقيم فى إنجلترا.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى - Angel Boligan - Christo Komarnitski - Dave Granlund





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

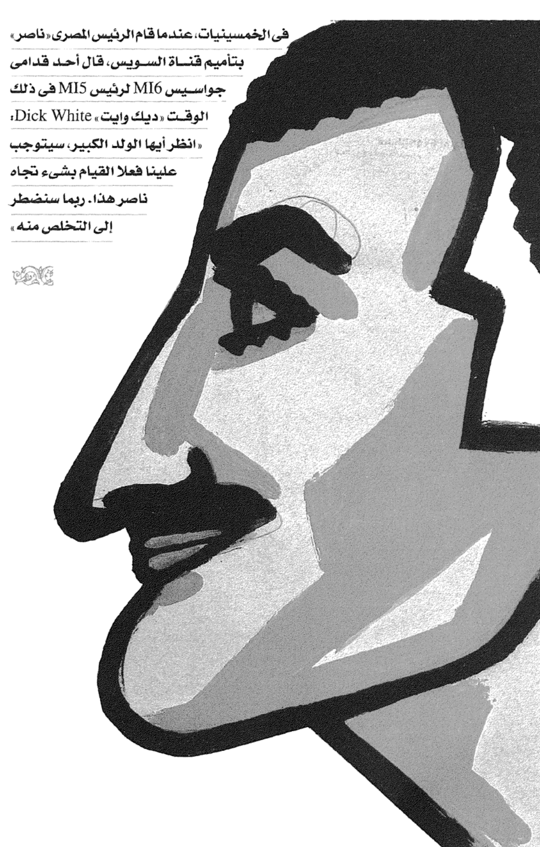
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

خطة اغتيال عبد الناصر

سايمون أوزبورن
simon Usborne

في الخمسينيات، عندما قام الرئيس المصري «ناصر» بتأميم قناة السويس، قال أحد قدامى جواسيس MI6 لرئيس MI5 في ذلك الوقت «ديك وايت» Dick White: «انظر أيها الولد الكبير، سيتوجب علينا فعلا القيام بشيء تجاه ناصر هذا. ربما سنضطر إلى التخلص منه»



في صيف عام ١٩٠٩، تم تكليف العميد البحري «ألكسندر بيثيل Alexander Bethell»، رئيس استخبارات البحرية، بالعثور على مرشح مناسب لرئاسة القسم الأجنبي لوكالة جديدة تسمى «مكتب الخدمة السرية Secret Service Bureau». قام «بيثيل» بكتابة خطاب قصير بخط رديء بعنوان «خاص» وأرسله إلى قائد شبه متقاعد يعيش في منزل عائم قرب «ساوثامبتون».

«عزيزي «مانسفيلد كامنج Mansfield Cumming»، لابد أن حاجز الطفو الدفاعي (وضع عوائق مادية للسفن حول الساحل) قد أصبح مملا بالنسبة لك، وأن التجارب الحديثة على «فيريت Ferret» (سفينة تستخدم في التجارب لكسر مثل تلك الدفاعات) ربما تنتقص من تجاريك في «ساوثامبتون». ولذلك فربما ترغب في وظيفة جديدة. إذا كان الأمر كذلك فإن لدي شيئا جيدا يمكن أن أعرضه عليك، وإذا رغبت في المجيء لرؤيتي يوم الخميس وقت الظهيرة تقريبا فسوف أخبرك عن الأمر».

قاتل «كامنج» في عمليات ضد قراصنة الملايو قبل أن يعلن دوار البحر أنه غير صالح للخدمة. وقد تم تجنيده من قبل الاستخبارات البحرية وأرسل إلى «ساوثامبتون» للإشراف على إنشاء الدفاعات البحرية. وعندما وصله خطاب «بيثيل» وهو في الخمسين من عمره، قبل العرض وأصبح أول رئيس لما سيصبح MI6.

كراهية تجاه الألمان

في بدايات القرن العشرين، كانت بريطانيا أمة يشلها جنون الارتياب. وقد ساعد سباق التسلح البحري مع الألمان على خلق أزمة ثقة تحولت سريعا إلى هياج لمشاعر العداء للألمان من قبل وسائل الإعلام. وروت الصفحات الأولى اللاهثة كيف أن موانئ ومدن إنجلترا قد أصبحت تعج بالجواسيس. وقد عرضت جريدة «ذا ويكلي نيوز The Weekly News» مكافأة قدرها عشرة جنيهات إسترلينية - ثروة

ترجمة: عادل فتحي

.. قرن من الجاسوسية البريطانية

مائة عام.. حربان عالميتان وحرب باردة وحرب «مستحدثة» ضد الإرهاب.

والمائة عام تلك، هي أيضا تاريخ العمل السري للامبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس. والتي كانت أصابعها ـ بحكم الواقع الامبراطوري ـ تلعب في كل ركن من أركان المعمورة.

في الذكرى المئوية لإنشاء أجهزة الجاسوسية البريطانية، نشرت الاندبندنت تقريرا مثيرا، كما وفرت الاستخبارات الداخلية البريطانية المعروفة باسم MI5 والتي لم تعترف الحكومة بوجودها إلا في عام ١٩٨٩، ولوجا غير مسبوق للفاتها لخبير الاستخبارات الأول في بريطانيا «كريستوفر أندرو Christopher Andrew» الذي يعد كتابه الجديد «الدفاع عن المملكة The Defense of the Realm» التاريخ الأشمل للوكالة الذي لم يتم نشره على الإطلاق. وقد تحدثت مجلة «تايم» إلى «أندرو» حول نظريات المؤامرة التي كشف زيفها وعن الجواسيس السابقين في الحكومة البريطانية وعن مشاعره تجاه «جيمس بوند James Bond».

وجهات نظر

صغيرة - لأي قارئ يتمكن من كشف النقاب عن جاسوس ألماني. في تلك الأجواء من الخوف - الحقيقي والمبالغ فيه - ولدت الخدمة السرية.

الجاسوس الأعرج العظيم

مع اشتهاره بالتجول في أنحاء لندن في سيارته الرولز رويس، كان «مانسفيلد كامنج» في وطنه يقود أيضا الطائرات والقوارب البخارية. كان ابنه الوحيد «ألاستير Alastair» يقود السيارات الرياضية، وكان خلف المقود عندما تعرض الاثنان لحادث عام ١٩١٤. قتل «ألاستير» في الحادث وفقد «كامنج» الجزء السفلي من ساقه اليمنى. ومن بين الأساطير العديدة التي أحاطت باسمه، واحدة تشير إلى أنه استخدم مدية لبتر ساقه بنفسه.

لم يرتدع «كامنج»، وكان يجوب ممرات مكاتبه بإرساء ساقه الصناعية على زلاجة أطفال مدولبة بينما يدفع نفسه بالساق الأخرى. وفي المقابلات، يقال أن الجاسوس العظيم كان يختبر أعصاب العملاء المحتملين عن طريق طعن ساقه الخشبية من خلال سرواله بواسطة سكين أوراق. لم يكن يطرف بعينه؛ وكان أي إجفال من قبل ضيف المقابلة يعد علامة ضعف.

خلف المكتب المصنوع من خشب الماهوجني والذي كان في وقت ما يزين مقصورة الأدميرال «نيلسون Nelson» على السفينة الحربية «إتش إم إس فيكتوري HMS Victory»، كان «كامنج» يعمل مرتديا نظارة أحادية بإطار ذهبي، وكان يوقع كافة المراسلات بحرف «سي C»، مستخدما المداد الأخضر فقط. كان سيحدد المعايير لمن سيخلفونه، فحتى اليوم يعرف رؤساء MI6 بالاسم الكودي «سي» (أصبح يمثل كلمة «رئيس Chief» وليس «كامنج Cumming»، كما يستخدمون المداد الأخضر وكذلك مكتب «نيلسون».

كان «كامنج» يحب المقالب والأجهزة الإلكترونية الصغيرة. وكان سعيدا جدا لاكتشافه أن السائل المنوي يصلح كمداد خفي جيد، حتى أن عملاءه تبنوا شعار «كل رجل يستخدم نمطه الخاص».

مكتب يشبه مكتب المفتش «كلوزو Clouseau» (الشخصية الرئيسية في سلسلة «النمر الوردي»، المترجم)؟

كان من المقرر افتتاح القسم الأجنبي لمكتب الخدمة السرية للعمل في الأول من أكتوبر عام ١٩٠٩، ولكن السجلات تظهر أن المدفوعات لهيئة العاملين والمقار لم تبدأ إلا بعد ذلك بعشرة أيام. ولشغفه بوضع بصمته الخاصة، بدأ «كامنج» العمل في الوقت المحدد. كتب في مذكراته: «ذهبت إلى المكتب وبقيت هناك طوال اليوم ولكني لم أر أحدا، كما لم يكن هناك شيء لعمله».

استمرت الحيرة بينما كافح «كامنج» لإرساء مهمته. ونظرا لأنه اقتنع بإيحاء من «بيتيل» بأنه سيتولى مسئولية المكتب بالكامل منفردا، فقد أصيب بخيبة أمل عندما اكتشف أنه سوف يعمل مع أنداد من الجيش. كان النقيب «فيرنون كيل Vernon Kell» يرأس القسم الداخلي (عرف فيما بعد بـ MI5) وكان الأمر سيستغرق سنوات كي يتوصل الاثنان إلى علاقة عمل منسجمة.

كان لدى النقيب «كيل» هيئة عاملين من عشرة أفراد مع سيارة وسائق. ومع تحدثه عدة لغات بطلاقة، وكونه من قدامى المحاربين في «تمرد بوكسر Boxer Rebellion»، فقد اشتهر أثناء رئاسته MI5 طوال واحد وثلاثين عاما بالاسم الكودي «كيه K». وعلى خلاف «سي» فإن «كيه» لم تلتصق بالمنصب.

تفضلوا، أنتم ضيوفنا

خدم المبنى الضخم لـ MI6 على نهر التيمز عند تقاطع «فوكسهول» - والذي يكنى أحيانا بـ «ليجولاند Legoland» - كمقر لخدمة الاستخبارات السرية لمدة خمسة عشر عاما. وقد بدأ جواسيس بريطانيا العظام في غرف مستأجرة أكثر تواضعا، كمكاتب بشارع «فيكتوريا» في «وستمنستر». لم يلق ذلك استحسانا لدى «مانسفيلد كامنج»، وسرعان ما رتب للانتقال إلى مقر «آشلي» على طريق جسر «فوكسهول». وكان هناك انتقالان آخران في «وستمنستر»، حتى أدت استقطاعات الميزانية بعد الحرب العالمية الأولى بخدمة الاستخبارات السرية إلى مقر «كنسنجتون». هنا عاش «كامنج» وعمل ومات (عام ١٩٢٣). وكان هناك انتقال آخر إلى «وستمنستر» قبل ارتحال MI6 إلى بناية برج «لامبيث» عام ١٩٦٤، حيث بقيت هناك لمدة ثلاثين عاما حتى استقرت في تقاطع «فوكسهول».

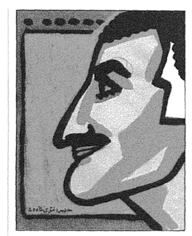
ومنذ عام ١٩٤٤، احتلت MI5 «تيمز هاوس»، وهي بناية ضخمة تعود للثلاثينيات وتطل على جسر «لامبيث». وفي الحقيقة أن المبنى المستخدم في سلسلة «بي بي سي BBC» «سبوكس Spooks» هو قاعة «فريماسون» في حديقة «كوفينت» بلندن.

في الأعوام التالية للحرب العالمية الثانية، عندما رفعت روسيا رأسها كتهديد عالمي، وأدلى «تشرشل Churchill» (بحق) بخطابه الفارق «الستار الحديدي»، سادت مقر MI6 لحظة من الهزل. وعندما شاع أن خدمة الاستخبارات السرية قد خططت لنقل مكاتبها، بدأ المالك في تنظيم جولات داخل المقر للمستأجرين المحتملين. وكان ضمن هؤلاء مجموعة من الوفد التجاري الروسي. في كتاب «مايكل سميث Michael Smith» «عباءة جديدة، خنجر قديم New Cloak, Old Dagger» يتذكر رئيس القسم العلمي في MI6 ما حدث في اليوم السابق قبل الزيارة. «اندفع مسئول الأمن في المكان طالبا من الجميع نزع كل الخرائط من على الجدران؟ هل يمكن أن يحدث في أي مكان غير بريطانيا أن مندوبين من خصمهم المحتمل الرئيسي يمكن السماح لهم بالتجول في مكاتب خدمتها السرية؟».

ليست هناك أبواب مغلقة

في بداية الحرب الباردة، تغلبت الخدمة الأمنية على صعوبات التمويل ونقص الحصول على التكنولوجيا الحديثة عن طريق توظيف رقيب أول سابق بالجيش كان شديد البراعة في الولوج إلى داخل مقار أهداف التجسس لدرجة أنه أطلق عليه «اللص العبقري».

وقد سمح للضابط الذي تم الكشف عن إنجازاته في كتاب البروفيسور «كريستوفر أندرو Christopher Andrew»، «الدفاع عن المملكة The Defense of the Realm»، بإقامة ورشة في سرداب مقر MI5 مجهزة بصفوف طويلة من المفاتيح المستنسخة أو «المستولى عليها» لأقفال المكاتب والفنادق والمنازل الخاصة. وفي وصف الضابط مجهول الاسم، يقول أحد زملائه في MI5: «إنه يرفض أن تهزمه الصعوبات





عندما رفض «إيدن» مؤامرة جديدة لضخ غاز الأعصاب فى نظام تكييف الهواء الخاص بـ «ناصر»، اقترح «كوين» علبة سجائر من تصميم وكالة الاستخبارات المركزية تحتوى على سهم مسموم



التقنية؟ إنه أحد أعظم الأصول التى حصلت عليها الوكالة».

تلخيص الميزانية

تعد ميزانيات الخدمة السرية من الأسرار، ولكن MI5 وMI6 ومقر الاتصالات الحكومية Government Communications Headquarters (GCHQ) يتم تمويلهم من «حساب الاستخبارات الوحيد Single Intelligence Account" (SIA)». وفى استعراض الإنفاق الحكومى لعام ٢٠٠٤ تم تحديد الـ SIA بمبلغ ١.٣٨ مليار جنيه إسترلينى. وعموما، يعتقد أن التكلفة الحقيقية للاستخبارات البريطانية هى أعلى من ذلك بكثير. فال MI5 تقول بأنها تستخدم حوالى ٣٥٠٠ شخص، ٤٠٪ منهم من النساء و٥٤٪ تحت سن الأربعين. أما الـ MI6 فلا تكشف عن مستويات العاملين لديها.

ناصر يحب الشيكولاتة

فى الخمسينيات، عندما بدأ الرئيس المصرى «ناصر» تقاربا حميما مع روسيا السوفيتية وقام بتأميم قناة السويس، بدأت حكومة «أنتونى إيدن Anthony Eden» فى السعى إلى حل لـ «مشكلة ناصر». ووفقا لما جاء فى كتاب «جوردون توماس Gordon Thomas»، «داخل الاستخبارات البريطانية Inside British Intelligence»، قال أحد قدامى جواسيس MI6 لرئيس MI5 فى ذلك الوقت «ديك وايت Dick White»: «انظر أيها الولد الكبير، سيتوجب علينا فعلا القيام بشىء تجاه «ناصر» هذا. ربما سنضطر إلى التخلص منه».

بينما تصاعد التوتر وهدد «ناصر» بالسيطرة الكاملة على قناة السويس، شريان الحياة الذى يربط أوروبا الغربية بنفط الشرق الأوسط، رجعت MI6 إلى دليل من ٨٨ صفحة لوكالة الاستخبارات المركزية «CIA» بعنوان «أساليب الاغتيال Assassination Methods». فى الوقت نفسه، تم تكليف إدارة «كيو Q» «بالعثور على طريقة لإنجاز العمل بحيث لا يمكن اقتفاء أثره إلى بريطانيا». وقد شكل ضعف «ناصر» تجاه شيكولاتة «جروبى» المصرية الشهيرة فرصة سانحة، وأرسلت دستة من صناديق تلك الشيكولاتة إلى إدارة «كيو Q» لإجراء تجارب. كما حصل فريق العمل تحت قيادة «فرانك كوين Frank Quinn» - والذى استوحى «فليمنج Fleming» من اسمه الرمز «كيو Q» - على اسم محار عديم الرائحة من المعامل الكيماوية والبيولوجية الحربية البريطانية فى «بورتون داون Porton Down». وقد طور «كوين» أسلوبا لتسخين قاعدة قطع الشيكولاتة حتى تنفصل، مما يسمح بحقن السم. وقد تم تسليم صندوق من قطع الشيكولاتة السامة ولكنه لم يستخدم أبدا.



وعندما رفض «إيدن» مؤامرة جديدة لضخ غاز الأعصاب فى نظام تكييف الهواء الخاص بـ «ناصر»، اقترح «كوين» علبة سجائر من تصميم وكالة الاستخبارات المركزية تحتوى على سهم مسموم. وقام الدكتور «لاديل Ladell»، وهو عالم فى «بورتون داون» يكنى بـ «المشعوذ» باختبار السهم على الأغنام. يقول تقريره «يبدأ الحيوان فى الانهيار عند الركب ثم يشرع فى تقليب عينيه وتخرج الرغوة من فمه. ويسقط الحيوان ببطء إلى الأرض ثم تنسحب روحه بعيدا». كان مقدرا لـ «ناصر» أن يتجنب هذا المصير أيضا - فقد خشى «كوين» من إمكانية تعقب مصدر السهم. ثم تدخلت الاستخبارات الإسرائيلية بخطة لتسميم قهوة «ناصر» بتلويث المحلى الصناعى الخاص به، ولكن عند مرحلة ما ولأسباب غير معروفة، صرف النظر عن خطط اغتيال «ناصر». وقد توفى بأزمة قلبية عام ١٩٧٠.

كانت الاستخبارات المصرية قبل أزمة السويس تنظر بتقدير كبير لـ MI6، لدرجة أن رجل القاهرة فى لندن - وفقا لما جاء فى كتاب «مايكل سميث» «عباءة جديدة، خنجر قديم» - تلقى أوامر بشراء جميع كتب «فليمنج» عن «جيمس بوند» لاستخدامها كقراءة إجبارية فى الدورات التدريبية.

العميلتان «جودى Judi» و«نيجيلا Nigella»

ربما كانت شخصية «فليمنج» «إم M» هى أشهر الجواسيس العظام فى أدب الخيال. فى عام ١٩٩٩، كانت السيدة «جودى دينش Judi Dench»، التى لعبت دور «إم» فى الأفلام الستة الأخيرة لـ «جيمس بوند»، تتعرف إلى جواسيس حقيقيين، عندما دعاها السير «دافيد سبيدنج David Spedding» إلى حفل أعياد الكريسماس الخاص بـ MI6. ويقال أن المحتفلين قد بدت عليهم الحيرة عندما قدم «سبيدنج» «دينش» باعتبارها شخصية «إم» فى «جيمس بوند».

أثناء دراستها فى مدرسة «كوينز جيت Queen's Gate» فى لندن فى السبعينيات، تلقت طباخة التلفاز «نيجيلا لاوسون Nigella Lawson» تعليمها على يد «إليزا مانينجهام-بولر Eliza Manningham-Buller» التى كانت قد رفضت عرضا من مجندى MI5 فى جامعة «أوكسفورد» لتصبح معلمة (تراجعت لاحقا وشقت طريقها فى الخدمة حتى منصب المدير العام). تعرضت «لاوسون» لنفس المحاولة فى جامعة «أوكسفورد». ولكن وفقا لكتاب «جوردون توماس» «داخل الاستخبارات البريطانية»، فإن «نايجل Nigel» والد «لاوسون» والذى كان مستشارا لوزارة المالية البريطانية فى ذلك الوقت، نصح ابنته بـ «البقاء بعيدا عن العاملين بالاستخبارات».

فى عام ٢٠٠٦، اندهش رؤساء «بى بى سى راديو ١ BBC Radio 1» عندما وافقت MI6 على عمل لقاءات للبث أثناء طرح فيلم «جيمس بوند» «كازينو رويال Casino Royal». وقد قدمت «خدمة الاستخبارات السرية (Secret Intelligence Service) SIS»، التى كانت فى وسط حملة تجنيد عامة تهدف إلى تحطيم الصورة الكاريكاتيرية الساذجة لعملائها، قدمت عميلين نشيطين بشرط إخفاء أصواتهم الحقيقية. وقد أجرى «راديو ١» المقابلة غير المسبوقة مع «كولن موراى Colin Murray»، الذى كان يعلم أنه لم يكن هناك شىء مما يحدث فى فيلم «رخصة للقتل License to Kill» على سبيل المثال، وإنما كان هناك عبقرى فى الأجهزة الإلكترونية يمكن مقارنته بشخصية «كيو» فى أفلام «جيمس بوند».

أزمة الصواريخ الكوبية والمكتب الخارجى ومجبر العظام

استخدمت الحكومة البريطانية مجبر عظام ورسام بورتريه شهيرا، والذى لعب دورا محوريا فى فضيحة «بروفومو»

عرفوا أن ناصر يحب الشيكولاتة، فعكفوا على عمل تجارب لإعداد صندوق من الشيكولاتة السامة، إلا أنه لم يستخدم أبدا. وتدخلت الاستخبارات الإسرائيلية بخطة لتسميم قهوة «ناصر» بتلويث المحلى الصناعى الخاص به



كـ «قناة خلفية» بين لندن وموسكو أثناء أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢.

كانت MI5 تعتبر «ستيفن وارد Stephen Ward» - الذى قام قبل عام بتقديم وزير الحرب «جون بروفومو John Profumo» إلى فتاة الاستعراض «كريستين كيلر Christine Keeler» - شخصا «ساذجا» ويخاطر بتهور فى علاقته بـ «إيفينى إيفانوف Evgeni Ivanov» الملحق البحرى الروسى الذى كان أيضا ينام مع «كيلر».

ولكن «التاريخ الرسمى الحديث للخدمة السرية» الذى وضعه البروفيسور «كريستوفر أندرو Christopher Andrew» يكشف عن أن المكتب الخارجى لم يكن يشعر بتلك المخاوف. ففى أوج أزمة الصواريخ الكوبية، استخدم «وارد» لتمرير رسائل من السفارة السوفيتية إلى وزير الخارجية، بما فى ذلك رجاء تعتبر موسكو بموجبه لندن «أملها الوحيد فى التوافق» مع واشنطون فيما يتعلق بأزمة نشر أسلحة نووية فى كوبا.

الجاسوسة العظيمة

من بين سبعة عشر رئيس وزراء حكموا طوال مائة عام من الخدمة السرية، كانت لـ «مارجريت ثاتشر Margaret Thatcher» إحدى أوثق العلاقات مع رؤساء الاستخبارات. ووفقا لكتاب «داخل الاستخبارات البريطانية» لـ «جوردون توماس»، فإنها كانت تقرأ التقارير على الإفطار وتعيدها مع تعليقات بخط أزرق. وعلى غير عادة رؤساء الوزارة، كانت تحضر بانتظام لقاءات لجنة الاستخبارات المشتركة التى تشرف على مجتمع الاستخبارات البريطانى من مكتب رئاسة الوزراء. وكانت تذكر العاملين المرتبكين بألا ينسوا أن «العدو الداخلى» قد يكون بداخل MI5 æMI6. وقد صرح مستشارها لوزارة المالية «نايجل لاوسون Nigel Lawson» أن مارجريت كانت مغرمة بروايات «فريدريك فورسيث Frederick Forsyth» المثيرة عن الجواسيس.

العميل المتلون

كان «إيدى تشابمان Eddie Chapman» زير نساء ومجرما ولص خزائن يقضى عقوبة فى سجن جزيرة «جيرسى» عندما غزا الألمان جزر القنال عام ١٩٤٠. وبعد تجنيده من قبل الاستخبارات العسكرية الألمانية، تم إسقاطه بالباراشوت فى بريطانيا لتخريب مصانع الطائرات القاذفة، ولكنه لجأ إلى MI5. وقد زيف رؤساء الجاسوسية صورا لمبان مدمرة ونشروا خبرا فى جريدة «ديلى إكسبريس Daily Express» لإرضاء الألمان. حقق «تشابمان» مهمته، بينما جرى تدريب المجرم ليصبح أعظم عميل بريطانى مزدوج فى زمن الحرب.

أخبر «تشابمان» - ٢٧ عاما فى ذلك الوقت - «رونى ريد Ronnie Reed»، الضابط المسئول عنه، أن رئيسه فى الجاسوسية الألمانية عرض عليه أن يجلسه بالقرب من منصة «هتلر» فى أحد الحشود النازية. ويمكن لـ «تشابمان» بعد أن يتخفى كضابط ألمانى أن يفجر الفوهرر. وتحكى ملفات MI5 التى كشف النقاب عنها المحادثة التى تلت ذلك. قال «ريد»: «سواء نجحت أم لا، فستتم تصفيتك فورا». فرد «تشابمان»: «نعم، ولكن يا لها من طريقة للموت».

رفض العرض المفاجئ للعميل المتلوى. ثم عاد إلى ألمانيا مع تحذير من رؤسائه «بألا يقوم بأية مغامرات طائشة»، واحتفى به الألمان لإنجاز مهمته. وفى عام ١٩٤٤، عاد مرة ثانية إلى لندن لمساعدة سلاح الجو الألمانى - ظاهريا - فى توجيه صواريخهم V1 إلى الأهداف الرئيسية. وفى الحقيقة أنه قدم لهم معلومات زائفة وأصبح بطلا أيضا فى بريطانيا فى النهاية، وحصل على عفو عن جرائمه قبل الحرب. وقد توفى عام ١٩٩٧.

الأسماء المتغيرة للخدمة السرية

MI5

:1909 القسم الداخلى بمكتب الخدمة السرية.

1914: MO5(g)، قسم فرعى لدائرة العمليات العسكرية بمكاتب وزارة الحرب.

1916: MI5 (الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس).

:1929 خدمة أمن الدفاع.

:1931 الخدمة الأمنية MI5 (غير رسمى).

MI6

:1909 القسم الخارجى بمكتب الخدمة السرية.

1914: MI1©، قسم فرعى لدائرة الاستخبارات العسكرية.

:1920 خدمة الاستخبارات السرية SIS.

1930: MI6 (غير رسمى).

أبراج «عين القصدير Tin Eye» المرعبة

أثناء الحرب العالمية الثانية، استخدم «لاتشمير هاوس Latchmere House»، وهو منزل كبير على الطراز الفيكتورى يقع فى «هام كومون Ham Common» فى «سيرى Surrey»، كمركز استجواب سرى تحت الاسم الكودى «معسكر ٠٢٠ Camp 020». كان يديره «روبين ستيفنز Robin Stephens»، وهو ضابط منفلت الأعصاب فى MI5 كان يتميز بنظارته الأحادية سميكة الإطار - كانوا يسمونه «عين القصدير Tin Eye» - وباحتقاره لليهود والشواذ والألمان. كان «ستيفنز» - نظرا لإطلاعه على أعمال «فرويد Freud» و«جونج Jung» وإجادته التامة لسبع لغات - سيد الاستجواب. كانت مهمته استخلاص المعلومات من جواسيس العدو لتقرير ما إذا كان يمكن استخدامهم كعملاء مزدوجين. كتب «ستيفنز» فى تقرير كشفت MI5 النقاب عنه مؤخرا «إن مثل هؤلاء الأبطال يولدون ولا يصنعون. ويتحقق الضغط بواسطة قوة الشخصية واللهجة وسرعة الأسئلة، هجوم عنيف فى صورة انفجار يرعب الشخص ويطيح بتماسكه».

كان «ستيفنز» - مرتديا زيه الهندى القديم - يقضى أياما فى تحطيم المشتبه بهم، ولكنه طبق سياسة صارمة من عدم العنف. ومع ذلك، كانت الظروف فى «لاتشمير هاوس» فى نفس قسوة أسلوب «عين القصدير» فى الاستجواب - كانت الزنازين المروعة مسرحا للعديد من وقائع الانتحار. وقد اجتاز أربعة عشر مشتبها الاختبار وتحولوا إلى عملاء مزدوجين (كان من بينهم «إدى تشابمان» - ارجع إلى «العميل المتلوى»). كما أخفق خمسة عشر منهم وتم إرسالهم إلى برج لندن ليشنقوا أو يطلق عليهم الرصاص.

العميل ٠٠٧ الأصلى

«سيدنى رايلى Sidney Reilly» هو الأكثر استحقاقا للقب «جيمس بوند الحقيقى». فعبر عقود، حاول المؤرخون فك الخيوط المعقدة لحياته، ولكن الكثير منها بقى متشابكا فى الأساطير والغموض. ولد «رايلى» فى روسيا عام ١٨٧٣ باسم «روزنبلوم Rosenblum»، ثم وجد نفسه فى لندن عن طريق:

أ- الاختباء على سفينة بريطانية متجهة إلى البرازيل، عقب تلفيق وفاته، بعد أن اتهمه الروس بأنه ثورى، ثم حصل لاحقا على جواز سفر بريطانى بعد أن أنقذ حياة ضابط استخبارات زائر أثناء هجوم شنه مواطنون محليون.

أو

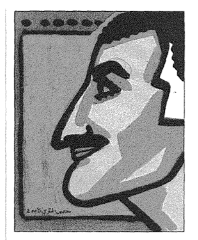
ب - فر من إحدى ضواحى باريس حيث حصل هو وشريك له يدعى «فويتيك Voitek» على كميات هائلة من المال من اثنين من مثيرى الشغب الإيطاليين عثر عليهما فيما بعد مطعونين حتى الموت.

فى لندن، حيث تمسك بالرواية الأولى، سرعان ما تسلق «رايلى» إلى المجتمع الراقى، مشبعا ضعفه تجاه كازينوهات القمار والنساء والحياة السريعة. ومع هويته وجواز سفره الجديدين، عاد زير النساء المهذب إلى روسيا حيث تجسس لصالح بريطانيا واليابان.

فى عام ١٩٠٩، تعلم «رايلى» اللحام وتنكر كعامل أحواض سفن من البلطيق ووجد عملا فى مصنع ألمانى للأسلحة. وقد خنق أحد رؤساء العمال بعد أن أمسك به يسرق تصميمات للأسلحة، قبل أن يفر بها من البلاد. وفى نفس العام - وفقا لإحدى الروايات - شارك «رايلى» كطيار فى معرض فرانكفورت للطيران ونزع مغنيط (مولد كهربائى) متطور من طائرة ألمانية. وقد وضع - بمساعدة شريك له - رسوما تفصيلية للجهاز قبل أن يعيد تركيبه مرة ثانية فى مكانه.

جاء الانتصار الأكبر لـ «رايلى» عام ١٩١٨ عندما خطط للإطاحة بالحكومة البلشفية واغتيال «لينين Lenin». وعندما سرب الخطة رجال موالون للزعيم الشيوعى، فر «رايلى» عائدا إلى بريطانيا عبر فنلندا والسويد وحكم عليه بالإعدام غيابيا.

فى عام ١٩٢٥، انضم «رايلى» إلى جماعة وهمية مناوئة للشيوعية يقودها عملاء روس. لاحقا، تحدث أحدهم عن «رايلى» قائلا: «كانت عيناه الداكنتان تعبران عن شيء لاذع وقاس؛ كانت شفته السفلى تتدلى عميقا وكان شديد المراوغة، بشعره الأسود المصفف وحلته شديدة الأناقة. كل شيء فى أسلوبه كان يعبر عن لا مبالاة متغطرسة بما حوله». أطلق الرصاص على «رايلى» - الذى عرف بـ «أعظم الجواسيس» - وقتل، تاركا وراءه سلسلة من





كان «إيدى تشابمان Eddie Chapman» زير نساء ومجرما ولص خزائن يقضى عقوبة فى سجن جزيرة «جيرسى» ثم جرى تدريبه ليصبح أعظم عميل بريطانى مزدوج فى زمن الحرب



الزوجات اللاتى قاضين - بلا جدوى - الـ MI6 للحصول على تعويض. وكان من بينهن ممثلة اسمه «بيبيتا بوباديلا Pepita Bobadilla».

عندما ينكشف السر

كثير مما يدور داخل وكالات الاستخبارات يبقى فى الظل. ولم تقر الحكومة بوجود تلك الوكالات إلا فى عام ١٩٩٢. قبل ذلك، كما علق المؤرخ السير «مايكل هوارد Michael Howard": «فيما يتعلق بسياسة الحكومة، فإن خدمات الأمن والاستخبارات البريطانية، الـ MI5 والـ MI6، لا وجود لهما، وعملاء العدو موجودون تحت شجيرات الكشمش، والمعلومات تصلنا عن طريق طيور اللقلق».

فى عام ١٩٣٣، جرت محاكمة عميل سكوتلاندى سابق لـ MI6 - كان قد هدد بـ «كشف الغطاء» عن الخدمات السرية - بموجب قانون الأسرار الرسمية، وتم تغريمه مائة جنيه لمجرد كشفه عن أن رئيس MI6 كان يعرف بالاسم الكودى «سى C». اليوم لم يعد «سى» مجرد اسم - السير «جون سكارليت John Scarlett» - بل يتم تصويره وترتبت مقابلة معه فى مكتبه من قبل «بى بى سى BBC» أوائل هذا العام.



فى يوليو الماضى تم الكشف عن معلومات شخصية تخص خليفة «سكارليت»، السير «جون ساورز John Sawers» عند اكتشاف أن حساب زوجته فى الـ «فيس بوك Facebook» كان غير محمى. وقد نفى وزير الخارجية «دافيد ميليباند David Miliband» مزاعم بأن الإجراءات الأمنية لم تعد صارمة، قائلا: «أنتم تعلمون أنه يرتدى رداء سباحة من نوع «سبيدو Speedo». ذلك ليس أحد أسرار الدولة».

معدات التجسس الدقيقة

يعتبر القسم «دى D » فى MI6 هو مقر المدير التنفيذى للعمليات الخاصة الحربية والمعروف أيضا باسم «جيش تشرشل السرى». كان هذا القسم مسئولا عن بعض أكثر الأجهزة الإلكترونية الدقيقة براعة فى الخدمة السرية.

كانت قوالب للأقدام الحافية تستخدم فى الشرق الأوسط لصنع خف يترك «بصمات أقدام» تبدو وكأنها تعود للسكان المحليين.

كانت أنابيب كريم الحلاقة تصمم بحجيرات كبيرة بما يكفى لإخفاء رسائل - مع مقدار صغير من الكريم الحقيقى.

كانت الفئران الميتة تملأ بالمتفجرات لتلقى على الفحم بجوار الغلايات الألمانية. وكانت تنفجر بعد أن تجرف للداخل.

كانت جذوع مصنوعة من الجص تطلى لتشبه الأشجار وتملأ بالذخيرة أو الأسلحة قبل غرسها فى غابة شجرية.

كانت حقائب الأوراق الحارقة تصمم لحمل الوثائق. وقد انفجرت إحداها على غير المتوقع مما أوقع إصابة خطيرة بأحد الجواسيس فى تايلاند.

الخيانة الأعظم

ربما كان «كيم فيلبى Kim Philby» وجواسيسه المعروفون باسم «جواسيس كامبردج»، العملاء المزدوجين الأسوأ سمعة الذين أحرجوا MI6، ولكن يقال أن خائنا أقل شهرة قد سبب ضررا أكبر. ولد «جورج بليك George Blake» فى روتردام لأب بريطانى من أبطال الحرب. وقد انضم للبحرية الملكية لاحقا وعمل فى الاستخبارات تحت رئاسة «إيان فليمنج Ian Fleming» الذى كان سيقوم بعد ذلك بتأليف كتب «جيمس بوند». عرض «فليمنج» عملا مع MI6، وبعد دورة خاطفة فى اللغة الروسية أرسل «بليك» إلى كوريا الجنوبية. عززت المهمة ولاءاته الشيوعية، وسرعان ما اتصل بالـ «كى جى بى KGB» (الاستخبارات السوفيتية، المترجم)، مما أدى إلى تدمير معظم عمليات MI6 فى أوروبا الشرقية. وقد اعترف لاحقا «لا أعلم ما الذى قدمته لأنه كان كثيرا جدا».

فى عام ١٩٥٣، أخبر «بليك» أربابه بشأن نفق كان البريطانيون يحفرونه تحت برلين الشرقية التى يحتلها الروس، فى محاولة للتنصت على شبكة اتصالات الجيش الأحمر.

بعد افتضاح أمره فى النهاية على يد منشق بولندى زعم أن «بليك» قد تسبب فى مقتل أربعين عميلا بريطانيا، تم استدعاؤه إلى لندن والقبض عليه. حاولت الحكومة التغطية على خيانة «بليك» ولكنها أخفقت فى ذلك. وفى عام ١٩٦١ حكم عليه بالسجن لمدة ٤٢ عاما - وهو حكم قياسى فى ذلك الوقت - ولكنه تسلق بعد خمس سنوات الجدران الخارجية لسجن «ورمود سكرابس Wormwood Scrubs» باستخدام سلم مصنوع من النايلون مدعم بإبر التريكو. وبعد عام ظهر فى موسكو حيث يعيش حتى الآن. وفى عام ٢٠٠٧، كرم «فلاديمير بوتين Vladimir Putin» العميل المزدوج السابق العجوز البالغ من العمر ٨٥ عاما. وفى العام نفسه ذكر رئيس الاستخبارات الروسية أن «بليك» «لا يزال يلعب دورا نشطا فى شئون الخدمة السرية».

عملاء مزدوجون فى خطر

كان «أوليج جورديفسكى Oleg Gordievsky» هو الأعلى منزلة من بين الجواسيس السوفييت الذين لجأوا إلى الغرب أثناء الحرب الباردة. وقد أرسلته موسكو ليقود عملية جمع المعلومات فى لندن عام ١٩٨٢، ولكنه استمر فى تمرير المعلومات السرية إلى MI6. وقد انكشف أمره عام ١٩٨٥ وعاد إلى روسيا، فقط ليهرب مرة ثانية إلى بريطانيا. وهو يعيش فى لندن، وقد اتهم «عناصر مارقة» فى موسكو بالتآمر لاغتياله بحبوب دواء مسمومة.

أشهر ما يعرف به «آرثر رانسوم Arthur Ransome» أنه مؤلف كتاب «سوالوز آند أمازونز Swallows and Amazons»، ولكنه قبل ذلك كان يعيش فى موسكو وتزوج سكرتيرة «تروتسكى Trotsky» (أحد أقطاب الثورة الروسية) وقطن فى شقة مع رئيس الدعاية البلشفية واعتنق أفكار «لينين» - وقام بتهريب ملايين الروبلات فى صورة ماس لدعم القضية الشيوعية بالخارج وكان عند حسن ظن البلاشفة تماما حتى جندته MI6 كعميل مزدوج.

كان «كيم فيلبى» العضو الأكثر نجاحا من بين مجموعة كامبردج الخمسة سيئى السمعة؛ فقد التقى فى الجامعة بـ «دونالد ماكلين Donald Maclean» و«جاى بيرجيس Guy Burgess» و«أنتونى بلانت Anthony Blunt» و«جون

كيرنكروس John Cairncross». وقد أصبحوا شيوعيين، واستمر «فيلبى» فى التجسس لصالح روسيا لأكثر من خمسين عاما شغل أثناءها منصب رئيس القسم السوفييتى فى MI6 أثناء الحرب. وقد كشف أمره وفر فى النهاية إلى موسكو حيث توفى عام ١٩٨٨.

انضم «دنيس دونالدسون Denis Donaldson» إلى الجيش الجمهورى الأيرلندى فى الستينيات. وقد شق طريقه من مجرد مراهق يحمل سلاحا إلى المساعد الأوثق لدى «جيرى آدامز Gerry Adams»، ولكن الاستخبارات البريطانية جندته سرا فى الثمانينيات. وبعد عشرين عاما من العمل كعميل مزدوج - أقام خلالها صلات جمهورية مع جماعات إرهابية أوروبية من بينها «إيتا Eta» - انكشف أمره عام ٢٠٠٢. وقد فر إلى كوخ مهجور فى «كاونتى دونجال County Donegal»، حيث عثر عليه مقتولا بالرصاص عام ٢٠٠٦.

عندما تحولت شخصية «إم M» إلى «إم آند إس M &S» (Marks & Spencer، المترجم)

لعقود عديدة، اقتصر دور النساء داخل الخدمة السرية على الأعمال الإدارية والسكرتارية. ولكن فى عام ١٩٦٧ بدأت أمينة سجلات تعيش فى الهند مع زوجها الدبلوماسى فى تنفيذ مهمات صغيرة لـ MI5. وفى لندن فى بداية السبعينات وضعت اسمها على خطاب مفتوح تطلب فيه الترقية. كان الخطاب يقول «لماذا لا تصبح النساء ضباطا مثل الرجال؟»، وبعد عقدين من الزمان أصبحت «ستيلا ريمنجتون Stella Rimington» أول امرأة مدير عام للخدمة السرية.

بعد تقاعدها عام ١٩٩٦، أصبحت «ريمنجتون» مديرة غير تنفيذية فى «ماركس آند سبنسر Marks & Spencer». وكاستغلال غير مألوف لمهاراتها الاستخباراتية، كانت تتنصت على الزبائن أثناء تجولها بين ممرات السوبر ماركت وتبلغ النتائج للمقر الرئيسى.

و«ريمنجتون» هى ملهمة شخصية «إم M» التى قدمتها «جودى دينش» فى أفلام «جيمس بوند». وقد وصفت «ريمنجتون» تصوير الشخصية بأنه «مبهر»، وأضافت بأنها كانت: «جيدة جدا فعلا. بل إنها تمسك يديها كما أفعل». ■

«كريستوفر أندرو» يتحدث عن كتابه



جايل فور
Gaelle Faure

■ هل منحت حرية كاملة للوصول إلى ملفات MI5 حتى وقتنا الحاضر؟

لقد حصلت بالفعل على حرية ولوج غير محدودة. ومع ذلك، فأنا لم أطلب الولوج لملفات القرن الحادى والعشرين للقضايا التى لم تصل بعد للقضاء أو التى ما زالت قيد التحقيق.

● *ما هى أكبر مفاجأة كشفت عنها النقاب؟*

أحد الاكتشافات ترك عندى انطباعا حقيقيا. إن المهمة الأولى لأى وكالة استخبارات هى أن تذكر الحقيقة للسلطة الحاكمة. وقد عثرت على أول مثال لذلك أثناء أزمة ميونخ عام ١٩٣٨، وهى إحدى أهم اللحظات المشينة فى تاريخ السياسة الخارجية البريطانية. فى ذلك الوقت، كانت MI5 بالفعل تفهم «أدولف هتلر Adolf Hitler» بصورة أكبر كثيرا من الحكومة البريطانية ورئيس الوزراء فى ذلك الوقت «نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain» على وجه الخصوص. حيث لم يكن يعير اهتماما لما يقولونه له أثناء المفاوضات التى أدت إلى اتفاقيات ميونخ. ولذلك قرر «فيرنون كيل Vernon Kell» (رئيس MI5 فى ذلك الوقت) أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى رئيس الوزراء هى أن يخبره بما يقوله «هتلر» عنه، وبالتحديد أنه يطلق عليه «فتحة الشرج». وقد أبلغه بالكلمة الألمانية التى قيل أن «هتلر» استخدمها «arschloch». (يرجى الرجوع إلى صور صعود هتلر للسلطة).

● *هل تعتقد أن الشفافية تساعد وكالات الاستخبارات على المدى الطويل؟*

نعم. كانت الفكرة فى الماضى أنك لا تريد أن يعرف العامة أى شىء، ولذلك فإنك لم تكن تخبرهم بأى شىء. والذى تغير منذ جيل مضى هو أن الشعب البريطانى أصبح أقل كياسة، وإذا لم تكن لديه فكرة ما عما يدور، فإنه يستسلم لنظرية المؤامرة. وعلى أية حال، فإن الكتاب الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة عن الاستخبارات البريطانية هو «صائد الجواسيس Spycatcher» لـ «بيتر رايت Peter Wright». وما زالت بعض القصص التى ضمنها الكتاب - وهى محض هراء - تلقى قبولا واسعا: أنه كانت هناك مؤامرة ضد رئيس الوزراء الأسبق «هارولد ويلسون Harold Wilson»، أعلم الآن أنها غير حقيقية رغم وجود ملف عنه، وأن السير «روجر هوليس Roger Hollis»، رئيس MI5 طوال تسع سنوات، كان فى الحقيقة عميلا سوفيتيا. الملفات تنفى ذلك أيضا. إذا لم تكن لديك معلومات فإنك تحصل على أكاذيب.

● *بعد استعراض مائة عام من الملفات، ما الذى تعتبره أكبر نجاحات MI5؟*

كان ذلك بالتأكيد ضد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية. فقد تم تحويل بعض أفضل الجواسيس الألمان إلى عملاء مزدوجين، وكان ذلك هو الجزء المحورى للخداع الأكثر نجاحا فى تاريخ الحروب، والذى بدونه لم تكن لتتحقق عملية الإنزال فى نورماندى. وما اكتشفته من خلال الملفات هو الكيفية التى بدأ بها الأمر برمته بأسلوب بريطانى يتسم بغرابة الأطوار. كان أكثر العملاء المغامرين لـ MI5 فى الثلاثينيات هو أحد أبطال الجو فى الحرب العالمية الأولى يسمى «كريستوفر درابر Christopher Draper»، وكان يدعى «الرائد المجنون» لأنه كان مهووسا تماما بالطيران تحت كبارى لندن. وقد دعى إلى ألمانيا. وكان «هتلر» مهتما به للغاية وأمضى أكثر من نصف ساعة يتحدث معه أثناء أحد العروض الجوية. وعند عودته إلى لندن، طلب منه أن يصبح جاسوسا للاستخبارات الألمانية فأجاب بالموافقة وعرج على MI5 لاستطلاع رأيهم! وبمراقبة الاتصالات التى كان عليه أن يقوم بها مع الاستخبارات الألمانية، اكتشفت MI5 بالمصادفة عميلا ألمانيا لم تكن تعلم عنه شيئا، وبدأت فى الإيقاع بكامل الشبكة الألمانية.

● *إذن كان لـ MI5 نصيبها من الشخصيات المميزة؟*

بقدر علمى، فإن MI5 هى أول وكالة حكومية تحدد الحس الفكاهى كإحدى الخصال المطلوبة فى المجندين لديها. إذا نظرت إلى عالم الجاسوسية، تجد أنها المهنة الوحيدة التى تكون فيها الشخصية الخيالية أكثر شهرة مائة مرة على الأقل من أى شخصية حقيقية. و«جيمس بوند» هو القائد المميز الوحيد الذى بقى على القمة عبر السنين. وقد أخبرنى مسئول فى الاستخبارات ذات يوم أنه التقى فى إحدى المرات فى أعماق العالم الثالث بأحد زعماء القبائل كان يظن أنه لا يعرف الإنجليزية، ولكنه خاطبه بالجملة الشهيرة: «مرحبا سيد بوند». (يرجى الرجوع إلى صور جيمس بوند).

● *ماذا عن أكبر إخفاقات MI5؟*

يرتبط ذلك بأكبر إخفاقات الاستخبارات الغربية عموما. عندما بدأت MI5 فى الانخراط فى أيرلندا فى بداية السبعينيات - كانوا فى ذلك الوقت يعلمون عن بلفاست أقل مما يعلمون عن نيروبى - حسنا، لم أعثر على ملف واحد يتعلق بالاستخبارات أثناء القلاقل التى بدأت عام ١٩٦٩ والاستخبارات فى الفترة من تمرد عيد الفصح عام ١٩١٦ حتى إنشاء دولة (أيرلندية) حرة عام ١٩٢٢. تشير الملفات من تلك الفترة السابقة إلى أن الاستخبارات كانت فى حيرة لا تصدق وكان تنسيقها ضعيفا مع الشرطة المحلية. ماذا حدث فى السبعينيات؟ نفس الشىء تماما. إنه نموذج مثالى تقريبا للمثل القديم القائل بأن أولئك الذين لا يدركون أخطاء الماضى محتم عليهم أن يكرروها.

إن إلقاء نظرة طويلة الأمد كان يمكن أيضا أن يساعد فى التنبؤ بصورة أفضل بالإرهاب الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين. كانت MI5 بطيئة فى إدراك التهديد المحتمل، حيث كانت منشغلة فى معالجة حملات الجيش الجمهورى الأيرلندى فى التسعينيات. ولم تدرك MI5 قبل عام ٢٠٠٣ أن تطرف الأقلية المسلمة البريطانية قد يؤدى إلى هجمات إرهابية على أهداف بريطانية. (يرجى الرجوع إلى صور الإرهاب فى المملكة المتحدة).

● *لقد اكتشفت أن ثلاثة أعضاء فى البرلمان من حزب العمال أثناء حكومة «ويلسون» يعدون عملاء سوفييت. هل شكل ذلك صدمة لك؟*

كان ذلك بمثابة مفاجأة. ومع ذلك، فإن ما أدهشنى أكثر هو أن درجة الاهتمام الشديد بتهديد الدمار الشيوعى لم يأت عادة من قبل MI5 وإنما من الحكومة. فقد أرسلت قيادة حزب العمال إلى MI5 قائمة بأسماء ستة عشر عضوا بالبرلمان من حزب العمال اعتقدت قيادة الحزب أنهم شيوعيون أكثر من كونهم عمالا. ولكن MI5 رفضت التورط حيث اعتبرت ذلك مجرد سياسات حزبية. وعلى أية حال فإننا نعلم الآن أن الرجل على رأس تلك القائمة «ويل أوين Will Owen»، كان عميلا تشيكيا منذ سنوات! ■

كان الإسرائيليون قد هدموا بالفعل العديد من المنازل والمبانى قبل أن تقرر «راشيل» الذهاب الى هناك

راشيل كورى.........

فى السادس عشر من مارس عام ٢٠٠٣، سحقت «كورى»، الطالبة الأمريكية (٢٣ سنة)، تحت جرافة تابعة للجيش الإسرائيلى فى غزة، كانت تقوم بتسوية الأرض وهدم منازل الفلسطينيين.

جويل بينين
Joel Beinin

جرى تنظيم مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى - الأقدم من نوعه فى الولايات المتحدة - كتمرد ضد الحكمة المعتادة. ومنذ العام ١٩٨٠، روج المهرجان للأفلام اليهودية المستقلة التى تفند تصوير هوليوود التقليدى للحياة اليهودية، وخاصة التركيز المتباكى المبالغ فيه على الغبن الواقع على اليهود، وقدم بانتظام «بدائل للنظرة المعتادة غير الانتقادية الرائجة فى المجتمع اليهودى الأمريكى للحياة والسياسة فى إسرائيل». وقد تفاعل جمهور المهرجان. ومعظمهم من اليهود. بإيجابية مع هذا التوجه، حتى فى عام ٢٠٠٥ عندما قرر المنظمون عرض فيلم المخرج الفلسطينى «هانى أبو أسعد» «الجنة الآن Paradise Now» الذى يدور حول التفجيرات الانتحارية.

كما يرحب المهرجان أيضا بالمخرجين المبدعين اليهود الإسرائيليين المنتقدين. ففى عام ٢٠٠٨، قدم إلى سان فرانسيسكو المخرج الإسرائيلى «شاى كارميلى بولاك Shai Carmeli Pollak» لعرض فيلمه «بلعين حبيبتى» الذى يسجل الكفاح السلمى للفلسطينيين ومؤيديهم فى إسرائيل وخارجها لإيقاف بناء الجدار الإسرائيلى الفاصل فى إحدى قرى الضفة الغربية. كما عرض المهرجان فى السابق فيلمين لـ «سيمون بيتون Simone Bitton» المواطنة مغربية الأصل صاحبة الجنسية الإسرائيلية-الفرنسية المزدوجة. الأول هو «محمود درويش: لغة الأرض Mahmoud Darwich: The Land as Language» (١٩٩٨)، وهو فيلم سيرة ذاتية يمجد نابغة الشعر الفلسطينى الراحل. والثانى «جدار Wall» (٢٠٠٥)، عبارة عن تحقيق غير مجامل عن الجدار الفاصل.

إن العمل الجديد لـ «بيتون»، فيلم «راشيل» (من إنتاج شركة سينى-زوت بروموشن Cine-Sud Promotion عام ٢٠٠٨) لم يتم توزيعه بعد. ولكنه عرض فقط فى مهرجانات الأفلام فى برلين وباريس ونيويورك وساراييفو وتورنتو وغيرها. وتم عرضه فى خريف عام ٢٠٠٩ فى مهرجان حيفا للأفلام فى إسرائيل. وقد تم عرضه فى الخامس والعشرين من يوليو والرابع من أغسطس فى مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى.

من المؤكد أن مجلس إدارة المهرجان كان يعلم أن عرض فيلم «راشيل» - الذى يناقش الموت الوحشى لـ «راشيل كورى Rachel Corrie»، وهى ناشطة سلام أمريكية تبلغ من العمر ٢٣ عاما، على يد الجيش الإسرائيلى - قد يزعج بعض المشاهدين اليهود. ولكنهم فى الغالب لم يكونوا متأهبين للاعتراضات الحادة، بل الهستيرية، للمنظمات الرسمية فى المجتمع اليهودى بـ «منطقة باى Bay Area». وبالنظر إلى تاريخ مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى، فمن الصعب أن نتخيل أن تلك المنظمات كانت منزعجة فى الأساس بسبب مضمون الفيلم. من المؤكد أنها قد ادخرت أقوى لغة لديها للهجوم على المشاركين فى رعاية عرض الفيلم «الصوت اليهودى للسلام Jewish Voice for Peace» و«لجنة خدمة الأصدقاء الأمريكيين American Friends Service Committee»، ولقرار منظمى المهرجان دعوة والدة «راشيل» «سيندى كورى Cindy Corrie»، والتى لقبوها بـ «منتقدة إسرائيل»، للمشاركة فى جلسة أسئلة وأجوبة بعد إضاءة الأنوار.

ولكن الغضب الشامل ضد «انتقاد إسرائيل» هو تفسير غير مقنع لغضب المنظمات اليهودية، حيث قامت منظمة «الصوت اليهودى للسلام» فى السابق بالمشاركة فى رعاية أفلام فى المهرجان، كما أن «كارميلى بولاك» ومنتجى أفلام يهودا آخرين انتقدوا سياسات الاحتلال الإسرائيلى بعبارات أكثر حدة بكثير من أى شىء قاله أى شخص من عائلة «كورى» فى هذا السياق. ربما تكمن المشكلة فى أن منظمى المهرجان استقدموا غير يهود - «لجنة الأصدقاء الأمريكيين» و«سيندى كورى» - إلى داخل المجتمع اليهودى ليشهدوا شيئا يخجل منه كثير من أعضاء هذا المجتمع.

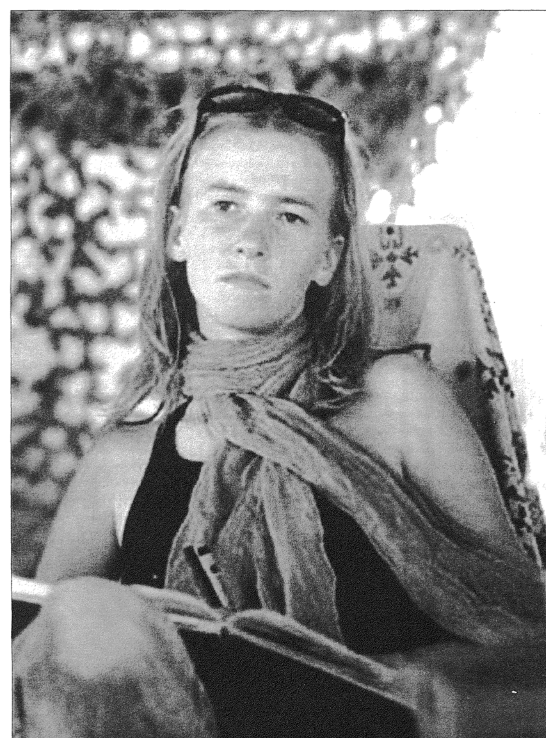
جلب مقتل «راشيل كورى» مجموعة كبيرة من التحقيقات الصحفية، وكلها تدور فى الظاهر حول الاستعراض المتفحص لروايات الناشطين من زملائها فى «حركة التضامن الدولية International Solidarity Movement» الذين يقولون بأنها قد أغتيلت، والرواية المنافسة للدولة الإسرائيلية التى تفضل اعتبار النهاية المبكرة لحياتها «حادثا مؤسفا». وقد تشككت بعض الروايات الإعلامية فى التحقيق الداخلى للجيش، بعكس روايات أخرى. وقد بدا أن بعض المراسلين أكثر توقا لإشعال النار فى نشطاء «حركة التضامن الدولية» الذين كانوا موجودين وقت الحادث، أكثر من الجنود، وهو ما ينسجم تماما مع الهجوم المضاد الذى قام به الجيش الإسرائيلى نفسه: «نحن نتعامل مع مجموعة من المحتجين الذين يتصرفون بلا مسئولية على الإطلاق معرضين الجميع للخطر - الفلسطينيين وهم أنفسهم وقواتنا - عن طريق تعمد التواجد فى مناطق القتال». وبالنسبة للجيش، فرغم ما تردد عن تعهد «آرييل شارون» رئيس الوزراء الإسرائيلى للرئيس

فيلم Rachel «راشيل»
إخراج: Simone Bitton
Cine-Sud Promotion - 2008

ترجمة: عادل فتحى

قتلت «كورى» بينما كانت تقف بدون سلاح أمام منزل الصيدلى الفلسطينى «سمير نصر الله»، فى محاولة لمنع الجرافة من إزالته

.. وأيضا فى سان فرانسيسكو



الأمريكى «جورج دبليو بوش» بإجراء تحقيق «شامل وموثوق وشفاف»، فلم يكن تقريبا مسموحا بأى إشراف خارجى. ولم تستطع منظمة «مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch»، التى ضمنت فقرة عن «كورى» فى تقرير وضع فى يونيو ٢٠٠٥ عن التحقيقات العسكرية الإسرائيلية القاصرة، أن تعلن عن رأيها فى كيفية وفاتها، ولكنها استنتجت أن «النزاهة والحرفية للتحقيق الإسرائيلى فى وفاة «كورى» مشكوك فيهما إلى حد كبير». وفى جميع الأحوال، لم يكن هناك خلاف يذكر حول الحقائق التالية.

فى السادس عشر من مارس عام ٢٠٠٣ سحقت «كورى»، الطالبة فى السنة النهائية بكلية ولاية إيفرجرين Evergreen State College فى مدينة أوليمبيا بولاية واشنطون الأمريكية، فى غزة تحت جرافة تابعة للجيش الإسرائيلى. كانت الجرافة العملاقة من طراز «كاتربيلار د Caterpillar D, 9 ،9» والتى جهزتها إسرائيل بالدروع تقوم بتسوية الأرض وهدم منازل الفلسطينيين فى مدينة رفح عبر محور فيلادلفيا. وهو الطريق الذى يمر بجوار الحدود بين مصر وقطاع غزة. كانت العديد من المنازل والمبانى قد هدمت بالفعل لخلق مساحة فارغة استعدادا لبناء حائط على الحدود. كانت «كورى» تعمل مع «حركة التضامن الدولية»، وهى منظمة مكرسة للعمل السلمى المباشر بالتضامن مع الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال العسكرى. قتلت «كورى» بينما كانت تقف بدون سلاح أمام منزل الصيدلى الفلسطينى «سمير نصر الله»، فى محاولة لمنع الجرافة من إزالته.

يصور فيلم «راشيل» بصورة مؤثرة للغاية «راشيل كورى» كإنسان وكمتطوعة فى «حركة التضامن الدولية»، وعلى الرغم من غياب أية استنتاجات مؤكدة، يعد الفيلم أيضا أكثر التحقيقات التى أجريت شمولا ومصداقية وشفافية حول كيفية مقتلها على وجه التحديد ومن هو المسئول عن ذلك. وكما كتبت «بيتون» فى إحدى صفحات الـ «فيس بوك Facebook» المكرسة لفيلم «راشيل»، فإنه «يحقق بعضا

مما كان يجب أن تفعله محكمة، من إخضاع رواية دولة إسرائيل عن مصرع «كورى» للفحص تحت المجهر.

تركز «سيمون بيتون» فى البداية على الأسابيع الثمانية الأخيرة من حياة «كورى»، وأسبابها للذهاب إلى غزة، وعلاقاتها بالعديد من الفلسطينيين التى أصبحت شديدة القرب منهم، ونشاط «حركة التضامن الدولية» فى رفح. لقد ولدت الحركة فى ربيع وصيف عام ٢٠٠١. فى خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من الانتفاضة الثانية التى اندلعت فى أعقاب زيارة «أرييل شارون» لـ «جبل المعبد/الحرم الشريف» فى سبتمبر عام ٢٠٠٠، كانت صحيفة «معاريف» اليومية الإسرائيلية اليمينية قد نشرت أن القوات الإسرائيلية أطلقت مليون رصاصة على المتظاهرين الفلسطينيين العزل فى أغلبيتهم. وقد انهمر هذا المطر من الرصاص قبل وقوع أية تفجيرات انتحارية أو أعمال إرهابية أخرى داخل إسرائيل فى حدود ما قبل عام ١٩٦٧. (كان آخر تفجير انتحارى قد وقع عام ١٩٩٨). وفى مواجهة هذا الخلل فى موازين القوة، توصل «غسان آندونى» و«جورج ريشماوى» و«هويدا عراف» وغيرهم إلى فكرة أن حضورا دوليا سلميا ربما يحمى الفلسطينيين من وحشية الجيش الإسرائيلى. كما اعتقدوا، بالإضافة إلى ذلك، أن الشهود الدوليين الذين يكشفون عما رأوا ومروا به يمكن أن يزيدوا من الوعى العالمى والتغطية الإعلامية للعنف الإسرائيلى. وقد وصل أول فريق تابع لـ «حركة التضامن الدولية» إلى فلسطين فى أغسطس عام ٢٠٠١. كانت «كورى» مشاركة متحمسة، وقد كتبت لعائلتها من هناك «إن حضورى إلى هنا هو من أفضل الأشياء التى فعلتها فى حياتى». ويمثل تكرار تلك الكلمات فى الفيلم لحظة تمزق القلوب، حيث يعلم المشاهدون أن «راشيل كورى» ستموت بعد قليل.

يولى فيلم «راشيل» اهتماما دقيقا بالظروف التى أحاطت بمصرع البطلة. ومثل محقق جنائى، قامت «بيتون» بجمع الشهادات الشفهية والوثائق والصور ومقاطع الفيديو الخاصة بالقضية. ولا تسمع فى الفيلم سوى أصوات أولئك وثيقى الصلة بالموضوع: زملاء «كورى» فى «حركة التضامن الدولية»، والأصدقاء الفلسطينيين، والمضيفين فى رفح، و«آندونى» المشارك فى تأسيس الحركة، وضابط الجيش الإسرائيلى الذى حقق القضية، والمحقق الجنائى من تل أبيب الذى فحص الجثة، و«جوناثان بولاك Jonathan Pollak» عضو الجماعة الإسرائيلية «فوضويون ضد الجدار Anarchists Against the Wall» (وشقيق منتج الفيلم «بلعين حبيبتى») الذى استضاف زملاء «كورى» بمنزله فى تل أبيب بعد مصرعها. ويسمع فى الفيلم أيضا صوت «راشيل كورى» نفسها من خلال تلاوة الراوى لرسائل البريد الإلكترونى التى أرسلتها لعائلتها.

لا توجد بالفيلم بيانات سياسية مجردة. وتجرى مقارنة الشهادات المتناقضة. ومن الملاحظ أنه من بين جميع من جرت محاورتهم فإن «آندونى» هو الوحيد الذى يعتبر أنه ربما يتحمل جزءا من المسئولية عن مصرع «كورى»، بالنظر إلى أنه قام بتدريبها وأرسلها إلى رفح. ومثل محامى، تواصل «بيتون» استجواب الشهود دون مرافعات للمحكمة أو استخلاص دلائل شهاداتهم. ويجعل هذا الأسلوب من الفيلم سجلا وثائقيا قويا تتجاوز قيمته كثيرا تعاطف «بيتون» الواضح مع «كورى» وتشككها فى الرواية الرسمية.

إن تلك الرواية - «من الواضح أن مصرع الآنسة «كورى» لم يقع كنتيجة لعمل مباشر من قبل الجرافة أو مرورها فوقها» - لا تصمد كثيرا أمام عدسة «بيتون». وأمام الكاميرا، يعبر ضابط الشرطة العسكرية الإسرائيلية الذى قاد التحقيق عن ظلال من الشك فى استنتاجاته. فهو يعترف أنه لم يزر موقع منزل «نصر الله» واعتمد أساسا على شهادة الجنود. ومن بين الشهود الذين لم يستجوبهم كان متطوعو «حركة التضامن الدولية» الذين شاهدوا - من مسافة لا تزيد على عشرة أمتار - الجرافة تدهس «كورى». وهم يؤكدون أن زميلتهم قد دهست عن قصد تماما، ليس مرة واحدة، بل مرتين. أما الادعاء الرسمى بأن سائق الجرافة لم ير «كورى» لأنها كانت خلف كومة من التراب فقد دحضه تماما شريط فيديو للجيش الإسرائيلى تظهر فيه «كورى» واقفة فوق قمة الكومة مرتدية معطفا برتقالى اللون عاكسا شديد الوضوح بينما كانت الجرافة تقترب.

فى أبريل عام ٢٠٠٣، نشر المركز الإسرائيلى الوطنى للطب الشرعى تقرير تشريح يرجع مصرع «كورى» إلى «ضغط على الصدر (اختناق) مع كسور فى الضلوع وفقرات العمود الفقرى بالظهر وعظمتى الكتف وجروح قطعية فى الرئة اليمنى مع نزيف فى تجاويف الغشاء البللورى». كيف يمكن لهذه النتيجة - لقد سحقت حتى الموت - أن تستقيم مع الجزم الواضح للشرطة العسكرية بشأن الجرافة؟ ونظرا لأن المحقق الجنائى الذى أجرى التشريح لم يدخر جهدا فى الشرح لـ «بيتون» فمن الممكن أن تكون «كورى» قد قتلت بسبب ثقل التراب على جسدها عندما مرت الجرافة فوقها. وحيث أنه لم يكن هناك ما يدل على أن المعدن قد لامس جسدها، فإنه لم يستطع أن يستنتج أن الجرافة نفسها قد قتلتها.

لم يكن السلوك المريب من نصيب المسئولين الإسرائيليين فقط، ويستمر الفيلم فى توضيح ذلك. يعترف الطبيب الشرعى بحق أسرة «كورى» فى حضور التشريح؛ ونظرا لعدم تمكنهم من الحضور، كان من اللائق أن ترسل السفارة الأمريكية فى تل أبيب مندوبا عنها. ومع ذلك، ورغم طلب عائلة «كورى» أن يشهد مسئولو السفارة إجراء التشريح، فقد أخبروا المحقق الجنائى بعدم اهتمامهم بذلك، ولذلك قام الطبيب الشرعى بالعمل وحده.



يعد الفيلم أيضا أكثر التحقيقات التى أجريت شمولا ومصداقية وشفافية حول كيفية مقتلها على وجه التحديد ومن هو المسئول عن ذلك



حاولت عائلة «كورى» بإلحاح دفع حكومة الولايات المتحدة لفتح تحقيقها الخاص. وقد حصل قرار قدمه ممثلهم فى الكونجرس النائب «بريان بيرد Brian Baird» (نائب ولاية واشنطون عن الحزب الديمقراطى) يطالب فيه وزارة العدل بفتح تحقيق، حصل على ٧٨ مؤيدا، ولكن القرار دفن فى إحدى اللجان. وقد أخبر «جون مكاى John Mckay» المحامى العام الأمريكى الأسبق لمنطقة غرب واشنطون وأحد ثمانية محامى عموم أمريكيين فصلتهم إدارة بوش عام ٢٠٠٦، عائلة «كورى» «لن يكون هناك أبدا تحقيق أمريكى فى قضية «راشيل». وقد ظلت الحكومة الأمريكية عازفة عن التدخل رغم موقفها الخاص الذى لم تتراجع عنه أبدا، والمسجل فى خطاب إلى عائلة «كورى» من مسئول وزارة الخارجية الأسبق «لورانس ويلكرسون Lawrance Wilkerson»، بأن التحقيق الإسرائيلى كان قاصرا.

هل تعمد سائق الجرافة - الذى أبقى الجيش الإسرائيلى اسمه طى الكتمان - قتل «راشيل كورى»؟ لقد ظل الفيلم محايداً عن تلك النقطة. فطبقا لما ذكرته «بيتون»: «إن الجريمة المتعمدة التى يتعرض لها فيلمى ليست مصرع «راشيل كورى». إنها التدمير المتعمد لأحياء بأكملها، والتى تتم مع العلم بأن من سيبقون فى منازلهم أو يحاولون الدفاع عنها سيلقون حتفهم أثناء العملية. ويمكن للمرء أن يرى بوضوح أين يؤدى بنا ذلك: فبعد ست سنوات وفى نفس البقعة، قام نفس الجيش بقتل المئات من الضحايا الأبرياء فى عمليات قصف يفترض أنها دقيقة التصويب. فاليوم وصلنا إلى المحصلة النهائية: فجميع المدنيين الفلسطينيين، وكذلك كل من يسعى لتقديم العون لهم، هم ضحايا متضامنون محتملون. والحديث عن جرائم الحرب أو الإشارة إلى اتفاقيات جنيف يجعلك تبدو ساذجا وعتيقا».

لقد دونت تلك الكلمات فى بداية عام ٢٠٠٩، إثر «الحرب الشاملة» الإسرائيلية على «حماس وأمثالها» فى غزة، وهى العملية التى خلفت ما يزيد على ألف قتيل فلسطينى أعزل، ولكن الكلمات كانت صالحة لعام ٢٠٠٣ أيضا. فقد بدأ الجيش فى تدمير مجموعات كاملة من المنازل فى رفح لإغلاق نفس أنفاق

الإمداد العابرة للحدود التى افتضح أمرها أثناء حرب غزة عام ٢٠٠١.

ما قيمة حياة واحدة؟

إن مما يقلق بلا شك عمل فيلم يركز على حياة وموت شابة أمريكية واحدة بينما قتلت إسرائيل آلاف الفلسطينيين غير المقاتلين منذ اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧. أحد المبررات أن كلا من التقاليد اليهودية والإسلامية تؤكد على أن قيمة حياة كل إنسان هى مطلقة بنفس القدر. ومبرر آخر هو شهادة الجندى الذى يقول «لم نكن نعلم أنهم أجانب؛ اعتقدنا أنهم فلسطينيون». هل يشير ذلك إلى أنه لو كانت «راشيل كورى» فلسطينية، فإن قتلها كان سيكون أمرا روتينيا؟ هل كان الإعلام العالمى سيبقى غافلا عن ملاحظة مصرعها، وخاصة أن أى تحقيق كان سيكون - فى أفضل الأحوال - غير مبال؟ إن سجل إسرائيل فى المناطق المحتلة ورد فعل الإعلام التجارى تجاهها يشير إلى أن هذا الحدس ليس مستبعدا. ومع ذلك، فإن رد الفعل لمصرع «كورى» لم يكن قويا أيضا.

حتى قتلت «كورى»، لم تكن «حركة التضامن الدولية» تتصور أن يقدم الجيش الإسرائيلى على قتل أجانب. وفى الواقع، كانت «كورى» الأولى من بين العديد من الضحايا الأجانب. ففى الحادى عشر من أبريل عام ٢٠٠٣ قتل شاب ناشط آخر من الحركة - «توم هيرندال Tom Hurndall» - برصاصة فى رأسه فى قطاع غزة بواسطة قناص إسرائيل يدعى «تيسير الهيب» (وهو بدوى يخدم العديد من أفراد عائلته فى الجيش الإسرائيلى). دخل «هيرندال» فى غيبوبة ومات بعد تسعة أشهر. وفى أبريل عام ٢٠٠٥، أدانت محكمة عسكرية إسرائيلية «الهيب» بالقتل الخطأ وإعاقة العدالة؛ وحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات. وبعد ذلك بعام، قررت هيئة قضائية بريطانية أن «هيرندال» كان ضحية «قتل غير قانونى». ووفقا لما ذكره محامى عائلة «هيرندال»، فإن هذا التعبير القانونى يعنى أنه «قتل عمدا» أو أغتيل.

فى الثانى من مايو عام ٢٠٠٣، قتل بالرصاص مخرج أفلام من ويلز - «جيمس ميللر James Miller» على يد جندى إسرائيلى هو النقيب «هيب الهيب». وقد توصلت الشرطة العسكرية الإسرائيلية إلى أنها لم تتمكن من تأكيد أن طلقة «الهيب» هى المسئولة عن مصرع «ميللر». ومع ذلك، عوقب النقيب إداريا لانتهاكه قواعد الاشتباك ولتغيير روايته عن الواقعة. وفى أبريل عام ٢٠٠٦، أصدرت هيئة قضائية تابعة لمحكمة جنائية فى لندن حكما بـ «القتل غير القانونى». وفى أغسطس عام ٢٠٠٧، صرحت جريدة «هاآرتس» اليومية الإسرائيلية أن المحامى البريطانى العام كتب إلى نظيره الإسرائيلى يطالبه بإجراء تحقيق جنائى، على أساس أن اختبارات القذائف التى أجريت فى إسرائيل «تظهر فقط أن الرصاصة التى قتلت «جيمس ميللر» لم تخرج من مواسير بندقية السلاح الذى جرى فحصه». وتأسيسا على تحليل القذائف الذى أجراه البريطانيون، فإنهم يعتقدون أن الإسرائيليين قد اختبروا البنادق الخطأ أو حتى قاموا بتغيير ماسورة السلاح المقصود. ولم تقدم إسرائيل النقيب «الهيب» للمحاكمة.

كانت هناك أيضا عمليات إطلاق رصاص غير قاتلة. ففى الخامس من أبريل عام ٢٠٠٣، أطلقت قوات إسرائيلية عدة طلقات من رشاش آلى فى وجه «بريان آفيرى Brian Avery»، وهو متطوع أمريكى من «حركة التضامن الدولية» فى مدينة «جنين» بالضفة الغربية. وقد حطمت الطلقات فكه ومحجر عينه، ورفع «آفيرى» قضية تعويض عن الأضرار. وقد رفض الجيش التحقيق فى القضية زاعما أن أحدا من الجنود لم يبلغ عن الواقعة. وفى فبراير عام ٢٠٠٥، أمرت المحكمة العليا الإسرائيلية الجيش بإعادة فتح التحقيق. وفى نوفمبر عام ٢٠٠٨، توصل «آفيرى» إلى تسوية خارج المحكمة بقيمة مائة وخمسين ألف دولار. ومؤخرا، فى الثالث عشر من مارس عام ٢٠٠٩، أصيب «تريستان أندرسون Tristan Anderson» من أوكلاند - كاليفورنيا، بتلف خطير فى الدماغ فى قرية «نعلين» بالضفة الغربية، عندما أطلقت القوات الإسرائيلية على رأسه نوعا جديدا من عبوات الغاز المسيل للدموع عالية السرعة، والتى تستخدم منذ شنت إسرائيل هجومها على غزة فى ديسمبر عام ٢٠٠٨، كان «أندرسون» يتظاهر مع القرويين والإسرائيليين والأجانب ضد الجدار الفاصل الذى تبنيه إسرائيل والذى سيضم بالفعل ربع أراضى «نعلين». وقد أصيب أحد سكان «نعلين» فى نفس المظاهرة بطلقة فى ساقه بالذخيرة الحية. وما زال «أندرسون» راقدا فى حالة حرجة، ومن غير المؤكد توقع شفائه على المدى الطويل.

لا يتعرض فيلم «راشيل» لتلك الإصابات أو يحاول تقييم تأثير تدخل «حركة التضامن الدولية» فى الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى على المدى الطويل. وحيث أن أى شكل من المقاومة - السلمية أو المسلحة - لم يستطع ردع إسرائيل عن ذبح المدنيين فى قطاع غزة فى شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩، فربما كان من الإنصاف القول بأن أهم تأثير لأنشطة «حركة التضامن الدولية» كان على المتطوعين أنفسهم. يستكشف الفيلم بإيجاز تنوع الدوافع الشخصية والسياسية التى أتت بـ «راشيل كورى» وزملائها إلى فلسطين. من بين تلك الدوافع، المثالية غير الواعية والسذاجة الشابة (والتى يعترفون هم أنفسهم بها بالنظر على ما حدث فى الماضى). لم يكن أى منهم «خبيرا» بتاريخ الصراع أو أدرك بصورة شاملة تعقيدات المجتمع الفلسطينى الذى أقحموا أنفسهم فيه.

«يحقق الفيلم بعضا مما كان يجب أن تفعله محكمة» من إخضاع رواية دولة إسرائيل عن مصرع «كورى» للفحص تحت المجهر



ولكنهم تعلموا الآن درسا عسيرا: أى شخص يقف فى طريق إسرائيل قد يتعرض للقتل.

تجاوز خط أحمر

بينما يتعرض «غسان آندونى» وبعض أعضاء «حركة التضامن الدولية» للفكر النقدى لمصرع «راشيل كورى»، اتحدت المؤسسات الرسمية للمجتمع اليهودى بمنطقة «باى» للاعتراض على ذلك. من المؤكد أن المؤسسات اليهودية الرسمية لم تكن متأهبة لتأخذ فى الاعتبار تفسير «جوناثان بولاك» لاستعداده استضافة متطوعى «حركة التضامن الدولية» بمنزله: «لم أستطع العيش فى هذا المكان دون مقاومة، ليس فقط باللسان، وإنما بالفعل». وقد أصيب «بولاك» - وهو يهودى إسرائيلى - عدة مرات على يد الجيش الإسرائيلى أثناء تظاهره سلميا فى «بلعين». وفى أبريل عام ٢٠٠٥، أطلق جندى على رأسه عبوة غاز مسيل للدموع مسببا له نزيفين داخليين بالدماغ وجرح احتاج ٢٣ غرزة. وحيث إن المؤسسات اليهودية لم تثر فى الماضى احتجاجا ضد أفلام على نفس القدر من الاستفزاز، فربما كان رد فعلهم العنيف تجاه عرض فيلم «راشيل» نوعا من التحصن، بعد الإدانة الدولية الواسعة للهجوم الإسرائيلى على قطاع غزة.

وقد بدأت المواجهة فى المجتمع اليهودى بمنطقة «باى» بمقالة فى الجريدة اليهودية الأسبوعية «J»، التى أثار سخطها على وجه الخصوص أنه فى غياب «سيمون بيتون»، فإن «سيندى كورى» تلقت الأسئلة بعد العرض. كتبت جريدة «J»: «يعد ظهور «سيندى كورى» تجاوزا لخط أحمر. إن مهرجان الفيلم اليهودى ليس ملزما بتقديم ميكروفون لمكرهى إسرائيل». تشير الجريدة إلى أن هناك - ويجب أن تكون هناك - «خطوط» تعين حدود «الحوار المقبول» داخل المجتمع اليهودى، استخدمها عبارة المدير التنفيذى للمهرجان، «بيتر شتاين Peter Stein». أثناء العرض، تبدو مريبة مثل المفهوم المكارثى لـ «الأنشطة المعادية لأمريكا». ولم يوضح المحررون لماذا افترضوا أن «كورى» الأم كانت «مكرهة إسرائيل».

وبينما منحت جريدة «J» لنفسها الحق فى تحديد الخطوط الحمراء، ضغطت المؤسستان الخيريتان اليهوديتان

الرئيسيتان فى منطقة «باى» - «كوريت Koret» و«طوبى Taube» - على زر الهلع. وقد هاجمت المؤسسات مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى لارتكابه «ثلاثة أخطاء فادحة»: أولها «الشراكة مع «الصوت اليهودى للسلام» و«لجنة خدمات الأصدقاء الأمريكية» وهما جماعتان معاديتان بشدة لإسرائيل والسامية وتؤيدان المقاطعة والحظر والعقوبات ضد إسرائيل. وكلتاهما على صلة وثيقة بـ «حركة التضامن الدولية» وجماعات أخرى تساعد وتشجع الإرهاب ضد الدولة اليهودية. وتلك الجماعات تتجاوز الخطوط الحمراء للانضمام فى المجتمع اليهودى». وثانيها «عرض فيلم يلقى بلائمة المصرع العرضى لأحد المدنيين على أعتاب دولة إسرائيل». وثالثها «دعوة «سيندى كورى» إلى داخل مجتمعنا. لا يمكن لهذه الأم المفجوعة إلا أن تمثل انحيازا سلبيا ضد إسرائيل. لماذا تقدم منظمة يهودية لها ميكروفونا وخطابا مرتجلا تستخدمهما لإدانة إسرائيل، بينما يتوقع من الجمهور اليهودى أن يجلس مكانه ويستمع بأدب؟ لا يمكن أن توجد قوة مساوية لأم منفعلة مكلومة».

إن الحديث المنمق للمنظمات - فى أحسن الأحوال - متحيز. وتؤيد منظمة «الصوت اليهودى للسلام» صراحة بيع الأسهم الانتقائى الذى يستهدف الشركات الأمريكية التى تساند سياسات الاحتلال الإسرائيلى، كما نشط أعضاؤها فى جهودهم لحث شركة «كاتربيلار» لإيقاف بيع إسرائيل الجرافات التى تقوض المساكن الفلسطينية منتهكة القانون الدولى. وتذهب المنظمة أبعد من كثير من الجماعات اليهودية المعادية للاحتلال فى رفض إدانة حملات المقاطعة والحظر الأكثر شمولا. وموقع الجماعة على الإنترنت واضح بشأن فكرة أن مثل تلك الجهود وانتقاد إسرائيل عموما ليست بالضرورة عداء للسامية أو حتى «عداء لإسرائيل». وقد نشرت «الصوت اليهودى للسلام» بالفعل تفنيدا بحجم كتاب لتلك الأكذوبة بعنوان «إعادة تعريف العداء للسامية: رؤى يهودية بديلة Reframing Anti-Semitism: Alternative Jewish Perspectives» (٢٠٠٢). فى الوقت نفسه، يصر أعضاء المنظمة على المجاهرة بمعارضتهم للاحتلال باعتبارهم يهودا وليس فقط كمواطنين أمريكيين أو مدافعين عن حقوق الإنسان، بالتحديد لأنهم (وفقا لما جاء بموقع الإنترنت) «كيهود، نستطيع معرفة الفرق بين العداء الحقيقى للسامية وبين التلاعب المشين بتلك المسألة لحماية إسرائيل من النقد المشروع». وبالمثل، فإن هجوم المؤسسات على منظمة «كويكر Quaker» المبجلة للسلام «لجنة خدمات الأصدقاء الأمريكيين» يعتمد على التعريف لا يمكن الدفاع عنها لـ «العداء لإسرائيل» الذى لا يحتمل أى تلاعب بالألفاظ فيما يتعلق بسياسات الدولة اليهودية. ونظرا لأن اثنين من كبار العاملين ببرنامج اللجنة للشرق الأوسط فى سان فرانسيسكو، بما فيهم الحاخام «لين جوتليب Lynn Gottlieb» هما من اليهود، فإن مزاعم العداء للسامية ستستند إلى الفكرة الحمقاء بأن هؤلاء اليهود هم «كارهون للذات».



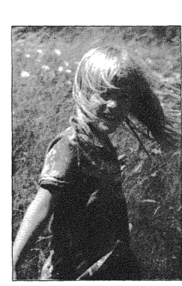
هل سقطت «سيندى كورى» فى قبضة «الانحياز السلبى لإسرائيل» ومؤيديها فى الولايات المتحدة؟ كلا، إذا احتكمنا لفيديو «يوتيوب YouTube» عن مناقشتها بعد الفيلم مع «شتاين» والجمهور. وردا على سؤال «شتاين» لها إن كانت أدركت مغزى الاحتجاجات الحماسية ضد وجودها، أجابت بأنها اعتبرتها جزءا من «حوار صحى جدا» داخل المجتمع اليهودى. كما علقت أيضا بأن أعضاء فى «لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية إيباك American Israel Public Affairs Committee AIPAC» - الذين تختلف معهم سياسيا - «يعتقدون أنهم يبلون بلاء حسنا». كان سلوك «سيندى كورى» متسقا مع كلمات الحاخام «بريان والت Brian Walt» المدير التنفيذى لمنظمة «حاخامات من أجل حقوق الإنسان - أمريكا الشمالية Rabbis for Human Rights North America": «لو كنت مكان عائلة «كورى»، فأتصور أن الإغراء بكراهية أولئك الذين قتلوا ابنتى سيكون من العسير مقاومته. ورغم الموت المأسوى لابنتهم، فإن أفراد عائلة «كورى» لم يتحدثوا أبدا بكراهية عن إسرائيل أو اليهود. على العكس من ذلك، فإنهم ملتزمون تماما بالسلام وبأمن كل الناس فى هذا الصراع من إسرائيليين وفلسطينيين». فى الحقيقة أن الحاضرين فى مسرح كاسترو فى الخامس والعشرين من يوليو - وعددهم ألف ومائتان (معظمهم من اليهود) - كانوا على ما يبدو متفهمين لكلمات «كورى» عموما.

مع ذلك، من الواضح أن منظمى مهرجان الفيلم شعروا بالضغوط التى مارسها مسئولو المنظمات اليهودية. فقبل خمسة أيام من بداية المهرجان، استقالت «شانا بين Shana Penn» رئيس مجلس الإدارة وكان لا يزال هناك خمسة أشهر باقية فى مدة عملها البالغة عامين، ونوهت قائلة «خلافات صحية حول كيفية معالجة قضايا حساسة». (سوف تبقى عضوا لمجلس الإدارة). فى النهاية، سمح المنظمون لـ «مايكل هاريس Michael Harris» من منظمة «صوت إسرائيل بسان فرانسيسكو Voice for Israel in San Francisco» (أحد فروع جمعية «قفوا معنا Stand With Us») للتحدث بإيجاز قبل أن يعرض على الشاشة ما سماه بـ «السيرة المبجلة لـ «راشيل كورى». وتوجد ملاحظات أيضا على موقع «يوتيوب». وبينما كانت «سيندى كورى» مسالمة، كان «هاريس» مشاغبا، حيث ذكر أن «راشيل» «ألقت بنفسها عمدا فى طريق المخاطر» وعدد أسماء ضحايا التفجيرات الانتحارية الذين لم يفعلوا شيئا «أكثر خطورة من ركوب حافلة أو الذهاب لشراء شريحة بيتزا أو فنجان قهوة»، بل أنه أكد (للأصوات المستهجنة) أن تلك الوفيات تفسر لماذا كانت الجرافة التى قتلت «راشيل» تعمل فى غزة.



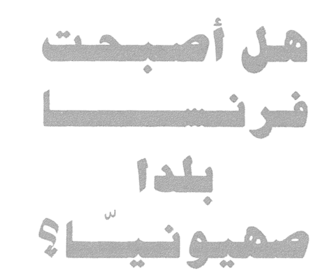
إن الشهود الدوليين الذين يكشفون عما رأوا ومروا به يمكن أن يزيدوا من الوعى العالمى والتغطية الإعلامية للعنف الإسرائيلى





من الصعب تخيل أنه يمكن دعوة «الصوت اليهودى للسلام Jewish Voice for Peace» أو «سيمون بيتون» لمواجهة حضور متحدث من منظمة «صوت إسرائيل» بسان فرانسيسكو أو «إيباك» أو القنصلية الإسرائيلية. فهل كانت المنظمات اليهودية بمنطقة «باى» منزعجة فعلا بسبب عدم التوازن. من المؤكد أن كبار الشخصيات فى جريدة «J» ومؤسستى «كوريت» و«طوبى» يعلمون أن هناك حوارا حادا يدور بين الإسرائيليين بشأن الاحتلال وهدم المنازل وأخلاقيات ممارسات الجيش، فهل كانوا فعلا قلقين بشأن حماية أمن إسرائيل؟ إن النظرية الأكثر إقناعا هى أن صراخهم يتعلق بالنفوذ. إن المؤسسات الرسمية للمجتمع اليهودى تم بناؤها على قاعدة من النقود (كثير من النقود)، وتستمد قوتها من الركيزتين الأساسيتين للهوية اليهودية الأمريكية. إحياء ذكرى المحرقة والدعم غير المحدود لإسرائيل. وغياب إحدى تلك الركيزتين يعد كارثة مؤسسية.

ورغم أن الغضب بشأن فيلم «راشيل» فى المجتمع اليهودى بسان فرانسيسكو مجرد زوبعة فى فنجان شاى مقارنة بالكوارث اليومية التى يعانيها الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أنها حققت مغزى ما. فهى تكشف بأكبر قدر ممكن من الدقة أن المجتمع اليهودى الأمريكى منقسم بشدة حول القضية الإسرائيلية-الفلسطينية. وتشير استطلاعات الرأى العامة أن مؤسستى «كوريت» و«طوبى» تمثلان موقف الأقلية فى المجتمع، بالتأكيد بين يهود منطقة «باى». ويزداد باطراد عدد اليهود الأمريكيين الذين يجذبهم الالتزام الأخلاقى الذى يبعث الحياة فى فيلم «راشيل»، ولم تؤثر فيهم أساليب جماعات الضغط التى تنفق كثير جدا من المال لمنع الحوار حول إسرائيل وسياسات الاحتلال الخاصة بها. وهذا هو السبب فى أن جماعات الضغط بدأت فى الإخفاق. ■



هل أصبحت فرنسا بلدا صهيونيا؟

لم يجد الكاتب الفرنسى بول ايريك بلانرو ناشرا «فرنسيا» يرضى أن ينشر كتابه الأخير عن «ساركوزى واسرائيل واليهود» فاضطر فى نهاية المطاف الى أن يلجأ لدار نشر بلجيكية لتنشر الكتاب وهو ما أحدث جدلا واسعا فى فرنسا حول اللوبى اليهودى وحرية التعبير فى بلد كان يرمز أساسا لحرية الفكر والتعبير. الكتاب الذى بات معروفا بالكتاب الممنوع يناقش فيه كاتبه مدى تغلغل التأثير الصهيونى الاسرائيلى فى دهاليز صناعة القرار الفرنسى.

المفكر الفرنسى اليسارى المعروف آلن جريش علق على الكتاب فى مدونته التى أصبح يعتمدها منبرا رئيسا لأفكاره وآرائه، فكان أن طلبت منه «وجهات نظر» أن يكتب لها مقالا يبسط فيه رأيه. وهو من أكثر المثقفين الفرنسيين انشغالا بشأن الصراع العربى الإسرائيلى. فكان هذا المقال، الذى ننشره بجوار مقال كنا قد طلبنا من بلانرو (مؤلف الكتاب) أن يكتبه لنا حول كتابه والجدل حوله.

المحــــرر





ألان جـــــريـــــش
Alain Gresh

«إن الفكرة التى تذهب إلى أن المحرقة ما هى إلا صناعة من اختلاق الصهاينة فكرة تروج هنا و هناك بصورة غير مقبولة. فكيف نتوقع من العالم أجمع أن يشعر بآلامنا نحن كعرب إن كنا نحن غير قادرين على أن نشعر بآلام الآخرين، حتى وإن كان الأمر يتعلق بمضطهدينا.(..) لكن القول بأخذ المحرقة بعين الاعتبار لا يعنى أبدا أنه يتحتم علينا القبول بفكرة استخدام المحرقة كذريعة لسامحة الصهيونية فيما تقترفه من شرور فى حق الفلسطينيين».

ادوارد سعيد

■ يعد كتاب «ساركوزى وإسرائيل واليهود»، الذى صدر مؤخرا عن دار نشر «أوزى دير» «البلجيكية (Oser Dire)»، للمؤلف بول إيريك بلانرو، كتابا مثيرا للاهتمام على عدة أصعدة. فهو يمس فى ذات الوقت مسألة حرية التعبير فى أوروبا، ودور الطوائف واللوبيهات فى فرنسا، وسياسة باريس الخارجية. ولنتناول - أولا- مسألة حرية التعبير. فهذا الكتاب، الصادر فى بلجيكا، لم يجد ناشرا فى فرنسا، كما رفض الموزعون الرئيسيون هناك توزيعه. بيد أن هذا الكتاب، بغض النظر عن الرأى السائد حوله، ليس فيه ما يشى بمعاداة السامية. بل إن ذلك الرفض من شأنه - من فرط حمقه - أن يضفى مصداقية على الفكرة القائلة بتعذر توجيه النقد لإسرائيل فى فرنسا، وهو ما يجافى الحقيقة تماما. فالعديد من الكتب التى تنتقد السياسة الإسرائيلية بقسوة، لا سيما تلك المتعلقة بطرد الفلسطينيين مابين عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩، قد صدرت فى فرنسا سواء عن دور النشر الكبرى أو الأقل أهمية، بدءا بكتاب ايلان بابيه «التطهير العرقى فى فلسطين» (الصادر عن دار نشر فايار Fayard التابعة لمجموعة أشيت Hachette)، وحتى كتاب دومينيك فيدال «كيف طردت إسرائيل الفلسطينيين». فهذه الكتب، شأن الكثير غيرها، لا سيما تلك التى أنجزها باحثون متخصصون، تسلط الضوء على السياسة الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة.

أما المسألة الأكثر حساسية فى فرنسا، فهى مسألة جماعات الضغط أو اللوبيهات. فلقد تنامى لدى فئة من الناشرين والصحفيين خوف من تناول بعض الموضوعات بعينها، خوف يتجلى ما إن يتبادر الحديث إلى «الدور الذى يلعبه اليهود»، خاصة أن عوامل الجهل، وانعدام الثقافة، وسوء النية، والتحيز، تتمازج كلها بهدف الخلط بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية. فثمة اتجاه لإخفاء مجمل التاريخ المعقد الذى تنسجه العلاقات بين الصهيونية، واليهودية، واللاسامية، ولإخفاء ذلك الرفض الذى أظهرته طوال عقود طويلة غالبية يهود ألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا أو البلدان العربية إزاء المشروع الصهيونى. وفى المقابل، ثمة إصرار على النظر إلى كل انتقاد موجه لإسرائيل على أنه شكل من أشكال اللاسامية المستترة. ولقد أدت الدعاوى المقامة ضد الصحفى دانييل ميرمى وضد المفكر - اليهودى- الكبير ادجار موران، والحملات الإعلامية العدائية التى استهدفت رسام الكاريكاتير سينيه، أدت إلى خلق مناخ فاسد، وإلى تكريس شكل من أشكال المحرمات المحظورة.

و هو ما لا يعنى بالضرورة أن كل أولئك الذين يكافحون هذا المحظور هم دائما أناس محترمون. ففى فرنسا قد يلجأ جان مارى لو بن زعيم اليمين المتطرف أحيانا لأن يبدو كمدافع عن العرب أو كمنتقد لإسرائيل، لكن ذلك لا يخفى حقيقة كونه رجلا خطرا. وكذلك عندما استضاف الممثل الهزلى «ديودونيه» فى عرضه المسرحى السيد «روبير فوريسون»، أحد المروجين فى فرنسا لإنكار المحرقة ولرفض حقيقة إبادة اليهود، لم يرتكب ديودونيه خطأ فحسب، وإنما هو أيضا قد أضر بصالح القضية الفلسطينية. فكما كتب المفكر الأمريكى الفلسطينى الكبير ادوارد سعيد: «إن الفكرة التى تذهب إلى أن المحرقة ما هى إلا صناعة من اختلاق الصهاينة فكرة تروج هنا وهناك بصورة غير مقبولة. فكيف نتوقع من العالم أجمع أن يشعر بآلامنا

Sarkozy Israel et Les Juifs
Paul-Éric BLANRUE
Oser Dire (Marco Pietteur Eds)
208pp, 15.20 Euro

ترجمة: داليا سعودى

يخطئ الكاتب حين ينسب إلى ساركوزى المنعطف الذى شهدته السياسة الخارجية الفرنسية، خاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط



نحن كعرب إن كنا نحن غير قادرين على أن نشعر بآلام الآخرين، حتى وإن كان الأمر يتعلق بمضطهدينا (...) لكن القول بأخذ المحرقة بعين الاعتبار لا يعنى أبدا أنه يتحتم علينا القبول بفكرة استخدام المحرقة كذريعة لمسامحة الصهيونية فيما تقترفه من شرور فى حق الفلسطينيين.»

ومن جهة أخرى، حينما يثار الحديث حول دور وسائل الإعلام الفرنسية فى تناول النزاع الإسرائيلى الفلسطينى، لا يمكن الاسترسال فى تحليلات مبتسرة ومقطوعة عن سياقها التاريخى والسياسى. فأثناء حرب يونيو ١٩٦٧، كانت الصحافة الفرنسية منحازة لإسرائيل بصورة هائلة (على عكس الموقف الذى اتخذه الجنرال ديجول والشيوعيون). وبغير الحاجة إلى استرجاع كافة مراحل التطور الذى نشأ فيما بعد، يمكن القول بأن وسائل الإعلام قد شهدت تطورا مشهودا فى العقود اللاحقة: هكذا، أثناء الانتفاضة الأولى (١٩٨٦-١٩٩٣)، وكذا مع بداية الانتفاضة الثانية، كانت وجهة النظر الفلسطينية تحظى بعرض موسع بل وبإصغاء جيد. ولو اعتقدنا حقا أن وسائل الإعلام مرتهنة بأيدى «اللوبى اليهودى»، فلن يسعنا أن نستوعب ولا أن نفسر أوجه التطور تلك.

ولكن، منذ بضع سنين، ثمة انزلاق للإعلام نحو كفة إسرائيل، وذلك لسببين رئيسيين:

- تنامى الموقف المؤيد لإسرائيل من جانب الحكومة الفرنسية (و يمكن رصد هذا التطور منذ عام ٢٠٠٥، منذ حكم جاك شيراك، وهو ما ازداد قوة مع نيكولا ساركوزى)؛

- تغير مفاتيح قراءة النزاع، والاتجاه المتزايد إلى النظر إليه عبر عدسة «الحرب على الإرهاب»، والصراع بين الغرب والإسلام. وهكذا لم يعد النزاع الإسرائيلى الفلسطينى نزاعا قائما بين محتل وشعب تحت الاحتلال.

هذا وتتجلى القضية التى يطرحها بلانرو منذ الصفحات الأولى لكتابه، إذ يكتب: «لقد صارت إسرائيل خارج نطاق النقاش الديمقراطى (فى فرنسا)». وهو يتساءل: «هل أصبحت فرنسا بلدا صهيونيا؟» ولكنه لا يفسر بالضبط ما يعنيه ذلك التعبير العجيب «بلد صهيونى»:

- هل معناه هو تقبل شرعية دولة إسرائيل؟ ولكن، على حد علمى، لم تقم أية حكومة فرنسية منذ ١٩٤٨، بما فى ذلك حكومة الجنرال ديجول، بالتشكيك فى هذه الشرعية. و هو ما ينطبق على كل الأحزاب الفرنسية الكبرى (باستثناء بعض اللحظات الخاطفة فى تاريخ الحزب الشيوعى)، فكل الأحزاب لم تعارض الصهيونية كتيار يحض على العودة إلى أرض الميعاد. فما الذى استجد اليوم؟

- أم أنه يعنى رفض توجيه أى انتقاد لسياسة الحكومة الإسرائيلية الحالية (أو لحكومات إسرائيل على تعاقبها)؟

هنا يفتقر رأى الكاتب إلى تمام الوضوح.

وقد أصاب بلانرو إذ أعرض عن استخدام تعبير «اللوبى اليهودى» فى معرض الحديث عن فرنسا، مفضلا استخدام تعبير «الشبكات المؤيدة لإسرائيل»، فمثلما يشرح بإسهاب فى الفصل الأول، لا توجد فى فرنسا آلية مماثلة لتلك التى تقوم عليها اللوبيهات فى الولايات المتحدة. فالطائفة اليهودية (و هو مصطلح لا ينأى عن إثارة الجدل حول صحته) طائفة منقسمة على نفسها، موزعة ومتفرقة، رغم المحاولات التى يبذلها البعض (وبالأخص فى المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، CRIF) من أجل تنظيم الطائفة وتحويلها إلى آلة دعم لدولة إسرائيل. ويؤكد الكاتب أنه يرى أن مصطلح «الشبكات المؤيدة لإسرائيل» «من شأنه أن يعكس بصورة أفضل تلك الحقيقة على تشعبها وتعقدها»، الحقيقة كما سيصفها لنا فى كتابه.

سنجد فى هذا الكتاب عناصر جديرة بالاهتمام حول تأييد نيكولا ساركوزى للتقسيم الطائفى أو الفئوى للمجتمع (سواء بالنسبة لليهود أو المسلمين)، وحول تعاطفه مع إسرائيل، وميله إلى إيجاد تماهٍ كامل بين جميع اليهود ودولة إسرائيل. فهو الذى كتب عام ٢٠٠٤: «هل لى أن أذكركم بالتعلق القوى الذى يربط بين كل يهودى فى فرنسا وبين إسرائيل، بوصفها وطنه الثانى؟»

و هناك أيضا تفاصيل تتعلق بعلاقات ساركوزى بالولايات المتحدة. وبهذا الصدد، ثمة دلالة كبرى لما تم مؤخرا من تعيين مستشارة باريس البلدية فاليرى هوفنبرج فى منصب الممثلة الخاصة لفرنسا للشئون الاقتصادية والثقافية والتجارية والتعليمية والبيئية فى عملية السلام فى الشرق الأوسط. فهذه السيدة تشغل منصب مديرة فرع فرنسا التابع للجمعية الأمريكية اليهودية (AJC)، وهى إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية المعروفة بدعمها غير المشروط لإسرائيل. وتبذل تلك المنظمة الأمريكية جهدا نشطا بهدف تحويل المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا (CRIF)، إلى لوبى على غرار النموذج الأمريكى.

لكننى أعتقد أن المؤلف يولى أهمية أكبر من اللازم للبعد الإسرائيلى فى سياسة نيكولا ساركوزى: فالرئيس الفرنسى قبل كل شىء ولاؤه أمريكى، وهذا هو العامل الذى يتحكم فى تحركاته على الساحة السياسية والدبلوماسية.

وفى المقابل، يخطئ الكاتب حين ينسب إلى ساركوزى المنعطف الذى شهدته السياسة الخارجية الفرنسية، خاصة فيما يتعلق بالشرق الوسط. فسياسة العداء لإيران ولبرنامجها النووى قد بدأت فى عهد جاك شيراك ولم تشهد أى تغير مع وصول ساركوزى إلى الرئاسة. كما أن التحول لصالح إسرائيل كان يمكن تلمسه منذ عام ٢٠٠٥، مع زيارة أرييل شارون لباريس. بالطبع قام ساركوزى بتقوية هذا التأييد، ولكن ليس بصورة مبالغ فيها. (اقرأ: «صوت فرنسا المشوش»، La voix brouillée de la France - لوموند ديبلوماتيك، عدد يونيو ٢٠٠٦).

هذا ويصعب الخلاص، أثناء قراءة هذا الكتاب، من شعور بعدم الراحة. فهو يبدو سطحيا فى بعض أجزائه، ويعتمد على كثير من المصادر المأخوذة عن الانترنت (و هو ما لا يمثل مرجعا يعتد به أو برهانا يفوق فى قيمته مقالا فى جريدة)، كما أن الكثير من تلك المصادر بعيد تمام البعد عن الدقة. وحتى وإن كان المؤلف ينأى بنفسه عن الترويج للشائعة التى تدعى أن ساركوزى قد تم تجنيده من قبل الموساد، فهل كان لزاما عليه أن يخصص صفحتين كاملتين لتلك الشائعة؟ أو أن يتناول قضية التسريح الذى تم فى صفوف شبكات الاستخبارات الفرنسية بعد انتخاب ساركوزى، مكتفيا بالاستناد إلى مصدر وحيد؟ (وفقا لما جاء به الكتاب استهدف هذا التسريح الاشتراكيين من العملاء، ومؤيدى العرب، وكل من اكتشفوا طبيعة العلاقات التى تربط بين ساركوزى والمحافظين الأمريكيين الجدد وبعض المنظمات الصهيونية!) ثم من ذا الذى يعتقد أن تعيين برنار كوشنير وزيرا للخارجية يرجع بالأساس إلى نفوذ الشبكات الموالية لإسرائيل؟ فهنا أيضا تعد أهواء كوشنير الجانحة عبر الأطلسى، وتقاربه مع الولايات المتحدة، العامل الذى لعب الدور الأساسى فى اختياره.

غير أن الكتاب يحفل بالمقولات وبالتصريحات المثيرة للاهتمام، وهو بحق كتاب محرج للسياسة التى ينتهجها المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، CRIF، ولرئيسه الحالى ريشار براسكييه، الذى اجتهد فى المطابقة بين مفهوم «الطائفة اليهودية» و بين جميع ممارسات الحكومة الإسرائيلية، ثم راح يتعجب من اختلاط المفاهيم فى أذهان البعض حتى صارت كلمة اليهود= إسرائيل.

فعندما صرح ريشار براسكييه بأن ٩٥٪ من يهود فرنسا يساندون الجيش الإسرائيلى فى هجومه على غزة، إنما كان يقوم باستيراد النزاع داخل فرنسا وبتحويله إلى نزاع طائفى. ولقد أصاب جان فرانسوا كان، مدير تحرير أسبوعية «ماريان» السابق، إذ ندد بتصريح براسكييه ووصفه بمعاداة السامية.

و لقد كان لى أن أرصد الانحرافات نفسها فى جنوب أفريقيا، إذ كتبتُ فى مقال سابق:

«أما عن إدارة المنظمات اليهودية (بجنوب إفريقيا)، فلقد أعلنت، فى بيان لها، «تأييدها القوى لقرار الحكومة الإسرائيلية بشن عملية عسكرية ضد حماس فى غزة». ثم ما لبثت الإدارة نفسها أن أبدت استغرابها، بعد بضعة أيام، من أن ما قامت به من خلط بين اليهود وإسرائيل فى نفس الكفة قد أدى إلى انطلاق نداءات معادية للسامية عبر الانترنت- وهى النداءات التى أدانتها بشدة الحكومة وحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى وعدد من المفكرين المسلمين والمنظمات المؤيدة للشعب الفلسطينى.» (مقال «نظرات جنوب افريقية على فلسطين»، Regards sud-africains sur la Palestine - لوموند ديبلوماتيك، أغسطس ٢٠٠٩).

وهكذا، يبقى هذا الالتباس الذى يخلط بين دلالات «اليهود» و«الصهاينة» و«إسرائيل» متقداً سواء ما بين اللاساميين الحقيقيين أو بين مؤيدى إسرائيل الدائمين. وينقل المؤلف ههنا عن جان بريكمون قوله: «ينبغى ألا ننسى أن السياسة الإسرائيلية إنما ترسم باسم دولة تقول إنها يهودية، وأن تلك السياسة تحظى بتأييد منظمات تقول إنها تمثل اليهود (سواء كان ذلك بالحق أو بالباطل). فكيف نطمح، فى مثل هذه الأجواء، إلى عدم تحول كثير من الناس إلى معاداة اليهود؟ إن فى ذلك إسرافا فى التعويل على قدرات النفس البشرية».

لكن ما من إسراف فى التعويل على قدرات المفكرين وأصحاب القرار السياسى، لكون معاداة السامية، شأن أية صورة من صور العنصرية، لا يمكن قبولها، ولكون الانزلاق فى مهاوى اللاسامية يعد الحليف الأمثل للحكومة الإسرائيلية التى تسعى لوضع علامة «يساوى» ما بين انتقاد السياسة الإسرائيلية، ورفض الصهيونية، ومعاداة السامية.

وفى معرض مناقشته لدور اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة، يصدر بلانرو حكما جائرا على نعوم تشومسكى، إذ يتهمه بأنه يجفل خائفا حينما يتعلق الأمر بتوجيه النقد لإسرائيل. وهنا لا يكتفى المؤلف بإظهار جهله بكتابات تشومسكى بهذا الشأن، وإنما هو أيضا يقف عن فهم مغزى الجدال الذى ينقسم حوله اليسار الراديكالى فى أمريكا. فالرأى الذى يذهب إليه تشومسكى، ومفكرون راديكاليون آخرون مثل جوزيف مسعد، يتلخص فى أن السياسة الأمريكية تلبى، أولا وقبل كل شىء، مصالح الولايات

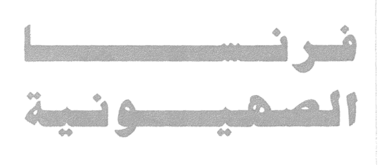
المتحدة (أو بالأحرى مصالح الطبقة الحاكمة هناك) وأنه من العبث الاعتقاد بأن اللوبى اليهودى بوسعه أن يفرض استراتيجيه مخالفة لتلك المصالح.(اقرأ: «جدال حول دور اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة» Débat sur le rôle du lobby juif aux Etats-Unis، على موقع مدونة Nouvelles d†‡‡†orient).

و فى الفصل الختامى من الكتاب، يسترجع بلانرو النقاش الصاخب الذى استتبعه نشر مجلة «تايم» الأمريكية، فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧، لملف حول «موت الثقافة الفرنسية»، و هو يبرز لذلك مقولة منسوبة لكريستوف بويكو- وهو محاضر فى الفن- يشرح فيها أن «الكثير من الفنانين الفرنسيين قد تخلقوا فنيا كرد فعل معارض لنظام التعليم السائد. فالرومانسيون والتأثيريون والحداثيون، جميعا، كانوا من الثائرين على القيم الأكاديمية التى راجت فى عصورهم.»

إن تلك الأصوات المعارضة المنشقة لم تختف اليوم، ولكنها غائبة عن وسائل الإعلام الكبرى، واستبدلت بها هذيان برنار هنرى ليفى، وألان فينكلكرو، وأندريه جلوكسمان... (المترجمة:ثلاثتهم من «مثقفى» الصف الأول المتعصبين لإسرائيل).

لكن المعارضة والانشقاق، على عكس ما يراه بلانرو، لا تكون أيضا بالاستجابة لنداء جمعية «الحرية من أجل التاريخ»، التى تقول إنها نشأت لمكافحة «مناخ الترهيب» الذى يسود فى فرنسا، وللتصدى للتشريعات الخاصة بأحداث الذاكرة الوطنية (المحرقة، الاستعباد، إبادة الأرمن). فهذه الجمعية تدافع فى رأيى عن مواقف غامضة وملتبسة، فهى مثلا تعترض على تنديد فرنسا بالاستعباد بوصفه «جريمة ضد الإنسانية». فليس مما يمنع المؤرخين عن عملهم أن نطالب السلطة السياسية بأن تتحمل مسئولياتها: ألم يئن لفرنسا أن تعترف بالجرائم التى ارتكبتها فى الجزائر؟ هنا أيضا يبدو المؤلف على غير علم بالجدل الدائر فى فرنسا، ذاك الجدل الذى يساعد على فهم أبعاده الكتاب المميز الذى نشرته مؤخرا المؤرخة الكبيرة المتخصصة فى شئون أفريقيا كاترين كوكرى فيدورفيتش، تحت عنوان «الرهانات السياسية للتاريخ الاستعمارى» (منشورات أجون، ٢٠٠٩).

و ختاماً، من المؤسف ألا يكون هناك دراسات أكثر تعمقا حول هذا الموضوع الهام، موضوع العلاقات بين إسرائيل وفرنسا والمكانة التى تحتلها التجمعات اليهودية الفرنسية، فالساحة تكاد تخلو من هذه الدراسات لاسيما فى الأعوام العشرة الأخيرة. ■



فرنسا الصهيونية

بول إيريك بلانرو
Paul-Éric BLANRUE

■■ حتى إجراء الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٧، كانت الشبكات المؤيدة لإسرائيل تواجه فى فرنسا مشكلة كبرى، ألا وهى أننا كنا نعيش حتى ذلك التاريخ تحت حكم «ديجولى». ففى عام ١٩٦٧، كان الجنرال ديجول قد أبدى عظيم استنكاره لنشوب حرب الأيام الستة وما استتبعته من احتلال إسرائيل لأراض عربية. وخلف من بعد ديجول رؤساء اقتفوا أثره كيفما اتفق.فقبل انتخاب ساركوزى، كانت المقاومة التى تبديها السلطة فى مواجهة مطالب الشبكات الصهيونية، حقيقة واقعة تستشعرها إسرائيل ومؤيدوها، حتى أن السياسة الفرنسية كانت وقتها مصنفة على أنها السياسة «الموالية للعرب» على سبيل التحقير والازدراء. هكذا نادى الصهاينة بالتصويت ضد فاليرى جيسكار ديستان عام ١٩٨١ . وفى عهد فرانسوا ميتران، كان رولان دوما وأوبير فيديرين من أشد المتحمسين لاتخاذ موقف متوازن فى الشرق الأوسط. أما جاك شيراك فكان يلقب بـ«شيراك العربى» من قبل منتقديه، ولنتذكر حادثة التدافع التى وقعت له أثناء زيارته للقدس عام ١٩٩٦، حينما هدد شيراك رجال الأمن الإسرائيلى المرافقين له بالرجوع إلى طائرته والعودة إلى فرنسا «إن لم يهدءوا» من حوله. كان لسياستنا من التأثير ما جعل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق أرييل شارون يرفض استقبال وزير الخارجية الفرنسى دومينيك دو فيلبان عام ٢٠٠٣، عندما أعرب هذا الأخير عن اعتزامه زيارة ياسر عرفات فى رام الله. غير أنه منذ انتخاب نيكولا ساركوزى، تهاوت تلك المقاومة أمام شبكات مؤيدى إسرائيل، الذين آلت إليهم مقاليد الأمور جميعها.

فكيف وصلنا إلى هنا؟ وصلنا ههنا لأن ساركوزى قد ارتهن لخدمة تلك الشبكات وقام باستخدامها فى المقابل لتحقيق مطامحه السياسية.فبصورة ديماجوجية، استعاد ساركوزى ذات الموضوعات التى عُرف بها رئيس الجبهة الوطنية جان مارى لو بن، حتى وصل إلى سدة الحكم عام ٢٠٠٧.كما أنه قد اكتسب مناعة كاملة بتحالفه مع اللوبى الداعم لإسرائيل فى أمريكا وبمن ينوبون عنه فى فرنسا، أولئك الذين كان لهم الفضل فى حمايته من أى هجوم إعلامى موسع.



هذا ويعود تاريخ ذلك التحالف إلى بضعة أعوام خالية. فمع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام ٢٠٠٠، أدرك ساركوزى مبلغ القوة التى اكتسبها اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة، وسعى لأن يتسلح بها، بأن استجلب إلى فرنسا كثيرا من الممارسات السارية عبر الأطلسى، حيث يتحتم على كل مرشح للرئاسة الانصياع لاملاءات لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (AIPAC). وفى أغسطس من عام ٢٠٠٤، نشرت أسبوعية Forward اليهودية الأمريكية مقالا يقيس حجم النفوذ المتزايد للولبى الصهيونى على الأراضى الفرنسية، ومن بين الأسماء المذكورة آنذاك كان اسم نيكولا ساركوزى يحتل مكانة بارزة.

و فى ديسمبر من العام نفسه، عندما حل ساركوزى ضيفا على إسرائيل، كان يستهدف الرئيس شيراك بحرابه عندما صرح لمضيفيه قائلا: «أعلم أنكم تشعرون بأنه، فى فرنسا، ثمة من يركن إلى اللامبالاة بآلامكم، أو أنكم على أقل تقدير لا تشعرون بأننا متعاطفون معكم». ولقد علقت صحيفة «ليبراسيون» على تلك العبارة بقولها: «إن الرسالة التى يوجهها نيكولا ساركوزى رسالة بسيطة مفادها أنه لو تم له الوصول إلى الاليزيه، فسيكون ذلك بمثابة نهاية عهد العقيدة الديجولية القائمة على ما يسمى بـ«سياسة فرنسا العربية»».

و فى عام ٢٠٠٦، فى واشنطن، فى معرض خطاب عمومى آخر، عاود ساركوزى الهجوم على السياسة الخارجية التى ينتهجها شيراك. ولقد أكد يسرائيل سنجر، العضو فى مؤتمر اليهود العالمى، أن «ما جاء على لسان نيكولا ساركوزى من تصريحات أمام الرئيس جورج دبليو بوش، بشأن مكافحة اللاسامية، ومحاربة الإسلام الأصولى، وضرورة اتخاذ المواقف الداعمة لإسرائيل، ومكافحة الإرهاب الفلسطينى والتصدى لحزب الله ولإيران، كانت فى مجملها تصريحات خليق بها زعيم منظمة يهودية» (و الأصح لو أنه قال: «زعيم منظمة صهيونية») .

و فى سعيه لبلوغ الحكم، راهن ساركوزى أيضا على فكرة «الخوف من الضواحى»، التى تقطنها أعداد غفيرة من المهاجرين من ذوى الأصول المغاربية. وإذ هو آنذاك وزير للداخلية، لم يتردد فى دعوة رجال من الشرطة الإسرائيلية لكى يشرحوا لزملائهم الفرنسيين كيفية إخماد القلاقل الناشبة فى الضواحى، وكأنهم بصدد «أراض محتلة» جديدة. وطوال حملته الانتخابية، استخدم ساركوزى المفردات والأيديولوجية الخاصة بمؤيدى الصهيونية، ممن يخلطون خلطا تاما بين أن تكون «مؤيدا لإسرائيل» وأن تكون «يهوديا»، وهو ما يتيح لتلك الفئة تجنب أى نقاش جوهرى. كانت تلك وسيلة لاجتذاب الناخبين اليهود أثناء الانتخابات، وهم فى فرنسا يمثلون ثالث أكبر تجمع يهودى على مستوى العالم. ويذكر ما قاله وقتها كريستيان استروزى، العضو فى حزب الاتحاد من أجل حركة شعبية(UMP)من أن ساركوزى هو «المرشح الطبيعى لليهود» (و الأصح لو أنه قال «المرشح الطبيعى للصهاينة»).

و بتولى ساركوزى الرئاسة، لقى المنعطف الحاد الذى سيقت إليه فرنسا ترحيبا عظيما من أبرز ممثلى اللوبى الموالى لإسرائيل ومن إسرائيل ذاتها. وهو ما عبر عنه ايهود أولمرت بقوله : «إن وصول «صديق بيِن الصداقة» إلى الحكم فى فرنسا ليعد فى إسرائيل بمثابة «نعمة» من النعم».

وفى نوفمبر من عام ٢٠٠٧، ما كاد ساركوزى

قبل ساركوزى، كان لسياستنا من التأثير ما جعل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق أرييل شارون يرفض استقبال وزير الخارجية الفرنسى دومينيك دو فيلبان عام ٢٠٠٣



يتولى الحكم حتى طار إلى الولايات المتحدة، مصطحبا معه رئيس المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، (CRIF)، ووزير خارجيته برنار كوشنير، لتستقبله الجمعية الأمريكية اليهودية (AJC)، وهى إحدى أهم مجموعات الضغط الصهيونية الأمريكية، وتسلمه جائزة «النور بين الأمم»، وهى إحدى أرفع المكافآت التى لا ينالها سوى الخلصاء من الشركاء. وعلى جسم الجائزة كُتبت تلك العبارة: «تقديرا لسعيكم الدءوب لخدمة القيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والسلام، وعرفانا لصداقتكم ووفائكم للولايات المتحدة، وإسرائيل والشعب اليهودى».وبهذه المناسبة، قام رتشارد سايدمان، رئيس الجمعية، بتحية الرئيس ساركوزى على ما أوتى من«نشاط لا يضاهى ومبادئ نادرة»، مشيرا إلى «التحديات المشتركة والتهديدات المتربصة بـ«الديمقراطيات الثلاث الشقيقة»: الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل.

وفى عام ٢٠٠٨، كانت المرة الأولى فى تاريخ الجمهورية الفرنسية الخامسة التى يوافق فيها رئيس للجمهورية على أن يكون الرئيس الشرفى لحفل العشاء السنوى الذى يقيمه المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا (CRIF)، وهى المناسبة التى باتت تعد منذ بضعة أعوام بمثابة فريضة واجبة على السياسة الفرنسية. وفى ذلك رسالة واضحة المغزى.

ومع مرور الوقت، لم يفعل ساركوزى سوى كل ما من شأنه أن يوافق الآمال التى عقدها عليه مؤيدو إسرائيل. كما يمكن فهم الطريقة التى تألفت بها الحكومة الفرنسية بمساعدة مفتاح قراءة أساسى: فمن شاء أن يكون جزءا منها عليه أن يعتنق نفس آراء الرئيس فيما يتعلق بإسرائيل. فعلى سبيل المثال، ما كان انتزاع برنار كوشنير من الحزب الاشتراكى لضمه إلى الحكومة إلا لأنه بدا «أكثر توافقا مع إسرائيل» من أوبير فيدرين. كما يسرى ذات التفسير على ما تم مؤخرا من تعيين فاليرى هوفنبرج فى منصب الممثلة الخاصة لفرنسا، للشئون الاقتصادية والثقافية والتجارية والتعليمية والبيئية فى عملية السلام فى الشرق الأوسط»، بينما هى فى الوقت نفسه تشغل منصب مديرة فرع فرنسا التابع للجمعية الأمريكية اليهودية(AJC). وكان لهوفنبرج أن تصرح اثر ذلك قائلة: «لقد تبدى لساركوزى أن السياسة المختلة المؤيدة للعرب التى







انتهجها أسلافه من الرؤساء ووزراء الخارجية قد أدت بفرنسا إلى فقدان كامل تأثيرها فى تلك المنطقة»- وهو رأى كاذب وإن كان كاشفا.

أما ايميريك شوبارد، أستاذ العلوم السياسية بكلية العلوم العسكرية والدفاعية، الذى كان من بين ضحايا محاكم التفتيش الساركوزية، فقد صرح بأن «فرنسا تعيش حاليا حملة من التطهير الناعمة والصامتة، الموجهة ضد كل من تتعارض أفكارهم مع مصالح إسرائيل والولايات المتحدة. وقد يبدو ذلك عصيا على التصديق، لكنها مع ذلك الحقيقة. فسواء كان الأمر يتعلق بأشخاص من اليسار أو من اليمين المحافظ، كل من «يسقطون» يجمعهم قاسم مشترك أوحد، ألا وهو تعارض تحليلاتهم مع المصالح الأمريكية والإسرائيلية».



كما تشى إقامة «الاتحاد من أجل المتوسط» برغبة ساركوزى فى إدخال إسرائيل- التى يراها بمثابة بلد ديمقراطى «شأنه شأن غيره» - فى الاتحاد الأوروبى، وهنا عملية مغيبة عن إدراك الفرنسيين.

ولكن، إلى الآن، بلغ التعاون الفرنسى الإسرائيلى ذروته فى يناير ٢٠٠٩، عندما تم إرسال الفرقاطة الفرنسية «جرمينال» إلى سواحل غزة لكسر المقاومة الفلسطينية، التى كانت فى تلك الأثناء تتعرض للحرق بقنابل الفسفور، ويذبَح أطفالها الأبرياء بالمئات. تلك كانت الصورة المثلى، والأشد قسوة ورعبا، لذلك التحول الذى طرأ على السياسة الخارجية الفرنسية منذ يونيو ٢٠٠٧.

وأخيرا يلاحظ أن الموقف الفرنسى إزاء إيران قد ازداد تصلبا. فعندما صرح برنار كوشنير فى سبتمبر ٢٠٠٧ بأنه «ينبغى التهيؤ للأسوأ» فى مواجهة إيران، وبأن «الأسوأ ما هو إلا الحرب»، إنما كان يبرهن على أن منعطفا خطرا قد تم اتخاذه، استنادا إلى مبادئ ساركوزى، الذى كان قد صرح، أثناء زيارته للولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٦، فيما يتعلق بإيران، بأن «كافة الخيارات مطروحة». وعلى النقيض، صرح رئيس الوزراء السابق دومينيك دو فيلبان، معلقا على تلك العبارة المثقلة بوخيم العواقب، فقال: «لا مجال اليوم للتهيؤ للحرب، فالأجدر هو النضال من أجل السلام. لأن الحرب ليست خيارا مطروحا ضمن خيارات أخرى. الحرب ملتجأ أخير إذا ما انسدت جميع الطرق. ولقد رأينا ما أحدثه ذلك فى العراق من مظالم وآلام ومآس كبرى». هكذا نلحظ مابين الرجلين (وما بين السياستين)بونا شاسعا: فأحدهما يستلهم أفكاره من المبادئ الديجولية، أما الآخر فيركن إلى الأيديولوجية الصهيونية، سعيا وراء إعلاء الدفاع عن إسرائيل فوق كل اعتبار.

وعليه، ما كان افتتاح ساركوزى للقاعدة العسكرية فى أبى ظبى فى مايو ٢٠٠٩ محض مصادفة عابرة. فهذه هى القاعدة العسكرية الفرنسية الأولى فى الخليج. ولقد صرح الرئيس قائلا: «إن فرنسا تظهر بذلك استعدادها الكامل لتحمل كافة تبعاتها لضمان استقرار تلك المنطقة المتحكمة بصورة أساسية فى توازن العالم». و المعروف أيضا أن الإمارات العربية المتحدة تقع جغرافيا فى مواجهة إيران. ولا حاجة بنا ههنا للتذكير بمسلك نيكولا ساركوزى أثناء الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة. هكذا، على الرغم من تحفظات نادرة أبداها ساركوزى فى مناسبات متفرقة، فقد انحاز تماما للرؤية الإسرائيلية للمشهد السياسى العالمى.

هكذا، صار لدينا اليوم فى فرنسا رئيس يفاخر بأنه «ينحاز انحيازا غير مشروط إلى أمن إسرائيل». و على حد ما وصفته به أسبوعية «ماريان»، صار ساركوزى «بوش فى طبعته الفرنسية»، حتى وإن لم يكن يباريه فى عدد الحروب التى أشعلها. ولكن، أى نفع يعود على فرنسا من وراء تلك السياسة؟ أين ذهب استقلالنا الوطنى وسيادتنا على أرضنا؟ إن سياسة ساركوزى ما هى إلا شرخ فى تاريخ فرنسا المعاصرة، وهى تسوق البلاد إلى طريق مسدود، إذ تربط مصيرها بالسياسة اللاعقلانية التى تتبعها الدولة العبرية، التى تحتاج إلى الحروب للحفاظ على تماسكها الداخلى، والتى تجتهد فى مقاومة تفسخها بالتشبث بأوهام القوة.

إن ساركوزى إذ يربط مصيرنا بمصير إسرائيل إنما يخضعنا لمصالح مغايرة لمصالح فرنسا؛ وهو فى ذات الوقت يضحى بالأخلاق وبالعدالة وبالقانون الدولى وبالتوازن العالمى فى مقابل «الدفاع غير المشروط عن أمن» خرافة آيلة للزوال. إن السياسة الخارجية التى ينتهجها ساركوزى توشك أن تزج بفرنسا إلى خضم نزاعات خطيرة. فلقد صارت النظرية الجديدة التى تتبعها فرنسا اليوم هى نظرية «صراع الحضارات»، مع إضافة بسيطة، لم يذكرها هنتجتون، وإن بات ممكنا تلمّس آثارها، التى تستلهم ما جاء به مؤسس الصهيونية، تيودور هرتزل، من أن إسرائيل هى «طليعة الحضارة فى التصدى لجحافل الهمجية».

وإزاء هذا الوضع، أطالب بنقاش وطنى موسع، يتناول سياسة بلادى الخارجية. لأجل ذلك ألفت كتاب «ساركوزى وإسرائيل واليهود»، الذى قوبل بـ«الصمت الفصيح» على حد تعبير المحامى الخاص بى، جون باستاردى دومون.

يضم هذا المؤلف نحو ستمائة حاشية وشرح هامشى لمتن يبلغ مائتين

وسبع من الصفحات. وهو أمر استثنائى الوجود فى المشهد الأدبى الفرنسى. وفى كل مرحلة من مراحل بحثى، حرصت على تدعيم جميع أطروحاتى واستنتاجاتى بالأدلة والبراهين الدامغة، كما أننى قد حرصت- عامدا- على أن أشير فى مراجعى إلى مقالات نشرتها الصحف الفرنسية والعالمية الكبرى، بما فى ذلك الصحف الموالية لإسرائيل. ولكن سرعان ما تبين لى برود الناشرين الفرنسيين وإعراضهم التام عن كتابى. فمثلا فرانك سبنجلر، من دار نشر بلانش، التى كان قد صدر لى عنها كتب من قبل، كتب لى بعد أن أتم قراءة المخطوط خطابا جاء فيه: «لا يمكن نشر هذا الكتاب للأسف، لأنه فضلا عن المخاطر التى تكمن وراء النشر، فلن نحظى بسطر واحد فى الصحافة ولا فى الإعلام المرئى أو المسموع، وذلك بالطبع لأن أولئك الذين لا نستطيع التفوه بأسمائهم وعملائهم يضعون الإعلام فى قبضتهم. وبالطبع لن تكفى بعض التحركات على الانترنت لحمل الناس على شراء الكتاب من المكتبات. هذا الكتاب ليس ممنوعا، ولكن يبدو أنه قد كتب عليه أن يدخل فى طى الكتمان...» وقد كان محقا، ولكن بقدر ضئيل، فها نحن قد أصدرنا الطبعة الثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى، بفضل الجهد الهائل الذى بذلته مجموعة من مستخدمى الانترنت الذين تطوعوا بمساندتى بلا كلل أو ملل، وكذا بفضل مثابرة الأستاذ باستاردى دومون وشجاعة ناشرى الهمام ماركو بييتور.

لقد جاء رد سبنجلر ليكشف النقاب عن المناخ السائد فى عالم النشر. فلكى يمتنع الناشرون عن إصدار كتابى، سيقت إلىّ جميع الأعذار، حتى أن أحدهم قد اعتذر بأن لديه أجندة مكتظة حتى عام ٢٠١٢. وعليه، لكى يصدر كتابى فى هذا الزمان، اضطررت لأن أخرج به من بلادى لكى أجد له ناشرا فى بلجيكا. ولكن لم تنته مغامرة هذا الكتاب عند هذا الحد، وإنما بدأت حين خرجت. ذلك أن الموزع الفرنسى الذى دأب على توزيع كتب ناشرى البلجيكى قد رفض توزيع الكتاب فى فرنسا، وهو ما يعد حادثة لا سابقة عليها فى التاريخ الحديث للمكتبات الفرنسية. ولكن ربما تكون المشكلة فى طريقها إلى تسوية، ولعل نشر هذه السطور يحين فى وقت يكون فيه كتابى هذا على أرفف المكتبات الفرنسية، جنبا إلى جنب مع كتبى السابقة. وهذا لا ينفى أنه كان علىّ الانتظار ستة أشهر كاملة لكى أتمكن من توزيع الكتاب(رغم أنه لم يصدر ضدى أى قرار قانونى بالحظر أو بالملاحقة)، وهو ما يعد بمثابة عبث فعلى فى بلد يدعى اعتماد حرية التعبير وحقوق الإنسان.

فى فرنسا، صار جليا أن كل جدل يتناول العلاقات مع إسرائيل قد بات من المحرمات. وأضحى كل انتقاد للسياسة الإسرائيلية يصنف بانتظام كمعاداة للسامية، والفرق واضح وبين، فاليهودية ديانة عمرها آلاف السنين، أما الصهيونية فهى أيديولوجية ظهرت قبل قرن من الزمان، وكانت فى وقت من الأوقات تصنف من قبل الأمم المتحدة على أنها «شكل من أشكال العنصرية وضرب من ضروب التمييز العنصرى». بتنا نشهد اليوم حالة من الابتزاز المعنوى الوضيع. فقد وصلت الصهيونية إلى رأس الحكم؛ ومن هناك، على القمة، راحت تعيد تعريف الخير والشر. فالفيلسوف ادجار موران- اليهودى الأصل- قد استدعى للمحاكمة لأنه تجرأ وانتقد أرييل شارون. وهناك صحافيون مثل آلان مينارج، ودانييل ميرميه، ورسامو كاريكاتير مثل سينيه، والكوميديان ديودونيه، ونائب العمدة برونو جيج، الذين تعرضوا للفصل أو للمضايقات لأنهم سمحوا لأنفسهم بالتشكيك فى كون إسرائيل أهم ديمقراطية على وجه الأرض. وفى نفس الوقت، راح «الفيلسوف» برنار هنرى ليفى يدافع عن جيش «الدفاع» الإسرائيلى، أما زميله آلان فينكلكرو، الذى أصابه الخرس أثناء عملية الرصاص المنصهر، فلقد تم تكريمه ومنحه وسام الشرف الأرفع، فى يناير ٢٠٠٩.

بتنا نسير على أدمغتنا. ولعل ذلك ما يحدو بى إلى دعوة يهود فرنسا إلى التخلى بأسرع وقت ممكن عن ممثليهم الذين لا يمثلون فى واقع الأمر أكثر من سدس الطائفة اليهودية، والذين يسيئون إليهم بما يعمدون إليه من خلط بين الإيمان بالعقيدة اليهودية والدفاع عن الصهيونية. ولعل ذلك أيضا ما يحدو بى إلى دعوة الفرنسيين جميعا إلى تحرير ألسنتهم. لا كى يجهروا برأيهم فى إسرائيل فحسب، ولكن أيضا كى يسارعوا إلى التنديد بالأثر الضار الذى راح يخلفه اللوبى الإسرائيلى على وجه فرنسا. جميل أن تكون بنا رغبة فى مساعدة الفلسطينيين، ولكن يجدر بنا أولا أن نحرر أنفسنا من أيديولوجية مدمرة باتت أيامها على قيد الحياة أياما معدودة. ■



تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق بشأن النزاع فى غزة
تقرير جولدستون
(١)

فى ٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٩. أنشأ رئيس مجلس حقوق الإنسان بعثة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق بشأن النزاع فى غزة مُسندًا إليها ولاية قوامها «التحقيق فى جميع انتهاكات قانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الإنسانى الدولى التى قد ارتُكبت فى أى وقت فى سياق العمليات العسكرية التى جرى القيام بها فى غزة فى أثناء الفترة من ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨ إلى ١٨ كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٩، سواء ارتكبت قبل هذه العمليات أو أثناءها أو بعدها».

وقام رئيس المجلس بتعيين القاضى ريتشارد جولدستون، القاضى السابق بالمحكمة الدستورية لجنوب أفريقيا والمدعى السابق للمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة، ورواندا، لكى يرأس هذه البعثة. وكان الأعضاء الثلاثة الآخرون المعينون هم: الأستاذة الجامعية كريستين تشينكين، أستاذة القانون الدولى بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، التى كانت أحد أعضاء «البعثة رفيعة المستوى لتقصى الحقائق» الموفدة إلى بيت حانون ٢٠٠٨؛ والسيدة هينا جيلانى المحامية لدى المحكمة العليا لباكستان والممثلة الخاصة سابقًا للأمين العام المعنية بحالة المدافعين عن حقوق الإنسان، والتى كانت عضوًا فى لجنة التحقيق الدولية المعنية بدارفور ٢٠٠٤؛ والعقيد ديزموند ترافيرس، وهو ضابط سابق فى قوات الدفاع الأيرلندية وعضو مجلس إدارة معهد التحقيقات الجنائية الدولية.

أما الإطار المعيارى للبعثة فقد تمثل فى القانون الدولى العام وميثاق الأمم المتحدة والقانون الإنسانى الدولى وقانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الجنائى الدولى.



صحافة «أولاد آدو»

فضل مصطفى النقيب

■ المرة الأولى التى سمعت فيها تعبير «أولاد آدو» كانت فى إحدى المظاهرات السياسية فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، عندما كنت تلميذاً فى المدرسة الثانوية فى دمشق، أيام صعود حركة التحرر الوطنى.

كنا نهتف للوحدة والتحرر ولعبد الناصر عندما سمعت همسات بعض الرفاق بأن علينا أن نأخذ حذرنا لأن بعض «أولاد آدو» قد اندسوا فى المظاهرة.

لم يكن قد مضى على نزوحنا من فلسطين إلى دمشق إلا بضع سنوات، ولهذا كنت ما زلت لا أعرف معنى بعض التعابير الدمشقية، ولكنى أدركت على الفور أن المقصود هو أن بعض المعادين لحركة التحرر الوطنى قد اندسوا فى المظاهرة.

لم أسأل عن المعنى الحرفى للتعبير وأصل استعماله مع أننى رحت أسمعه بشكل متكرر فى سنوات نهاية الخمسينيات حيث كان أصدقائى ينعتون السياسيين والصحفيين المناوئين لحركة التحرر الوطنى فى سوريا ولبنان بأنهم من جماعة «أولاد آدو». وبشكل عفوى، رحت أعدّ الآراء الصادرة عن مقالات كانت تنشرها جريدة «الحياة» فى بيروت، بين الحين والآخر، وتحمل توقيع «الكاتب العربى الكبير»، على أنها ممثلة للفكر السياسى لجماعة «أولاد آدو». فقد كانت تؤكد أن مصلحة العرب ليست فى انتهاج سياسة التحرر من سيطرة الدول الغربية ولكن فى الانضمام للأحلاف العسكرية التى كانت تقيمها تلك الدول ضد «الخطر الشيوعى». كما كانت تؤكد أن الأسلوب الذى تتبعه حركة التحرر العربى بقيادة عبد الناصر فى الصراع المباشر مع الاستعمار لا يجدى، وأن الأسلوب الذى يحقق نتائج عملية ملموسة هو أسلوب «خذ وطالب» الذى سلكه الملك فيصل الأول، ومن بعده نورى السعيد، فى العراق. وكان فى إصرار جريدة «الحياة» على عدم إفشاء أسم «الكاتب العربى الكبير»، وإبقائه محاطاً بالسرية والغموض ما يزيد من صلاحيته، بالنسبة لى فى تمثيل آراء ومواقف «أولاد آدو» السياسية.

ولم أسمع تعبير «أولاد آدو» مرة أخرى إلا بعد سنوات فى نهاية عام ١٩٦١ حين كنت فى السنة الجامعية الثانية فى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وحصل الانفصال فى سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، التى قامت بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨. فوقتها تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الأصدقاء الدمشقيين، الذى كان يدرس فى جامعة ولاية أمريكية مجاورة، وسألنى إن كنت قد سمعت عن أسماء الضباط الذين قادوا حركة الانفصال، وعندما أجبته بالنفى، قال هو: «لا بد أن يكونوا كلهم من جماعة «أولاد آدو».

ومرت بعد ذلك سنوات طوال لم أسمع خلالها ذلك التعبير، ولم أستعمله، ولم أتذكره، حتى جاء وقت توقيع معاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية عام ١٩٧٩ فى واشنطن. وكنت مقيماً فى كندا أعمل أستاذاً فى كلية الاقتصاد. فى جامعة واترلو.

كنت أراقب المشهد على شاشة التلفزيون. وفجأة، شعرت أننى لا أرى بيغن والسادات على الشاشة ولكنى أرى «أولاد آدو» الذين تسللوا خلسة فى صفوف المظاهرة وقد تمكنوا من السيطرة عليها وقيادتها وإخراجنا منها حتى وقفنا على جانب الطريق نتفرج عليها. وهذا ما رأيته أيضاً عندما شاهدت عرفات يصافح رابين فى حفل توقيع اتفاقية اوسلو فى البيت الابيض عام ١٩٩٣. وهو منظر يتكرر أمامى كلما شاهدت اجتماعاً من الاجتماعات التى يحضرها عرب وإسرائيليون. فكل اجتماع من تلك الاجتماعات يبدو لى على شاشة التلفزيون على أنه مهرجان سياسى جديد من مهرجانات «أولاد آدو».



قادنى هذا التماثل فى التجربة بين كتاب تيار «المحافظين الجدد» وكتاب «ثقافة الاستسلام» إلى أن أتساءل عما إذا كان هناك تماثل آخر بالفكر والايديولوجية يجمع بين كتاب المجموعتين؟

وفى نهاية عام ٢٠٠٢، والولايات المتحدة تقرع طبول الحرب على العراق، اتصل بى أستاذ للعلوم السياسية فى الجامعة ينوى القيام برحلة بحثية إلى البلاد العربية، وقال هذا الأستاذ إنه قام بقراءة بعض ما كتبه محمد حسنين هيكل وادوارد سعيد، وأصبح على معرفة تامة بمنطق العرب المعادين للسياسة الأمريكية فى الشرق الاوسط، وهو يريد أن يقرأ لكتاب عرب يمثلون وجهة النظر الأخرى، وجهة نظر المؤيدين للسياسة الأمريكية، وهو يطلب منى أن أقترح عليه أسماء بعض الكتاب الذين يمثلون ذلك الاتجاه.



لقد عقدت الدهشة لسانى، فلقد اكتشفت أننى شخصياً لا أعرف أى كاتب عربى يمثل وجهة النظر الأخرى. وبعد هذه الحادثة، تملكنى فضول فى معرفة ما إذا كان هناك كاتب أو صحفى عربى يعبر عن آراء ومواقف وتوجهات «أولاد آدو» فى الوقت الحاضر، فأقرأ له كما كنت أقرأ مقالات «الكاتب العربى الكبير» فى سنوات الخمسينيات. فلا زلت أذكر أننى كنت أنتظر صدور تلك المقالات بشغف، لأنها كانت مكتوبة بأسلوب جميل وترتكز على منطق معين. ومع أننى كنت أعارض ذلك المنطق بشكل تام، إلا أن التعرف عليه كان، ولسبب لم يكن واضحاً لى يومها، يساعدنى على فهم منطق أطروحات حركة التحرر الوطنى بشكل أفضل. وهكذا، وجدت نفسى فى مطلع القرن الجديد أبحث عن كاتب عربى عنده منطق يختلف عن المنطق الذى ترتكز عليه قناعاتى، ويمثل الاتجاه السائد فى سياسات الحكومات العربية التابعة بشكل تام للإملاءات الأمريكية.

حاولت عن طريق الإنترنت قراءة مقالات بعض الصحفيين المؤيدين للتوجه الأمريكى والمعادين لنهج المقاومة فى فلسطين ولبنان، ولكنى اكتشفت سريعاً أنه إذا كانت مقالات «الكاتب العربى الكبير» قد صدرت فى الخمسينيات عن منطق خاطئ من وجهة نظرى، فإن مقالات ممثلى جماعة «أولاد آدو» فى مطلع القرن الجديد خالية من أى منطق. وعندما شكوت ذلك لصديق يشغل منصباً هاماً فى أحد عواصم «الاعتدال» العربية، ضحك وقال: «كنت تضيع وقتك فى قراءة مقالات كتاب التدخل السريع»، ثم شرح لى أن أولئك الكتاب حصلوا على لقب «كتاب التدخل السريع» لأنهم يكتبون مقالاتهم عادة بعد ساعات قليلة من تلقى مخابرة تليفونية من دائرة معينة فى الدولة.

حاولت أن أعثر على «منطق» لكتاب «أولاد آدو» فى عاصمة عربية أخرى، ومرة أخرى، باءت محاولتى بالفشل. وعندما شكوت ذلك لكاتب صديق فى تلك العاصمة، قال: «هؤلاء الصحفيون يكتبون لقارئ واحد، وبما أنك أنت لست ذلك القارئ فقراءتك لتلك المقالات مضيعة للوقت.»

فى مطلع عام ٢٠٠٤، أرسل لى الصديق بلال الحسن مخطوطة كتاب يعده للطباعة بعنوان «ثقافة الاستسلام»، وهو عبارة عن قراءة نقدية فى كتابات خمسة كتاب عرب، يعيشون فى العواصم الأوروبية، يؤيدون نهج معاهدات السلام مع إسرائيل كما يؤيدون غزو الولايات المتحدة للعراق. وطلب منى أن أقوم بقراءة المخطوطة وكتابة دراسة تعالج الموضوع من الناحية «الفكرية»، بشكل تكون فيه الدراسة متكاملة مع المعالجة «السياسية» التى تضمنتها مخطوطة الكتاب.

تحمست للاقتراح على أمل أن يكون بين الكتاب الخمسة بحكم حياتهم خارج البلدان العربية، من يكتب بشكل مخالف

لأسلوب «كتاب التدخل السريع» أو «كتاب القارئ الواحد»، وشرعت فى قراءة المخطوطة وقراءة النصوص الأصلية للكتاب الخمسة، وكلى أمل فى أن أعثر أخيراً على كاتب عنده «منطق» أستطيع أن أتعامل معه بما هو ممثل لفكر «أولاد آدو» فى الوقت الحاضر كما تعاملت مع فكر «الكاتب العربى الكبير» قبل عقود من السنين.

كان الكتاب الخمسة جميعاً يكتبون بشكل مخالف لأسلوب «كتاب التدخل السريع» و«كتاب القارئ الواحد»، فلقد كان فى كتابتهم منطق، منطق غريب جداً أثار دهشتى واستغرابى، ولكنه منطق.

كان ذلك المنطق يختلف بشكل جذرى عن منطق أطروحات «الكاتب العربى الكبير» المؤيدة لسياسة الأحلاف العسكرية والمعادية لحركة التحرر العربى فى الخمسينيات. فقد كانت أطروحات «الكاتب العربى الكبير» تصدر عن «منطق» المصالح العربية كما يفهمه الكاتب فى الزمن الذى يتحدث عنه. أما أطروحات الكتاب الخمسة فكانت تدعى أنها لا تصدر عن موقف سياسى ولكن عن موقف «مبدئى». وكان ذلك المبدأ هو الانحياز الكامل لمفهوم «الحداثة» الغربى. وحتى يكون ذلك الموقف «منسجماً» مع ذاته، فإنه يرجع بالزمن إلى الوراء ليعيد كتابة التاريخ العربى فى القرنين الماضيين وفق معيار واحد وهو تصنيف «من وقف من العرب مع الحداثة؟» و«من وقف من العرب معارضاً للحداثة؟». وعلى هذا الأساس، تصبح كل ثورات الشعوب العربية ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى ومن أجل نيل الاستقلال حركات متأخرة ظلامية، على أساس أنها كانت تعادى البريطانيين والفرنسيين ممثلى الحداثة فى ذلك الوقت. وفق هذا المعيار فإن تلك الثورات قد أسهمت لحد كبير فى صناعة التأخر العربى الذى تعانى منه الشعوب العربية فى الوقت الراهن. كما أن ذلك «المنطق» يلخص كل المأساة الفلسطينية فى أن «النضال الفلسطينى فشل فى أن يتحالف مع الاستعمار البريطانى» بينما «نجحت الحركة الصهيونية فى ذلك»[1]، أى أن القضية تتلخص فى وجود طرف قاوم «الحداثة» ففشل، وطرف آخر تحالف مع «الحداثة» وانتصر. ويصر الكتاب الخمسة بعد ذلك على أن تصحيح هذا الخطأ التاريخى لا يتحقق إلا عبر التخلى الكامل عن نهج مقاومة «الحداثة»، والسير الجدى فى طريق التحالف معها، أى التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية، ممثلة «الحداثة» فى الوقت الراهن.



ومن ناحية أخرى، فلقد وجدت فى تجارب أولئك الكتاب الخمسة نسخاً من تجارب بعض الكتاب الأمريكيين الذين ينتمون إلى التيار المعروف باسم «المحافظين الجدد». فكما كان معظم كتاب ذلك التيار ينتمون إلى فصيل التروتسكية فى اليسار الماركسى، عندما كانوا شباباً فى الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن الماضى، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات بعد أن أصبحوا كتاباً وأساتذة وصحفيين فى منتصف العمر، كذلك كان كتاب «ثقافة الاستسلام» ينتمون إلى يسار حركة التحرر العربى عندما كانوا شباباً فى البلدان العربية فى الستينيات والسبعينيات وأوائل الثمانينيات، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى مطلع التسعينيات، بعد أن أصبحوا كتاباً وصحفيين فى الصحافة العربية المقيمة فى العواصم الأوروبية.

ولقد قادنى هذا التماثل فى التجربة بين كتاب تيار «المحافظين الجدد» وكتاب «ثقافة الاستسلام» إلى أن أتساءل عما إذا كان هناك تماثل آخر بالفكر والأيديولوجية يجمع بين كتاب المجموعتين؟

وهكذا، كان على أن أقرأ فى الخلفية الفكرية والفلسفية لأشهر كتاب تيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة، حتى أتعرف على وجهة نظرهم بالنسبة لموضوع «الحداثة» الذى يشكل حجر الأساس فى فكر كتاب «ثقافة الاستسلام».

لقد خلفت تلك القراءة فى نفسى رعباً حقيقياً، فبالرغم من أننى كنت قد تابعت التوجهات السياسية لمعظم كتاب تيار «المحافظين الجدد» خلال العقود الثلاثة الماضية، إلا أننى اكتشفت أننى لم أكن على معرفة بالمنظار الايديولوجى الذى ينظرون من خلاله إلى العالم والتاريخ.

كنت قد تعرفت على ذلك التيار عندما ابتدأ فى مطلع السبعينيات يعارض التوجه العام للسياسة الأمريكية فى ذلك الوقت، المبنى على أساس سياسة «الانفراج الدولى» (Détente)، ويدعو إلى انتهاج سياسة العداء الكامل مع الاتحاد السوفياتى. وتابعت تطور أطروحات التيار فى الثمانينيات، عندما أصبح له نفوذ هائل أيام إدارة الرئيس رونالد ريغان التى تخلت عن نهج سياسة «الانفراج الدولى» ودخلت فى سياسة سباق التسلح «حرب النجوم» لإنهاك الاتحاد السوفياتى التى كانت تنظر إليه على أنه «امبراطورية الشر» فى العالم. وتابعت أطروحات التيار فى التسعينيات التى كانت تطالب بغزو العراق، ورفض أسلوب العملية السلمية فى الشرق الاوسط القائم على أساس مقايضة الارض بالسلام والدعوة إلى ضرورة احتفاظ اسرائيل بالضفة الغربية والجولان وتحقيق السلام على أساس مقايضة السلام بالسلام. وتابعت أخيراً أطروحات التيار فى السنوات الأولى من القرن الجديد التى كانت تطالب بالكف عن اعتماد معايير «المصالح القومية» فى رسم أولويات السياسة الأمريكية الخارجية واعتماد معايير «القيم الامريكية» بدلاً عنها. وهذا يعنى عدم الاكتفاء بمعاداة الدول ذات الأنظمة التى تنتهج سياسات تهدد المصالح الأمريكية، بل معاداة أى دولة فيها نظام معاد للقيم الأمريكية التى هى الحرية والديمقراطية.

كنت على معرفة تامة بكل ذلك ولكنى لم أكن مطلعاً على الموقف الفكرى والفلسفى الذى تنطلق منه تلك المواقف. ولقد وجدت من خلال قراءتى أن الخلفية الفكرية لتيار المحافظين الجدد تعود إلى فلسفة الأستاذ ليو ستراس (١٨٩٩-١٩٧٢) التى تعادى كل مفاهيم «عصر النهضة»، وتؤكد أن من واجب النخب الأمريكية الكف عن اتباع أسلوب «الحداثة» فى النقاش والحوار والعودة إلى أساليب الفلاسفة اليونان القدامى فى حجب الحقيقة عن عامة



الناس وتزويدهم فقط بما يحتاجون إليه فى حياتهم العملية.وفى هذا السياق، فليس هناك أى قيمة لمفاهيم الديمقراطية أوالحرية، إلا بقدر ما تستطيع النخب تسخيرها وسيلة للسيطرة على الجماهير.

خرجت من تلك القراءة «المرعبة» وأنا أفكر فى أنه على الرغم من الاختلافات الكبيرة بين أطروحات «الكاتب العربى الكبير» فى منتصف القرن الماضى، وبين أطروحات كتاب «ثقافة الاستسلام» وكتاب تيار «المحافظين الجدد» فى مطلع القرن الجديد. فان هناك شيئاً مشتركاً بينها جميعا، إذ إن جوهر كل واحدة من تلك الأطروحات الثلاث هو ضرورة التخلص (التحرر) من مفاهيم وممارسات «ضارة» كرستها مرحلة تاريخية معينة.

كان «الكاتب العربى الكبير» فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، يريد التخلص من مفاهيم حركة التحرر الوطنى وممارساتها التى انطلقت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. أما فى مطلع القرن الواحد والعشرين فكتاب «ثقافة الاستسلام» يريدون التخلص من كل مبادئ فترة النضال ضد الاستعمار الاوروبى الذى صبغ تاريخ العلاقة بين بلدان العالم الثالث والامبراطوريات الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر وكل ممارسات هذه الفترة، بينما يصر كتاب تيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة على ضرورة التخلص من كل الأسس المعرفية والمنهجية التى كرستها حركة «الحداثة» كما نشأت وتطورت منذ عصر النهضة الاوروبى وبشكل طبيعى قادنى هذا الشىء المشترك بين الأطروحات الثلاث إلى التفكير فى ظاهرة «أولاد آدو» بما هى ظاهرة عالمية وليست ظاهرة مقصورة على العالم العربى. فهذه الأطروحات تمثل، فى واقع الأمر، ظاهرة التفكير غير العقلانى الذى يريد أن يعود بالتاريخ إلى الوراء. وفى هذا المجال، تساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كانت هناك أى صلة بين أصل استعمال تعبير «أولاد آدو» على المستوى العربى كما سمعته أول مرة فى دمشق قبل أكثر من نصف قرن، وبين ما أفهمه اليوم من معنى للتعبير على المستوى العالمى. وخطر لى أن أتصل ببعض الاصدقاء الذين عاشوا خمسينيات القرن الماضى فى دمشق علهم يعرفون من أين جاء تعبير «أولاد آدو» وما هو أصل استعماله. وعندما حدثت زوجتى عن ذلك، ابتسمت، ثم عادت بعد دقائق ومعها ورقة فيها ما طبعته من برنامج «غوغيل» الذى حدد أن أصل استعمال تعبير «أولاد آدو» يعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين، عندما كانت العائلات الدمشقية العريقة تعيش داخل السوق القديم وتنظر بشك وريبة لتصرفات الذين جاءوا من أمكنة أخرى وأقاموا خارج السور، فتدعوهم «أولاد آدو»، على أساس أن لهم أخلاقاً وقيماً مختلفة عن أخلاق أهالى دمشق وقيمهم. وعلى الفور، رأيت أن إطلاق وصف «أولاد آدو» على «الكاتب العربى الكبير»، وبعد ذلك على كتاب «ثقافة الاستسلام» ثم على تيار «المحافظين الجدد» ينسجم تماماً مع أصل استعمال التعبير الذى يصف الناس الذين يقومون بممارسات تنبع من أخلاق وقيم مغايرة لما هو متعارف عليه. وفى هذا المجال، فإذا كان «الكاتب العربى الكبير» وكتاب «ثقافة الاستسلام» قد طرحوا فكراً يتعارض مع أسس الثقافة العربية فى العصور الحديثة، فإن كتاب تيار «المحافظين الجدد» يقومون بطرح فكر لا يتعارض مع أسس الثقافة الأمريكية فقط ولكنه يتعارض بشكل مطلق مع أسس الثقافة الإنسانية، وهذه التى يشكل عصر النهضة الأوروبية وعصر التنوير وما أنتجاه من نهج الحداثة رافداً أساسياً لها فى العصور الحديثة وهذا يعنى أنهم بالفعل «أولاد آدو» على المستوى الإنسانى.

لا تأتى التيارات الفكرية أو السياسية من فراغ، ولكنها تتشكل دائما تعبيراً عن ظروف موضوعية تخص زمناً ومكاناً محددين. ولقد كتبت فى مقال سابق عن الظروف الاقتصادية والسياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية التى قادت إلى ولادة تيار «المحافظين الجدد»[١]. وأحب فى بقية هذا المقال أن أعرض الدور المحورى الذى لعبته الصحافة الأمريكية فى تكوين البيئة الفكرية والسياسية لولادة التيار ونموه وتطوره. وسنرى من خلال هذا العرض أن صحافة «كتاب التدخل السريع» و«كتاب القارئ الواحد» نشأت وتطورت فى الولايات المتحدة أولاً، وبعد ذلك بسنوات وصلت إلى العواصم العربية، حيث تم تكييفها مع ضرورات الظروف المحلية فى مناخ التبعية للسياسة الأمريكية.



قبل أكثر من نصف قرن، قال ولتر ليبمان: «إن أزمة الديمقراطية الأمريكية هى فى جوهرها أزمة صحافة». ويبدو أننا فى عالمنا العربى نعيش التجربة ذاتها



ولتر ليبمان

ودرو ولسون و ولتر ليبمان ولندون جونسون

لا تحصل أى مهنة فى المجتمع الأمريكى على الاحترام والتقدير، على المستوى القومى، إلا بعد ظهور نجوم لها يشاركون نجوم الألعاب الرياضية ونجوم هوليوود فى الظفر بالإعجاب الشعبى. ولقد بدأت مهنة الصحافة فى إنتاج نجوم لها فى بداية العقد الثانى من القرن العشرين. وفى بداية العقد الثالث، أصبح من المتعارف عليه أن يطلق على نجم الصحافة لقب «البنديت» (Pundit)، وهى كلمة من أصل سنسكريتى تعنى «الانسان العالم» وتستعمل فى الثقافة الهندية وعلى سبيل المثال، فقد كان رئيس وزراء الهند الأشهر جواهرلال نهرو يدعى البنديت نهرو. وأول صحفى أمريكى دعى بالبنديت هو على الأغلب أهم صحفى فى التاريخ الأمريكى على الاطلاق، الذى هو بالطبع ولتر ليبمان (١٨٨٩-١٩٧٤)[٣].

ولد ولتر ليبمان فى مدينة نيويورك لعائلة من أصل ألمانى يهودى، فى وضع مادى مريح، حيث كان أفراد العائلة يقضون جزءاً من أشهر الصيف كل عام فى أوروبا. وعندما بلغ ولتر سن السابعة عشرة انتسب لجامعة هارفرد حيث درس الفلسفة على يدى الفيلسوفين المعروفين جورج سانتانيا (١٨٣٦-١٩٥٢) و وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠). وفى أثناء دراسته أصبح طالب الفلسفة محرراً لمجلة الجامعة المعروفة باسم «شهرية هارفرد»، كما شارك فى تأسيس النادى الاشتراكى فى الجامعة، وكان طالباً متفوقاً، إذ تخرج بتقدير مرتبة الشرف بعد ثلاث سنوات فقط من الدراسة وليس أربعا كما هو معتاد، ولكنه بقى سنة أخرى فى هارفرد ليعمل مع سانتانيا.

عمل ليبمان فور تخرجه من هارفرد صحفياً فى مجلة تدعى «مجلة كل الناس»، وبعد سنة قام بنشر أول كتاب له بعنوان «مقدمة للسياسة» وحاز الكتاب على شهرة سريعة حتى أن الرئيس ثيودور روزفلت (١٩٠١-١٩٠٩) قال عنه إنه «عبقرى الجيل الجديد». وفى عام ١٩١٤ أسس ليبمان مع أحد رجال الأعمال وصحفى آخر مجلة أسبوعية جديدة باسم «الجمهورية الجديدة» وعمل محرراً فيها. وأثناء الحرب العالمية الأولى عمل مساعداً لوزير الحرب، ثم أصبح على علاقة خاصة بالرئيس ودرو ولسون (١٩١٣-١٩٢١)، حيث ساعده على صياغة «نقاط ولسون الأربع عشرة من أجل السلام». وفى سنة ١٩١٩، كان عضواً فى الوفد الأمريكى لمؤتمر السلام فى باريس، وشارك فى تأسيس عصبة الأمم. وفى سنة ١٩٢٠، ترك العمل فى «الجمهورية الجديدة» وأخذ يعمل مديراً لتحرير الجريدة المؤيدة للحزب الديمقراطى «عالم نيويورك». وعندما توقفت هذه الجريدة عن الصدور عام ١٩٣١ تحول هو إلى العمل فى جريدة «هيرالد تربيون» المعروفة بميولها المحافظة، وفيها أخذ يكتب مقالاً بعنوان «اليوم وغداً» الذى توالى ظهوره ثلاثين سنة. وقد حاز ذلك المقال على شهرة هائلة، إذ كان يتم نشره فى أكثر من ٤٠٠ جريدة يومية.

كان ولتر ليبمان يحب العمل كصحفى، ولقد رفض الكثير من العروض المغرية للعمل فى وظائف لها احترام وتقدير أكبر من مهنة الصحافة فى ذلك الوقت. وعلى سبيل المثال، فقد اعتذر عن العمل استاذاً لفلسفة السياسة فى جامعة هارفرد، كما اعتذر عن قبول منصب رئيس

يصرون على أن تصحيح هذا الخطأ التاريخى لا يتحقق إلا عبر التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية

جامعة نورث كارولينا، وفى ذات الوقت، فقد كان دائم القلق على مستقبل المهنة وقدرتها على خدمة الرأى العام بموضوعية. وظل طوال حياته يعير هذا الموضوع اهتماماً كبيراً، وأصدر عدداً كبيراً من الدراسات والكتب حول الموضوع، وفيها انتقد عدم قيام الصحافة بمهمة توعية المواطن بحقيقة ما يدور حوله من أحداث.

أما التأثير المباشر لكتابات ليبمان على مجريات السياسة الأمريكية، فقد تكرس مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. فلقد كان هو أول من استعمل تعبير «الحرب الباردة»، وكان كتابه الذى حمل العنوان ذاته والذى نشره عام ١٩٤٧ من أهم كتبه على الاطلاق.

يمكن تقسيم كتاب «الحرب الباردة» إلى قسمين. القسم الأول يتضمن تأييد المؤلف لمشروع مارشال فى إعادة اعمار أوروبا وأهمية ذلك المشروع بالنسبة للأمن القومى الأمريكى والسلام العالمى. أما القسم الثانى والأهم فهو يخص معارضة المؤلف لنهج السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية المتمثل فى «سياسة احتواء الاتحاد السوفياتى» و«مبدأ ترومان».

من المعروف أن أول من تحدث عن سياسة الاحتواء فى عام ١٩٤٦ كان هو الدبلوماسى الأمريكى جورج كينان (١٩٠٤-٢٠٠٥) فى برقية سرية مطولة أرسلها من السفارة الأمريكية فى موسكو إلى وزارة الخارجية فى واشنطن. ثم قام بتحويل أفكار تلك البرقية إلى مقال نشره فى مجلة «الشئون الخارجية» بعنوان «مصادر السلوك السوفياتى» وبتوقيع (X). كانت سياسة الاحتواء تعتمد على أطروحتين : الأولى تؤكد أن طبيعة النظام السوفياتى هى طبيعة توسعية وأنه يهدف فى النهاية إلى السيطرة على العالم. والثانية تؤكد أنه من الخطأ مقاومة التوسع السوفياتى بأسلوب الحرب المباشرة أو أسلوب المفاوضات، وأن الأسلوب المناسب هو منع التوسع السوفياتى عن طريق مساعدة البلدان التى تتعرض لخطر السقوط فى دائرة النفوذ السوفياتى على مقاومة ذلك الخطر.

وبناء على هاتين الأطروحتين، صاغ الرئيس ترومان (١٩٤٥-١٩٥٣) المبدأ المعروف باسمه، هذا الذى أعلنه فى خطاب أمام الكونغرس فى اذار/ مارس ١٩٤٧ والذى قال فيه إن الولايات المتحدة بوصفها زعيمة للعالم الحر سوف تعمل على تقديم العون العسكرى والسياسى والاقتصادى والدبلوماسى لأى بلد فى العالم يعمل على مقاومة الخطر



كيسنجر

الشيوعى والنفوذ السوفياتى. وعلى الرغم من أن جورج كينان مهندس سياسة الاحتواء تخلى عن تلك السياسة بشكل مبكر فى نهاية عام ١٩٤٨، على أساس أن الوضع الدولى قد تغير، ودعا إلى اتباع أسلوب المفاوضات مع الاتحاد السوفياتى، إلا أن إدارة الرئيس ترومان، وبقيادة وزير خارجيته دين اتشسون (١٩٤٩-١٩٥٣)، عملت وفق نهج تلك السياسة حتى أصبحت هى السياسة المعتمدة للولايات المتحدة طوال سنوات الحرب الباردة.



ارتكزت معارضة ولتر ليبمان لسياسة الاحتواء فى كتابه «الحرب الباردة» على أساسين. الأول هو الاختلاف فى تقييم أهداف السياسة السوفياتية، فهو لم ينظر إلى الموضوع على أنه صراع أيديولوجى بين النظام الرأسمالى وبين النظام الشيوعى، كما كان يفعل أكثر الكتاب والصحفيين طوال سنوات الحرب الباردة، بل كان ينظر إلى الموضوع من زاوية مصالح روسيا بما هى دولة كبرى ومصالح الولايات المتحدة بما هى أيضاً، دولة كبرى. ومن هذا المنظور كان ليبمان يرى وجود إمكانية كبيرة للتوصل إلى تفاهم بين الطرفين يراعى مصالحهما. ولقد بنى فهمه للأهداف الحقيقية للسياسة السوفياتية، ليس عن طريق قراءته الأيديولوجية الماركسية-اللينينية التى كان ستالين يدعى أن الاتحاد السوفياتى يعمل وفق تعاليمها، ولكن عن طريق قراءته لتاريخ روسيا وما تكون عبره من مصالح قومية لا يمكن لأى حكومة سوفياتية تجاهلها .وكان تفكيره هذا مبنياً على أساس إيمانه بأن التفكير السليم يتكون عندما يتمكن الإنسان من التحرر من ضوضاء الوقت الحاضر وتشويشه ويتمكن من «العودة بعيداً إلى الماضى والنظر بعيداً إلى المستقبل» وكان ليبمان فى ذلك الموقف قريباً جداً من وجهة نظر الرئيس شارل ديغول الذى كان يكن له أحتراماً كبيراً ويعتقد أنه من أهم القادة المعاصرين.

أما الأساس الثانى لمعارضة ليبمان لسياسة الاحتواء، وهنا تتجلى حكمته وبعد نظره، فهو اعتقاده بأنه حتى لو نجحت تلك السياسة بشكل كامل،فإن «تكاليفها ستكون أكبر من أرباحها». وقد بنى ليبمان هذا الاعتقاد على أساس أنه سيكون لتلك السياسة تكاليف عسكرية واقتصادية غير مسبوقة فى التاريخ، إذ أنها ستشمل دعماً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً لعدد كبير من الدول، بعضها ذات أنظمة دكتاتورية وفاسدة وبعضها الآخر يحكمها قتلة ومجرمون.

وانسجاماً مع خلافه مع سياسة الاحتواء، فقد وقف ليبمان معارضاً لكل مواقف إدارة الرئيس ترومان،وبشكل هام، فقد أخذ موقفاً معارضاً لتأسيس حلف الأطلنطى، كما عارض دخول الولايات المتحدة الحرب الكورية. وفى أثناء حكم ادارة الرئيس أيزنهاور (١٩٥٣-١٩٦٠)، أيد جهود الإدارة فى إنهاء الحرب الكورية، وعارض بعض سياسات وزير الخارجية جان فوستر دالاس التى اعتمدت أسلوب «حافة الهاوية» فى الصراع مع الاتحاد السوفياتى .وكان مؤيداً ومتحمساً لمجىء



اعتذر ليبمان عن العمل أستاذاً لفلسفة السياسة فى جامعة هارفرد، كما اعتذر عن قبول منصب رئيس جامعة نورث كارولينا

إدارة الرئيس جون كنيدى، على أمل أن يكون بمقدور الرئيس الشاب أن يتحرر من قيود الحرب الباردة ويعمل إلى التوصل لتفاهم معقول مع الاتحاد السوفياتى. وبعد اغتيال كنيدى عام ١٩٦٣، كان ليبمان من أشد مؤيدى سياسة الرئيس لندن جونسون التى تمت تسميتها بسياسة «المجتمع العظيم». وهذه هى السياسة التى كان لها شقان : الأول يخص إصدار قوانين جديدة على مستوى الحكومة الفدرالية تلغى التمييز العنصرى ضد المواطنين السود وتمنحهم الحقوق المدنية، والثانى محاربة الفقر فى أمريكا عن طريق قيام الحكومة الاتحادية ببرامج دعم يتمكن بواسطتها الفقراء من الحصول على المسكن والغذاء والخدمات التعليمية والصحية بأسعار رخيصة. ولقد عمل الرئيس جونسون منذ توليه الرئاسة على كسب ود ليبمان، فقام بدعوته لتمضية عطلة نهاية الأسبوع ضيفاً عليه فى مزرعته فى ولاية تكساس، كما فاجأه بالحضور هو وزوجته إلى بيته للمشاركة فى الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والسبعين عام ١٩٦٤. وأهم من ذلك، فقد طلب جونسون من وزرائه ومساعديه إحاطة ليبمان بكل ما يجرى من تطورات فى جنوب شرق آسيا، حيث كان ليبمان يدعو إلى انسحاب الولايات المتحدة من تواجدها فى فيتنام وحل الصراع الدائر بين الشمال والجنوب عن طريق مؤتمر دولى للدول العظمى.

وهكذا، مضت السنة الأولى من عمر إدارة الرئيس جونسون وولتر ليبمان قريب جداً منها. فعندما كان أحد مساعدى وزير الخارجية أو وزير الدفاع، أو أحد الجنرالات، يعود من زيارة عمل من فيتنام، كان ولتر ليبمان يجتمع به فى البيت الأبيض قبل اجتماعه بالرئيس، وأحياناً كان يحضر الاجتماع بالرئيس ويشترك فى مناقشات تستمر ساعات طوالا. فلقد كان ليبمان يقوم بشكل كامل بدور «بنديت» الصحافة، أى الدور المزدوج الذى يعمل فيه مستشاراً غير رسمى للادارة فيقدم لها النصيحة والمشورة ويعمل فى الوقت ذاته فى مقالاته على شرح سياسة الادارة للرأى العام، كما يشرح اهتمامات الرأى العام ومخاوفه للإدارة.

ولكن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً، فمع نهاية عام ١٩٦٤، تأكد ليبمان أن جونسون مصر على أن يحسم الوضع فى فيتنام عن طريق القوة العسكرية على أساس أنه ومستشاريه الرئيسيين ينظرون للموضوع من وجهة نظر «سياسة الاحتواء»، التى تعنى

أن أي حل في فيتنام لا يشمل على الهزيمة الكاملة للشيوعيين في الجنوب يعني انتصاراً للإتحاد السوفياتي وهزيمة للولايات المتحدة الأمريكية.كما تأكد أن الرئيس جونسون يحرص على إبقاء علاقة جيدة معه هو لأن ذلك يساعد الرئيس على ضمان تأييد الجناح الليبرالي في الحزب الديمقراطي.

تأكد ليبمان أن جونسون قد خدعه، فراح يكتب المقالات التي يهاجم بها سياسته في فيتنام، ويحذر من أن سياسة التصعيد العسكري التي تتبعها الإدارة لن تقود إلا إلى كارثة بالنسبة للمصالح الأمريكية. وعندها شعر جونسون بأن ليبمان قد انقلب عليه وانضم إلى معسكر أعدائه، فأعطى الأوامر إلى مساعديه بقطع أي اتصال به، وراح جونسون يتحدث عنه في الحفلات الدبلوماسية وأمام السفراء الأجانب على أنه «ذلك العجوز، الخرفان، الخائن».

حدث الشجار العلني بين رئيس الجمهورية وبنديت الصحافة في أجواء تزايدت فيها التقارير الصحفية والإشاعات عن أن حادثة خليج تونكن التي حصلت بموجبها إدارة الرئيس جونسون على تفويض من الكونغرس في ٧ اب ١٩٦٤ باستعمال القوة العسكرية في جنوب شرق آسيا بدون إعلان حرب، كانت حادثة لفقتها الإدارة وأن القوارب الحربية لفيتنام الشمالية لم تهاجم سفن البحرية الأمريكية كما ادعت إدارة جونسون[٤].

لم يعد ولتر ليبمان قادراً على أن يمارس دوره كبنديت، ولم يعد قادراً على مزاولة مهنة الصحافة، ولم يعد قادراً على الحياة في واشنطن. وقد قال هو نفسه لأحد أصدقائه إنه لم يعد قادراً على التنفس والتفكير في واشنطن، في أجواء كلها كذب وخداع. فكتب ليبمان في ٢٥ أيار/ مايو ١٩٦٦ آخر مقال له في عمود «اليوم وغداً» في الهيرالد تريبون، واعتزل العمل الصحفي، وترك واشنطن إلى نيويورك.

بخروج ولتر ليبمان من واشنطن، بدأت أوضاع الصحافة الأمريكية تسوء حتى تسلل هنري كيسنجر من وراء سور دمشق القديم وأسس في واشنطن «صحافة التدخل السريع»، التي كانت بداية صحافة «أولاد آدو» في الولايات المتحدة الأمريكية.

هنري كيسنجر وجيمس رستون

كان لندن جونسون كذاباً ومخادعاً، وعلى ذلك يجمع كل الذين كتبوا عنه،[٥] ولكن فشل إدارته في حل المشاكل التي تعرضت لها لم يكن بسبب أسلوب الكذب والخداع الذي مارسه طوال سنوات تواجده في البيت الأبيض (١٩٦٣-١٩٦٩). ففي الواقع كان فشل تلك الإدارة يعود بالدرجة الأولى إلى أنها أستلمت الحكم في فترة زمنية وصل فيها التوتر بين الاتجاهين الرئيسيين اللذين يشكلان نسيج السياسة الامريكية،إلى درجة عالية من التوتر قادت إلى الصدام.

من المعروف أنه ومنذ انتصار المستعمرات الأمريكية في حرب الاستقلال وقيام الولايات المتحدة الامريكية (١٧٧٦) والسياسة الأمريكية تتحدد نتيجةً للعلاقة بين الاتجاه الذي يكرس «الحرية» كهدف أول في السياسة وبين الاتجاه الذي يكرس «الامبراطورية» كهدف أول. ومن المعروف أن قوة الاتجاه الأول تنبع من كون معظم المهاجرين الأمريكيين الأوائل قد تركوا أوروبا هرباً من أنظمة تفتقد إلى الحرية السياسية أو الحرية الاقتصادية، كما أنهم حصلوا على الاستقلال بعد حرب دامية ضد الاستعمار البريطاني. وقد كرس هذا التاريخ مفهوماً أمريكياً يؤكد أن الحفاظ على الحرية يتطلب جهداً متواصلاً من جيل إلى جيل، وخصوصاً أن للحرية مضموناً اقتصادياً واجتماعياً يتغير مع الزمن. أما قوة الاتجاه الثاني فتنبع من حقيقة أن التاريخ الأمريكي كله وحتى قبل الحصول على الاستقلال كان تاريخ تأسيس للامبراطورية وتطويرا لها، فقبل



فكما كان معظم كتاب ذلك التيار ينتمون إلى اليسار الماركسي، في الخمسينات والستينيات من القرن الماضي، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين في أواخر الستينيات



الاستقلال، كانت معاملة الأمريكيين البيض للسكان الأصليين من الهنود والمواطنين السود معاملة إمبراطورية بمعنى التحكم في مصيرهم ونقلهم من مكان لآخر وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية. وبعد الاستقلال، أصبح التاريخ الأمريكي كله تاريخ التوسع الامبراطوري، ابتدأ في التوسع في الغرب الأمريكي طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بشكل تضاعف فيه عدد ولايات الاتحاد من ثلاث عشرة ولاية إلى أضعاف ذلك العدد، ثم تحول التوسع إلى بسط النفوذ على بلدان أمريكا الجنوبية من جهة وبلدان المحيط الهادئ من جهة أخرى، ثم تكرس التوسع على امتداد العالم عبر الدخول في حربين عالميتين والخروج منهما بسياسة وراثة الامبراطوريات الاوروبية وإقامة القواعد العسكرية في آسيا وأوروبا وأفريقيا.

كان لندن جونسون، من ناحية التربية السياسية، وعلى الرغم من أساليبه في الكذب والخداع، أميل إلى اتجاه «الحرية» من اتجاه «الامبراطورية» في السياسة الامريكية، فقد كان اهتمامه الاول هو العمل على تطبيق برامج «المجتمع العظيم»، أي توسيع مساحة الحرية بالنسبة للمواطنين السود والمواطنين البيض الفقراء. ولقد اعتقد أن الطريقة الوحيدة التي يتمكن فيها من ضمان تأييد معسكر «الامبراطورية» في الكونغرس لتلك السياسة هو اتخاذ الموقف المتشدد في جنوب شرق آسيا وتحقيق النصر العسكري في فيتنام. ولقد نصحه مستشاروه الاقتصاديون بأنه لن يكون قادراً على دفع تكاليف برامج «المجتمع العظيم» و«حرب فيتنام» في آن واحد. ولكنه لم يستمع لهم، وراح



ولتر ليبمان

ينفق على الاثنين عن طريق الديون من الداخل والخارج، ولقد قاد هذا الأسلوب، كما هو معروف، إلى حدوث مشكلة التضخم المالي وارتفاع الأسعار. وهكذا، أقترن فشل إدارة جونسون الديمقراطية في حرب فيتنام بفشل آخر في الاقتصاد، مما فتح الطريق أمام عودة الحزب الجمهوري إلى الحكم.

جاء هنري كيسنجر إلى واشنطن عام ١٩٦٩ مع إدارة الرئيس نيكسون منحازاً إلى اتجاه «الامبراطورية» في السياسة الأمريكية. وإذا كان لندن جونسون قد اكتسب أسلوب الخداع والكذب من تربيته السياسية في ولاية تكساس[٦] ومن السنين الطويلة في عقد الصفقات السياسية في الكونغرس في واشنطن، فقد كان هنري كيسنجر يستعمل أسلوب الكذب والخداع بما هو اختيار أيديولوجي مبني على أساس فكري.



درس كيسنجر العلوم السياسية في جامعة هارفرد، وفي عام ١٩٥٤ حصل على شهادة الدكتوراة، وبقي في هارفرد ليعمل استاذاً وباحثاً في معهد برامج الدفاع، كما انضم إلى مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، وأصبح من المستشارين المقربين من نلسون روكفلر الذي كان حاكماً لولاية نيويورك (١٩٥٩-١٩٧٣). وفي منتصف الستينيات عندما أصبح الطلبة والأساتذة في الجامعات الأمريكية من أشد معارضي حرب فيتنام، كان هنري كيسنجر يكتب المقالات، ويظهر في مساجلات تلفزيونية، مؤيداً للحرب.وقد اتضح فيما بعد أنه كان يفعل ذلك ليحصل على الشهرة، فقد كان مقتنعاً بأنه لا جدوى من استمرار الحرب لأنه ليس بإمكان الولايات المتحدة تحقيق الانتصار العسكري.

جاء هنري كيسنجر إلى واشنطن مستشاراً للأمن القومي في إدارة الرئيس نكسون الاولى (ثم أصبح وزيراً للخارجية في إدارة نيكسون الثانية) وعنده هدفان يريد أن يحققهما.

كان الهدف الأول يخص وضع الولايات المتحدة في العالم، فقد كان مدركاً أن عجز إدارة جونسون عن دفع تكاليف الحرب في فيتنام وتكاليف برامج الإصلاحات الداخلية له دلالة خطيرة، وهي أن الامبراطورية الأمريكية قد وصلت المرحلة التي تبدأ فيها الامبراطوريات بالانحدار، اي عندما يصبح وضع الامبراطورية الاقتصادي غير قادر على

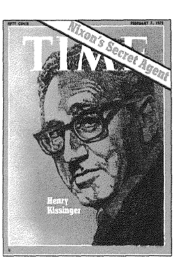
كان ولتر ليبمان يحب العمل كصحفى، ولقد رفض الكثير من العروض المغرية للعمل فى وظائف لها احترام وتقدير أكبر

القيام بأعباء متطلبات الامبراطورية العسكرية. وكان مدركاً أيضاً أن سياسة توقيف الإنفاق على برامج الإصلاحات الداخلية، التى ينادى بها اليمين الأمريكى، هى سياسة غير حكيمة وستعمل على إضعاف الامبراطورية من الداخل، فهو فى موقعه فى الحزب الجمهورى لم يكن من المحافظين الرجعيين بل كان من المحافظين المعتدلين كنكسون، والذين يطلق عليهم فى السياسة البريطانية اسم المحافظين الحمر (Red Tories) وكان يعتقد أن بإمكان الولايات المتحدة تقليص تكاليف السياسة الامبراطورية، وذلك عبر إقامة توازن دولى جديد يقلص إلى حدود كبيرة إمكانية نشوب حروب مكلفة كحرب فيتنام. وكان يرى أن الظروف العالمية مواتية لإقامة توازن دولى جديد يحاكى التوازن الذى قام فى أوروبا طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو التوازن الذى تكرس بعد مؤتمر فيينا عقب هزيمة نابليون والذى لعب فى الإعداد له وزير خارجية بريطانيا روبرت كاستليرى (١٧٦٩-١٨٢٢) ووزير الدولة النمساوى كليمنس مترنيخ (١٧٧٣-١٨٨٥). فلقد كان موضوع أطروحة هنرى كيسنجر التى نال عنها شهادة الدكتوراة عام ١٩٥٤ هو «السلم والشرعية والتوازن: دراسة فى موهبة رجل الدولة عند كاستليرى ومترنيخ» ومن أجل تحقيق هدف بناء توازن دولى جديد، بدأ كيسنجر اتصالاته السرية بالصين.

أما هدف كيسنجر الثانى، فكان يخص وضع الصحافة والإعلام فى الولايات المتحدة بشكل عام. فلقد كان مقتنعاً أن إحدى مشاكل حرب فيتنام هى «أن التلفزيون الأمريكى قد أدخل الحرب إلى كل بيت أمريكى». ولذلك بدأ على الفور فى محاولة التأثير على الصحافة عن طريق عقد صداقات مع الصحفيين الذين يستطيعون أن يكونوا نجوماً «بنديتات» قادرين على التأثير فى الرأى العام بشكل يخدم مصالحه.

بعد أن ترك والتر ليبمان واشنطن، كان هناك كثيرون يطمح كل واحد منهم فى أن يخلفه ويصبح بنديت الصحافة الأول، وفى الحقيقة، كان هناك اثنان فقط لهما من القدرة والشهرة ما يؤهلهما لتبوؤ ذلك المركز.

كان الأول هو جوزيف ألسوب (١٩١٠-١٩٨٩) الذى كان يكتب عموداً فى جريدة نيويورك هيرالد تريبيون يتم نشره فى ٣٠٠ جريدة أخرى فى المدن الأمريكية. وكان جوزيف من أسرة لها صلة قرابة مع أسرة روزفلت التى جاء منها رئيسان للجمهورية: ثيودور (١٩٠١-١٩٠٩)



كيسنجر

وفرانكلين (١٩٣٣-١٩٤٥). كما كان من خريجى جامعة هارفرد وله سجل ممتاز فى الحرب العالمية الثانية. ولقد أصبح له شهرة كبيرة جداً فى الخمسينيات والستينيات، وخصوصاً أنه كان معروفاً بأنه من الصحفيين الذين يعملون بجهد كبير للتوصل للحقائق. كما أنه كان يتمتع بتقدير كبير لموقفه الشجاع فى الدفاع عن الصحفيين فى سنوات المكارثية السوداء. ولكن جوزيف ألسوب كان من أول ضحايا حرب الفيتنام، فلقد جره تأييده للحرب إلى أن يتخلى عن الموضوعية المهنية، فاستمر منذ منتصف عام ١٩٦٤ وحتى نهاية عام ١٩٦٨ يتنبأ كل بضعة أشهر بقرب انهيار الفيتكونغ وانتصار الولايات المتحدة بالحرب. وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى خسارته صدقيته كصحفى ومحلل سياسى.

أما الصحفى الثانى فكان جيمس روستون (١٩٠٩-١٩٩٥) الذى كان يعمل مراسلاً لجريدة نيويورك تايمز ومديراً لمكتبها فى واشنطن، والذى كان الكثيرون يرون، فى مطلع السبعينيات، أنه أقوى صحفى فى واشنطن، ويجمع كل الذين كتبوا عنه بالإشادة بأخلاقه وقدرته اللامتناهية على العمل الدءوب ساعات طوالا من أجل الحصول على الأخبار الدقيقة ومن أكثر من مصدر واحد.

كان جيمس روستون معجباً جداً بوزير الخارجية دين أتشسون فى نهاية الأربعينيات. وكان فى تلك الفترة يكتب المقال تلو الآخر، مؤيداً سياسة الاحتواء التى كان أتشسون يقوم بالإشراف على تنفيذها فى إدارة الرئيس ترومان كما ورد سابقاً، وبعد ذلك، أصبح روستون صديقاً وتلميذاً لولتر ليبمان ووصف تلك الصداقة بقوله: «كان ولتر يستعمل قدمى وكنت أستعمل عقله». وكان فى ذلك يصف حقيقة أنه هو روستون كان يدور فى واشنطن طوال النهار بحثاً عن الأخبار، وفى المساء كان يقوم بعرض ما عنده على ليبمان الذى كان يقوم بشرح معنى تلك الأخبار ووضعها فى السياق الصحيح. وبعد سنتين من غياب ليبمان عن واشنطن، جاء هنرى كيسنجر ليملأ مكان الإعجاب الخالى فى عقل جيمس روستون وقلبه.

فى السنوات الأولى من عمر إدارة الرئيس نيكسون كان اسم جيمس روستون من ضمن أسماء «القائمة السوداء» السرية التى وضعها مساعدو الرئيس فى البيت الابيض، وهى القائمة التى تضمنت أسماء أعداء الرئيس من الصحفيين. وفى الوقت ذاته، كان جيمس روستون يكتب المقال تلو الآخر، مؤيداً سياسة كيسنجر الذى يعمل فى البيت الأبيض مستشاراً للأمن القومى. وقد وصل ذلك التأييد إلى ذروته عندما كتب روستون أحد مقالاته فى النيويورك تايمز بعنوان «بقلم هنرى كيسنجر مع جيمس روستون». وقد قادت تلك العلاقة إلى حادثة هامة فى نهاية عام ١٩٧٢. ففى منتصف كانون الأول / ديسمبر من ذلك العام، أقدمت الولايات المتحدة على قصف هانوى عاصمة شمال فيتنام بالطائرات فى العملية المشهورة باسم «قنابل عيد الميلاد»، وعندها، كتب جيمس روستون فى مقالته فى النيويورك تايمز يقول: «من المؤكد أن هنرى كيسنجر يعارض عمليات قصف هانوى، وهو لم يتحدث عنها بشكل علنى. وإذا استمر القصف ولم يتوقف، فإن من حقه أن يقدم استقالته».

كان كتاب «ثقافة الاستسلام» ينتمون إلى يسار حركة التحرر العربى فى الستينيات والسبعينيات، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى مطلع التسعينيات

وما أن صدر المقال حتى جن جنون الرئيس نيكسون، وذلك لأن هنرى كيسنجر كان هو الذى اقترح فكرة قصف هانوى، وهو الذى اقنع الإدارة بها. وعندما واجهه أعوان نيكسون بالموضوع أنكر كيسنجر أنه هو الذى أوحى لرستون بفكرة المقال، فلم يصدقه نيكسون، بل أمر بفحص سجل تليفونات كيسنجر فتبين أنه أجرى مخابرة تلفونية مع رستون قبل ساعات قليلة من صدور المقال فى النيويورك تايمز. وهكذا، أسس هنرى كيسنجر وبمساعدة جيمس روستون «صحافة التدخل السريع». فى واشنطن[٧].

لقد خدع كيسنجر روستون لأنه كان يريد تضليل الكونغرس وتضليل الشعب الامريكى وتضليل العالم. ومع ذلك، لم يعمد نكسون إلى إقالته، بل، على العكس، قام بعد سنة بترقيته من مستشار للأمن القومى إلى وزير خارجية. كذلك، لم يغضب روستون من كيسنجر ولم يتوقف عن الإعجاب به، ونشر المقالات تأييداً لسياساته. فعندما تصل الصحافة ألى وضع «صحافة التدخل السريع» تكون الأمور قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة.

عبد الناصر وهيكل والسادات

كان جيمس روستون يتمتع بمزايا شخصية جيدة، ومنها أنه كان يعرف قدر نفسه، فعندما سأله أحد أصدقائه لماذا يكتب دوماً مؤيداً سياسة الإدارة الموجودة فى الحكم، أجابه بأنه «إذا كنت صحفياً يسلك نهج انتقاد من هم فى السلطة، فسيأتى يوم يرفض فيه رجال السلطة الاجتماع بك والرد على مخابراتك التليفونية، وستجد نفسك فى النهاية وحيداً مع آرائك الشخصية، وأنا لا أحب ذلك، لأن آرائى الشخصية ليست جيدة»[٨].

كانت العواصم العربية مليئة بالصحفيين الذين ليس عندهم آراء شخصية جيدة، ولا يستطيعون الحياة بعيداً عن السلطة وما تؤمنه من امتيازات. ومع ذلك، شاءت الأقدار أن لايتم تدشين «صحافة التدخل السريع» بشكل رسمى فى العالم العربى الا بعد أن بدأ هنرى كيسنجر القيام بزياراته المكوكية للعواصم العربية وإسرائيل بعد حرب ١٩٧٣. كما شاءت الاقدار أن لا يتم ذلك التدشين إلا بعد ان ترك هيكل «أستاذ» الصحافة العربية عمله الصحفى فى القاهرة، تماماً كما تم تدشين

تلك الصحافة فى الولايات المتحدة بعد أن ترك ليبمان «بنديت» الصحافة الامريكية عمله الصحفى فى واشنطن.

من المعروف أنه طوال الخمسينيات والستينيات كانت هناك علاقة خاصة بين الرئيس جمال عبد الناصر والصحفى محمد حسنين هيكل. فقد كان هيكل يقدم المشورة والنصيحة لعبد الناصر فى الوقت ذاته الذى يشرح فيه للقارئ سياسة عبد الناصر ويشرح لعبد الناصر هموم واهتمامات القارئ. وكانت تلك العلاقة قوية وفعالة وناجحة، لأن ثقافة الرجلين كانت تسمح بوجود مساحة بينهما شبيهة بالمساحة التى كانت موجودة بين الرئيس ولسون وليبمان، أو الرئيس ديغول واندريه مورو. كان عبد الناصر وهيكل على اتفاق تام حول الإطار العام للمصلحة القومية، ولكن كانت هناك اختلافات كثيرة بينهما حول الأساليب والتفاصيل. وكان الرجلان قادرين على مناقشة تلك الخلافات بالحوار الذى يستفيد منه الاثنان. وعندما أصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية بعد رحيل عبد الناصر فى نهاية عام ١٩٧٠، أصر على إبقاء العلاقة بينه وبين هيكل كما كانت أيام عبد الناصر. ولكنه حاول أن تكون علاقة بدون مساحة. ففى الشهر الأول من توليه رئاسة الجمهورية إتصل السادات بهيكل وأخبره بأنه شعر، أثناء اجتماعه الأخير مع جعفر النميرى رئيس جمهورية السودان، بأن النميرى مستاء من أن هيكل يقف ضده منحازاً للمعارضة فى السودان. وقال السادات لهيكل إنه طمأن النميرى بأن ذلك غير صحيح وليثبت له ذلك فقد وعده بأن يكتب هيكل مقالاً يزيل فيه كل الشكوك حول الموضوع. بالطبع، اعتذر هيكل ولم يقبل أن يكتب مقالاً يحدد موضوعه رئيس الجمهورية، وبالطبع، فإن ذلك أغضب السادات لأنه اعتقد أن هيكل لا يعامله كما كان يتعامل مع عبد الناصر، ولم يخطر بباله أنه هو الذى يسعى لأن يتعامل مع هيكل بطريقة مختلفة عن طريقة عبد الناصر. وبعد حرب ١٩٧٣ وتوطد علاقة «الصداقة» بين كيسنجر والسادات والتى أسفرت عن انحياز سياسة الحكومة المصرية للمعسكر الأمريكى، كان من المستحيل بقاء أى علاقة بين السادات وهيكل، فترك الأخير رئاسة تحرير الأهرام، وتوقف عن الكتابة فى الصحافة المصرية. وكان لخروج هيكل من «الأهرام» تأثير على الصحافة المصرية مشابه إلى حد بعيد لتأثير خروج ولتر ليبمان من واشنطن على الصحافة الأمريكية. فلقد كان ما حدث مع الاثنين إعلاناً صارخاً مدوياً عن إلغاء المسافة بين السلطة والصحافة فى البلدين، فإما صحافة التأييد المطلق للسلطة وإما صحافة المعارضة الكاملة.

جورج ويل ورونالد ريغان

ليس هناك أى فرق فى العالم العربى بين «صحافة التدخل السريع» و«صحافة القارئ الواحد»، على أساس أن الصحفى الذى يكتب بعد استلام مكالمة تليفونية من مسؤول فى السلطة ينتهى إلى أن يكتب بشكل يرضى ذلك المسؤول فقط، وكلما ازداد رضا ذلك المسؤول عنه كلما ازداد حجم المكاسب والامتيازات التى يحصل عليها من السلطة.



أما الوضع فى الولايات المتحدة فهو ليس كذلك. ففى البيئة الديمقراطية الأمريكية لا يستطيع «كتاب التدخل السريع» أن يحتفظوا بصدقيتهم مدة طويلة كما أنهم لا يستطيعون التحول إلى «كتاب القارئ الواحد». ففى نهاية المطاف يحتاج الصحفى إلى مؤسسة إعلامية يعمل بها، وهذه تحتاج بدورها إلى تمويل الشركات التى لا تأتمر بأمر رجل واحد، حتى لو كان رئيساً للجمهورية أو رئيساً للمخابرات. ولذلك، فإن فهم التطور الذى حصل



لم يعد ولتر ليبمان قادراً على أن يمارس دوره، ولم يعد قادراً على مزاولة مهنة الصحافة، فكتب آخر مقال له فى عمود واعتزل العمل الصحفى


TIME
The Weekly Newsmagazine

ولتر ليبمان

مع «صحافة التدخل السريع» التى أسس لبداياتها هنرى كيسنجر فى أوائل السبعينيات يتطلب فهم تطورين هامين حصلا فى المجتمع الأمريكى فى أواخر السبعينيات.

يخص التطور الأول مجمل الأوضاع الاقتصادية فى بداية السبعينيات، حين لم يعد ممكناً السير على الطريق الذى سارت عليه إدارة الرئيس جونسون فى الإنفاق على الحرب فى فيتنام وعلى برامج الإصلاح الداخلية عن طريق الاستدانة من الداخل والخارج. فلقد قادت تلك السياسة إلى تفاقم أزمة الغلاء والتضخم المالى، كما أن أزمة الطاقة قادت إلى مشكلة الانكماش وارتفاع معدلات البطالة عن العمل. وما أن انتصف عقد السبعينيات، حتى كان الاقتصاد الأمريكى يعانى من الازمة المزدوجة التى أطلق عليها اسم الانكماش التضخمى (Stagflation)، وهى مشكلة لم يعان منها الاقتصاد الأمريكى من قبل. وعندما استفحلت الأزمة وعجزت سياسات الحكومة الاتحادية التقليدية عن التخلص منها أوحتى وقف تفاقمها، اتضح بشكل صارخ أن التاريخ الأمريكى قد وصل إلى لحظة الحقيقة. فلم يعد ممكناً أن يتعايش اتجاه «الحرية» مع اتجاه «الامبراطورية»، وعلى الحكومة الاتحادية أن تختار بين الإنفاق على التسلح أو الانفاق على برامج الإصلاحات الداخلية.

فى هذه الفترة، ظهرت مجموعة من الكتاب الذين أخذوا يصرخون بأصوات عالية جداً محذرين من تعاظم قوة الاتحاد السوفياتى وتهديدها للأمن القومى الأمريكى. وفى الوقت ذاته، أخذ أولئك الكتاب يتهمون الصحف الرئيسية فى الولايات المتحدة أنها تدعى الموضوعية ولكنها منحازة فى الواقع للتيار الليبرالى فى السياسة الداخلية ولتيار التفاهم مع الاتحاد السوفياتى فى السياسة الخارجية، وأنها تقوم بتضليل الشعب الأمريكى وحجب حقائق الخطر السوفياتى عنه. ولقد وجد أولئك الكتاب بسرعة مذهلة عناصر فى اليمين الأمريكى تمول لهم مجلات جديدة ومراكز أبحاث جديدة للدعوة إلى سياسة محافظة فى الداخل تتناقض مع سياسات الإصلاحات الداخلية، والى سياسة متشددة ضد الاتحاد السوفياتى تعتمد على زيادة الإنفاق على التسلح، أى الانحياز الكامل لاتجاه «الامبراطورية» ومحاربة اتجاه «الحرية». ولقد تم فيما بعد تسمية التيار الذى مثله أولئك الكتاب بتيار «المحافظين المحدثين» وانتقل ذلك الاسم فى الصحافة العربية خطأ لاسم «المحافظين الجدد».

أما التطور الثانى الذى حصل فى نهاية السبعينيات وكان له تأثير كبير على الصحافة الأمريكية، فهو تكريس انتصار الاعلام المرئى فى منافسته مع الاعلام المقروء. فقد أصبح المواطن العادى يسمع الأخبار من التليفزيون أكثر مما يقرأها فى الصحف، كما أصبح يتعرف على معنى القضايا المطروحة ومضمونها من مشاهدته برامج الحوارات السياسية فى التليفزيون، أكثر من قراءته لافتتاحيات الصحف. وهكذا، لم يعد ممكناً تواجد نجم أو بنديت صحفى إذا كان يحصر عمله فى الصحافة المقروءة فقط. لقد أصبح النجم الصحفى هو الذى يظهر بشكل دورى على شاشة التليفزيون حيث يشاهده عشرات الملايين. وخبا نجم الصحفى الذى يكتب ويقرأه عشرات الآلاف أو حتى مئات الألوف.

كانت النتيجة الأولى لهذين التطورين الهامين تكريس وضع مؤسسى لرعاية «صحافة التدخل السريع» يمنحها صفة الاستمرار ويجنبها مشاكل الرغبات والأهواء الفردية. وقد تم ذلك عبر تسخير برامج حوارية فى التليفزيون، تبدو من ناحية ظاهرية أنها تهدف إلى تعريف المواطن الأمريكى على وجهات النظر المختلفة حول القضايا السياسية المطروحة، بينما هى تهدف فى حقيقة الأمر أولا وأخيراً إلى إقناع المواطن بوجهة نظر الحكومة حول تلك القضايا. ففى أخر الستينيات ومطلع السبعينيات، أنشأت كل قناة تليفزيون أمريكية برنامجاً حوارياً يضم ثلاثة أو أربعة من نجوم «بنديتات» الصحافة المكتوبة، يتحاورون لمدة ساعة أو نصف ساعة كل أسبوع حول أهم قضايا

كان هيكل يشرح فيه للقارئ سياسة عبد الناصر ويشرح لعبد الناصر هموم واهتمامات القارئ

الأحداث، ويستضيفون دوماً واحداً من كبار المسؤولين في الإدارة، كوزير الخارجية أو وزير الدفاع أو مستشار الأمن القومي أو أحد أعضاء مجلس الشيوخ. ويبدو للمشاهد أن المسؤولين عن البرنامج قاموا بأنفسهم باختيار المسؤول الحكومي الذي يظهر في البرنامج ليتحاوروا معه. ولكن، في الواقع، يقوم موظفو البيت الأبيض بتحديد من سيظهر من مسؤولي الإدارة في كل برنامج كل أسبوع. والأهم من ذلك هو أنه بعد أن ينتهي المسؤول الحكومي من شرح وجهة نظره حول القضية المطروحة و يبدأ نجوم الصحافة في توجيه الأسئلة والحوار معه، تتحول الجلسة إلى حوار حقيقي عندما تكون القضايا المطروحة داخلية بحتة كقضايا الضرائب والانفاق الحكومي على المجالات المختلفة أو قضايا الاجهاض أو برامج الرعاية الصحية... الخ. ولكن، إذا كانت القضية تخص الانفاق العسكري أو الشرق الاوسط أو الحرب على الارهاب، فإن «جلسة الحوار» تتحول إلى مشهد وصفه أحد الكتاب الأمريكيين بأنه أقرب ما يكون إلى مشهد «قادة الهتيفة» (Cheers Leaders)، وهو مشهد البنات الجميلات اللواتي يظهرن نصف عاريات على شاشة التلفزيون في مباريات كرة القدم يرقصن ويهتفن تشجيعاً للفريق. أي أن يكون هدف كل أسئلة نجوم الصحافة هو إعطاء المسؤول الحكومي الفرصة ليؤكد على النقاط الرئيسية في موقف الإدارة. فليس هناك نقاش وليس هناك حوار. وهكذا، تحولت برامج التلفزيون الحوارية ببريقها الديموقراطي إلى مقر الإقامة المفضل «لصحافة التدخل السريع».

وهنا يبرز السؤال الطبيعي التالي : إذا كان البيت الأبيض هو من يحدد من سيمثل الحكومة في برامج التلفزيون الحوارية كل أسبوع، فمن الذي يحدد من سيشترك من نجوم الصحافة في البرامج كل أسبوع؟ من الذي يصنع نجوم أو «بنديتات» الصحافة الأمريكية؟.

أشهر برامج الحوارات التلفزيونية هي برنامج «أغرونسكي وشركاه» في محطة التلفزيون العام وبرنامج «داخل واشنطن» في محطة CBS، وبرنامج «هذا الأسبوع مع ديفد برنكلي» الذي أصبح اسمه الان «هذا الاسبوع مع جورج ستيفانوبليس» في محطة ABC، وبرنامج «العصابة الرئيسية» في محطة CNN، وبرنامج «مجموعة ماكلاليغن» في محطة NBC.



كيسنجر

عند التدقيق في تاريخ هذه البرامج نلاحظ أن لكل برنامج مشرفا يقوم بدور توزيع الأدوار، وقد احتفظ ذلك المشرف، في كل البرامج، بوظيفته لمدة طويلة، وعادة حتى سن التقاعد أو الوفاة. ونلاحظ أن العكس تقريباً هو ما حصل مع نجوم الصحافة الذين يشتركون في البرامج، حيث تتغير الوجوه بسرعة. هناك من ظهر لمدة أشهر فقط، وهناك من حافظ على موقعه لبضع سنوات، ما عدا نجم واحد الذي هو جورج ويل الذي أبتدأ بالظهور عام ١٩٧٧ في برنامج أغرونسكي وشركاه ثم أخذ يظهر في الوقت ذاته في البرنامج الحواري لمحطة ABC عندما ابتدأ عام ١٩٨١، وما يزال يظهر عليه حتى يومنا هذا مع أن كل الذين ظهروا معه في بداية البرنامج غابوا عنه واحداً بعد الآخر، كما جاء بعدهم من عمل لمدد قصيرة ثم أختفى. فما هو سر جورج ويل؟

كان جورج ويل في أوائل السبعينيات أستاذ جامعة يدرس مادة «فلسفة السياسة»، ثم ترك الحياة الأكاديمية وعمل مستشاراً لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين. وعندما سقط ذلك الشيخ في انتخابات ١٩٧٢، انتقل جورج ويل ليعمل في مجلة «المصلحة القومية». وكانت هذه في تلك الفترة من أهم وسائل الإعلام التي تمثل الفكر المحافظ وتعادي الفكر الليبرالي. وبسرعة صاروخية، تمكن ويل خلال مدة قصيرة من أن يصبح نجماً صحفياً يظهر على برامج التلفزيون بشكل دائم، ويكتب مقالات صحفية أسبوعية في جريدة الواشنطن بوست ومجلة نيوزويك، وينشر الكتب، ويدعى لإلقاء المحاضرات في الجامعات. لقد أصبح «بنديت كبيراً» في فترة قصيرة جداً، وكان سر ذلك النجاح غير المسبوق هو أن جورج ويل فهم بشكل مبكر جداً التغيرات التي حصلت في أوضاع الصحافة في عصر التليفزيون، فأدرك أن القرب من السلطة هو شرط أساسي للبقاء والمحافظة على وضع البنديت، حتى يبقى مطلعاً على الذي يدور في عالم صنع القرار، ولكن ذلك ليس كافياً لتأمين الاستمرار في مركز البنديت، فالسلطة لا تستطيع الضغط على الشركات الكبرى للاستمرار في تمويل البرنامج التلفزيوني الذي يظهر فيه البنديت. والقادر على ذلك في البيئة الأمريكية، هم فقط مراكز الضغط (Lobbies)، وعملاً بهذا الفهم اختار جورج ويل منذ البداية تأييد إسرائيل بشكل مطلق حتى يضمن تأييد أقوى مركز ضغط في الولايات المتحدة وهو اللوبي اليهودي، ومن ناحية أخرى، وجد جورج ويل في حاكم ولاية كاليفورنيا رونالد ريغان أفضل من يمثل الاتجاه المنحاز كلياً لمعسكر «الامبراطورية» والمعادي كلياً لمعسكر «الحرية» في السياسة الأمريكية، فقد كان ريغان يتمتع بصفتين متناقضتين، قل أن يتمتع بهما أي سياسي، فهو بما هو ممثل سينمائي محترف، عنده قدرة متميزة على الخطابة واقناع المواطن الأمريكي العادي بأنه مؤمن بالذي يدعو له وليس واحداً من السياسيين الذين يقولون أي شيء من أجل الفوز بأصوات الناخبين، بينما كان في الحقيقة يزاول العمل السياسي بدون أي فلسفة، أو مبادئ أو قناعات. وكان مستعداً أن يترك لمعاونيه ومساعديه ترتيب الأولويات ورسم السياسات واقتراح البرامج، بينما يكتفي هو بعرضها على المواطن الأمريكي. وكان يعرضها بشكل ناجح وفعال حتى وصفته وسائل الاعلام بأنه «المتحدث العظيم» (The Great Communicator) ولذلك، أصبح جورج ويل من أشد المتحمسين والداعين والمؤيدين لترشيح رونالد ريغان لرئاسة الجمهورية في إنتخابات ١٩٨٠. وعمل اثناء الحملة الانتخابية مستشاراً لريغان، ووصل الأمر به إلى أن يعمل مدرباً لريغان في الساعات التي سبقت مناظرته التلفزيونية مع الرئيس كارتر ثم أن يجلس أثناء المناظرة في مقعد المراقب الصحفي لمحطة ABC وينقل للمشاهد تقييمه لأداء المتناظرين. ولقد رأى بموضوعية تليق بصحافة «أولاد آدو» أن ريغان كان أفضل من كارتر في المناظرة. وبعد انتخاب ريغان، عمل جورج ويل كمستشار غير رسمي للرئيس وكتب له بعض خطاباته.



كانت العلاقة بين ناصر وهيكل ناجحة، لأن ثقافة الرجلين كانت تسمح بوجود مساحة بينهما شبيهة بالمساحة التي كانت موجودة بين الرئيس ديغول واندريه مورو

استمرت إدارة ريغان ثماني سنوات (١٩٨١-١٩٨٩). وطوال تلك السنوات، كان جورج ويل يملأ الفراغ الفكري الموجود في عقل رونالد ريغان، تماماً كما كان هنري كيسنجر قبل سنوات يملأ فراغ الإعجاب الموجود في نفسية جيمس روستون. ولكن الشبه بين هنري كيسنجر وجورج ويل لم يتوقف على ذلك. فإذا كان هنري كسينجر قد نجح على المستوى الاستراتيجي في تكريس الصراع العربي - الاسرائيلي جزءاً من الصراع بين الولايات المتحدة وبين الإتحاد السوفياتي في سنوات الحرب البارده، فقد نجح جورج ويل في وقتنا الراهن في تكريس الصراع العربي-الإسرائيلي جزءاً من الصراع بين الأنظمة الديمقراطية والإرهاب العالمي. فهو يعرض قضية إسرائيل على أنها مقطع من التاريخ الأمريكي، إذ أنه يؤكد أن الخطر الذي يهدد إسرائيل هو في كونها تمثل في الشرق الأوسط الاستثناء وليس القاعدة، من حيث كونها الدولة الديمقراطية الصغيرة المسالمة التي تعيش وسط عالم عربي كبير تحكمه الدكتاتوريات المتعطشة للدماء. وبشكل مماثل فهو يرى أن الخطر الذي يهدد الديمقراطية الأمريكية هو في كونها الاستثناء في التاريخ وليس القاعدة، من حيث أن الأنظمة الشمولية المعادية هي أكثر تمثيلاً للأنظمة التي حكمت في التاريخ.

وقد شاركه في الانحياز المطلق لإسرائيل صحفيون

آخرون، من أشهرهم وليم سافاير (١٩٢٩-) فى النيويورك تايمز، وتشارلز كروثمار (١٩٥٠-) فى الواشنطن بوست. ففى الثلاثين سنة الماضية تبنى هؤلاء الثلاثة مواقف متباينة تجاه كثير من القضايا، كما أن كل واحد منهم تبنى مواقف تختلف عن مواقف تبناها فى السابق تجاه قضايا معينة بعد تغير الظروف، ولكن لم يحدث أبداً خلال كل تلك السنوات أن اتخذ أى واحد منهم موقفاً ينتقد فيه إسرائيل، وأكثر من ذلك فهم يهاجمون بشكل دائم ما يسمى بحركة السلام فى إسرائيل ويعتبرون أن دعوتها لتقديم بعض «التنازلات» من الجانب الإسرائيلى من أجل التوصل للسلام مع العرب سياسة خطرة وضارة.

وإذا أردنا أن ناخذ مثالاً حياً على أسلوب عمل «صحافة التدخل السريع» المندمجة فى «صحافة مراكز الضغط»، فعلينا أن ننظر إلى ردود فعل جورج ويل على الخطاب الذى ألقاه الرئيس باراك أوباما فى جامعة القاهرة يوم ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٩. بعد الخطاب مباشرة، قال جورج ويل فى أحاديثه التلفزيونية وفى محاضرة ألقاها فى احتفال لتسلم إحدى الجوائز التى تمنحها له المؤسسات اليمينية بشكل دورى، إن الرئيس أوباما نسى أن يذكر الحقائق التالية فى خطابه:

● لم يكن هناك دولة فلسطينية عبر التاريخ حتى قيام الانتداب البريطانى عام ١٩١٨.

● إن أسرائيل قامت عام ١٩٤٨ على مساحة أرض تساوى سدس من واحد بالمئة من مساحة الأرض التى تعرف بالعالم العربى، ومع ذلك فالعرب لا يعترفون بها.

● لم تنعم إسرائيل خلال واحد وستين سنة من عمرها بثانية واحدة من السلام الحقيقى بسبب الاعتداءات العربية عليها.

● الضفة الغربية ليست كما وصفها الرئيس أرضاً محتلة من قبل إسرائيل، إنها أرض تركت بلا ملكية بعد انتهاء الانتداب البريطانى عام ١٩٤٨، وتم احتلالها بشكل غير شرعى من الأردن حتى عام ١٩٦٧ حين احتلتها إسرائيل بشكل شرعى نتيجةً لتصديها للاعتداء عليها من قبل الأردن فى حرب ذلك العام.

كما أكد ويل أنه من العار على الولايات المتحدة أن تحاول إنتهاج سياسة منصفة ومتوازنة بين العرب وإسرائيل. إذ كيف يمكن لأمريكا أن تساوى بين عالم عربى لا يسعى إلا إلى التحطيم والدمار وبين اسرائيل التى لا تسعى إلا إلى حماية الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط.

وبعد ذلك، بدأ ويل فى كتابة المقالات الصحفية والحديث فى برامج التلفزيون الحوارية مهاجماً سياسات إدارة الرئيس أوباما الداخلية بقسوة لم يمارسها من قبل،حتى وصل به الأمر إلى القول فى مقاله فى الواشنطن بوست فى الاسبوع الأول من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٩ إن أوباما أصبح رئيساً غير فعال وإنه يحاول القيام بمهمات كثيرة بدون جدوى، وإنه أصبح كموسيقى المصاعد، هى دائماً مسموعة، ولكن لا أحد ينصت لها.

وعلى الأغلب أن هذا هو الأسلوب الذى ستتبعه صحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة تجاه الرئيس أوباما.فهم لن يهاجموه بشكل مباشر على موقفه من الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية، ولكنهم سيركزون هجومهم على سياساته الداخلية، فهذا هو الأسلوب الذى اتبعوه مع الرئيس بوش الأب عندما قامت إدارته بربط موضوع ضمان حكومة الولايات المتحدة لاقراض إسرائيل عشرة مليارات دولار بوقف الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية فى مطلع التسعينيات. فصحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة تتصرف على أساس إعتبار أى اختلاف مع السياسة الاسرائيلية جريمةً يجب معاقبة مرتكبها أشد أنواع العقاب. ولقد تبنت صحافة أولاد آدو فى العالم العربى ذلك الموقف عندما أخذت تكرس فكرة ان السلام مع إسرائيل هو الخيار الوحيد وأخذت تحرض ضد المقاومة فى لبنان وفلسطين.



بدأ كيسنجر فى التأثير على الصحافة عن طريق عقد صداقات مع الصحفيين الذين يستطيعون أن يكونوا نجوماً قادرين على التأثير فى الرأى العام بشكل يخدم مصالحه





ولتر ليبمان

مستقبل صحافة أولاد آدو

قبل أكثر من نصف قرن، قال ولتر ليبمان: «إن أزمة الديمقراطية الأمريكية هى فى جوهرها أزمة صحافة»، والذى يقصده بذلك هو أن التطبيق الناجح للديمقراطية يتطلب وجود المواطن الذى عنده معرفة حقيقية بالقضايا السياسية المطروحة حتى يتمكن من ممارسة الاختيار السليم للحكومة التى تمثله وتكون قادرة على التعامل مع تلك القضايا على الشكل الذى يرضيه، ولكن طبيعة الحياة الحديثة تجعل من المستحيل أن يكون عند المواطن العادى الوقت الكافى ليصبح مواطناً مطلعاً على حقائق الأمور. ولذلك فإن للصحافة دوراً مركزياً فى تثقيف المواطن وتعريفه على حقيقة ما يدور حوله من قضايا وأمور. وكان ليبمان يرى أن الصحافة فى وقته لا تقوم بذلك الدور بشكل فعال، حيث لا يقوم الصحفيون بنقل حقيقة الأوضاع السياسية للقارئ، ولكنهم ينقلون له دوماً وجهة نظرهم حول تلك الحقيقة، وغالباً ما تكون وجهة النظر تلك مما يخدم مصالح معينه وليس المصلحة العامة.

ولقد رأينا أن المشكلة مع صحافة «أولاد آدو»، سواءً فى الولايات المتحدة أو فى العالم العربى، ليس أنها لا تقوم بنقل الحقيقة بشكل كامل للمواطن. بل إن المشكلة مع تلك الصحافة هى أنها تقوم بدور تضليل المواطن بشكل دائم. ففى خلال عقد الثمانينيات، مارست صحافة أولاد آدو أكبر عملية تضليل فى تاريخ الولايات المتحدة. ففى الوقت الذى كان الاتحاد السوفياتى على فراش الموت، كانت تلك الصحافة تؤكد للمواطن الأمريكى أن الاتحاد السوفياتى يتقدم بسرعة كبيرة ويزداد تهديده للأمن القومى الأمريكى يوماً بعد يوم. وكانت تلك الصحافة تعتمد فقط على تقارير وكالة الاستخبارات الأمريكية التى أكدت أن الاتحاد السوفياتى فى سنوات ١٩٨١-١٩٨٥ قد نما اقتصادياً بمعدل أكبر من معدل نمو دول الاتحاد الاوروبى بحوالى ٢٥ ٪. كما كانت تلك التقارير قد أكدت فى منتصف الثمانينيات أن متوسط دخل الفرد فى ألمانيا الشرقية أعلى من متوسط دخل الفرد فى ألمانيا الغربية.

أما فى العالم العربى، فصحافة أولاد آدو تمارس، منذ بداية عقد التسعينيات من القرن الماضى، أكبر عملية تضليل فى التاريخ العربى الحديث، فى تأييدها وحماسها للعملية السلمية مع إسرائيل. ويوماً بعد الآخر، وسنة بعد سنة، يتضح خطر الاستمرار فى تلك العملية على القضية الفلسطينية وعلى المصالح العربية العليا، بينما يزداد تأييد صحافة أولاد آدو للعملية ودعوة الدول العربية التى لم تشترك بعد فى العملية إلى ضرورة الإسراع بالانخراط فيها.



وفى النهاية علينا أن نلاحظ ثلاثة أمور لها أهمية كبيرة.

الأمر الأول هو أن صحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة، أصبحت عبارة عن حوار مستمر بين ممثلى السلطة وممثلى مراكز الضغط، ولم تعد هناك صحافة لها الاستقلالية التى كانت تدعى «السلطة الرابعة». وفى هذا المجال، يكفى ان نلاحظ الفرق بين تغطية الصحافة الأمريكية لحرب الفيتنام وتغطيتها لحرب غزو العراق. ولذلك، أصبح تأثير تلك الصحافة على الرأى العام ضئيلاً جداً. فعندما نقوم بالاطلاع على نتائج استفتاءات الرأى العام فى الولايات المتحدة فى ربع القرن الماضى، نجد ان أراء غالبية الرأى العام كانت دوماً متناقضة مع أراء نجوم الصحافة والتليفزيون. ففى منتصف الثمانينيات، عندما كان نجوم الصحافة يتحدثون بشكل مستمر عن خطر الاتحاد السوفياتى كامبراطورية للشر فى العالم تهدد الامن القومى

جرى تكريس برامج حوارية فى التلفزيون، تبدو أنها تهدف إلى تعريف المواطن على وجهات النظر المختلفة حول القضايا المطروحة



الأمريكى والسلام العالمى، كانت استفتاءات الرأى العام تبين أن أقلية (حوالى ٢٠ ٪) تعتقد أن هناك خطراً سوفياتياً على الولايات المتحدة، وأن الغالبية تعتقد أن ما يهدد المجتمع الأمريكى هو الفقر والجريمة وتدنى مستوى النظام التعليمى. وفى التسعينيات، عندما كان نجوم تلك الصحافة يتحدثون دون توقف عن خطر نظام صدام حسين فى العراق على الأمن القومى الأمريكى لم يظهر ذلك الخطر على الإطلاق فى أى استفتاء للرأى العام الأمريكى. وبعد غزو العراق وبينما كانت غالبية نجوم تلك الصحافة تطالب بضرورة بقاء الجيش الأمريكى فى العراق كانت غالبية الرأى العام تطالب بضرورة الانسحاب الفورى من العراق. وحتى فى الأسابيع الأخيرة، بينما كانت غالبية نجوم تلك الصحافة يصرون على أنه من الخطأ أن تقوم الحكومة الاتحادية بأى دور فى تأسيس نظام قومى للرعاية الصحية، أظهر استطلاع غالوب للرأى العام أن غالبية الرأى العام الأمريكى تعتقد أن من واجب الحكومة الاتحادية أن يكون لها دور أساسى فى ذلك البرنامج.

أما فى البلاد العربية، فليس هناك أى تأثير لصحافة أولاد أدو على الرأى العام العربى، من حيث أنها، فى واقع الأمر، صحافة تستعمل «لغة زائفة» تصف فيها «أحداثاً زائفة» تحدث فى «بيئة زائفة». وأى انسان يقضى أياماً معدودات فى أى بلد عربى يمكن أن يتعرف على تلك الحقيقة بسرعة. أما من يشك فى ذلك فعليه أن يقارن مواقف صحفيى أولاد أدو فى العالم العربى مع نتائج أستطلاعات الرأى العام التى لها مصداقية أكاديمية. وعلى سبيل المثال، إذا أخذنا نتائج استطلاع الرأى العام الذى تقوم به مؤسسة بحثية من جامعة ميرلاند الأمريكية كل سنة فى كل من مصر والسعودية والاردن ومراكش والامارات وقارنا تلك النتائج مع آراء صحافة أولاد أدو فى العالم العربى، فسنجد أن مواقف غالبية الرأى العام العربى مناقضة لتلك الآراء بشكل كلى ودائم. فعلى سبيل المثال، منذ سنوات وصحفيو أولاد أدو يتحدثون عن الخطر الإيرانى على العالم العربى وخطر برناج إيران النووى على الاستقرار فى المنطقة، وفى كل سنة من السنوات الماضية (٢٠٠٤- ٢٠٠٩) وغالبية الرأى العام العربى، وفق الاستطلاعات، ترى أن إيران ليست خطراً على العرب، وأنه من حق إيران الاستمرار فى برنامجها النووى، كما ترى أنه إذا حصلت إيران على القنبلة النووية فإن ذلك سيشكل حدثاً إيجابياً فى المنطقة.



كيسنجر

وبالنسبة للولايات المتحدة، التى ترى فيها صحافة أولاد أدو العربية حليفاً استراتيجياً والقوة التى تكفل الاستقرار والتقدم فى المنطقة والقادرة على حل الصراع العربى- الاسرائيلى بشكل عادل، فإن الغالبية الساحقة (أكثر من ٨٥ ٪) من الرأى العام العربى، وفق الاستطلاعات، لا تثق بالولايات المتحدة بل تعتبرها منحازة لإسرائيل بشكل مطلق وتعتبر سياساتها خطراً على العرب. ومن ناحية أخرى، ففى السنوات الاخيرة، خصوصاً بعد انتصار المقاومة فى حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى لبنان، إنصب غضب إعلام أولاد أدو المقروء والمرئى بشكل هستيرى على قائد المقاومة السيد حسن نصر الله، هذا فى الوقت الذى أظهرت فيه استطلاعات الرأى العام العربى فى كل سنة من السنوات الخمس الماضية أن السيد نصر الله يحتل مرتبة الزعيم الأكثر شعبية فى العالم العربى.

أما الأمر الثانى، فهو أننا رأينا أن «صحافة أولاد أدو» فى الولايات المتحدة صنعت وما تزال تصنع نجوماً وأسماء لامعة، بينما عجزت «صحافة أولاد أدو» فى العالم العربى، عن صنع أى اسم معروف على المستوى الشعبى. ويعود هذا الفرق بين الاثنتين، بحكم طبائع الأمور، إلى أن الأولى تمثل مصالح حقيقية لقوى راسخة الحضور فى المجتمع الأمريكى، ولو كانت تعمل على العودة بالتاريخ إلى الوراء، بينما لا تمثل الثانية أى مصالح حقيقية فى العالم العربى. فصحافة «التدخل السريع» وصحافة «القارئ الواحد» لا تمثل إلا مصالح أفراد على أتم الاستعداد للالتزام اليوم بموقف ثم الدفاع عن موقف مناقض له فى الغد. إنهم فى الواقع لا يمارسون إلا مهنة الطباعة وليس مهنة الكتابة. أما كتاب «ثقافة الاستسلام»، فلقد رأينا أنهم يدعون إلى تأييد السياسة الأمريكية فى العالم العربى بحجة أن الولايات المتحدة هى ممثلة «الحداثة» فى عصرنا.. ولقد رأينا كيف أنهم، فى حقيقة الأمر، يؤيدون سياسات ألد أعداء الحداثة فى المجتمع الأمريكى ويعادون الممثلين الحقيقيين للحداثة فى ذلك المجتمع. إن ولاءهم الحقيقى ليس لمفهوم الحداثة ولكن لجبروت القوة فى العالم العربى، وفى الولايات المتحدة، وفى فلسطين المحتلة، والتبعية للقوة لا تصنع كتاباً.

أما الأمر الثالث، وهو التوأم المنطقى للأمر الثانى، فيخص وجود صحافة حرة شريفة تعمل بشكل شجاع وفى ظروف صعبة فى العالم العربى وفى الولايات المتحدة ولها تأثير هائل على الرأى العام. ففى العالم العربى، يكفى ان نلاحظ إهتمام الناس الكبير ببرنامج «مع هيكل» فى قناة الجزيرة «الذى يبث مساء كل خميس فيختفى كل أولاد أدو فى العالم العربى وراء سور دمشق القديم، ولمدة ساعة كاملة يرتفع فقط صوت الحوار الحر بين ماضى العرب وحاضرهم ومستقبلهم. كما يكفى أن نرصد الأثر الذى يحدثه نشر مقال من مقالات سيمور هيرش فى مجلة النيويوركر الأمريكية بين آونة واخرى. فنحن نرى كيف يصمت الضجيج المزعج فى صحافة أولاد آدو المرئية والمقروءة فى الولايات المتحدة، وكيف يضطر الجميع إلى الاستماع إلى قصص الفضائح الجديدة التى ارتكبتها حكومة الولايات المتحدة فى العالم العربى مع تواطؤ صحافة أولاد أدو هنا وهناك.

يظهر من هذه الأمور الثلاثة أن هناك مقاومة حقيقية وناجحة لصحافة أولاد أدو فى العالم العربى وفى الولايات المتحدة. وتتم هذه المقاومة فى الولايات المتحدة فى سياق الصراع بين اتجاه «الامبراطورية» واتجاه «الحرية» فى السياسة الأمريكية، كما تتم فى العالم العربى فى سياق الصراع بين اتجاه «التبعية» واتجاه «التحرر». وغنى عن القول أن مستقبل الصراع الدائر فى الولايات المتحدة يؤثر بشكل مباشر على مستقبل الصراع فى العالم العربى. وغنى عن القول أيضاً أن العكس صحيح. ■

تذكرنا «برامج الحوار» بمشهد Cheers Leaders، نصف عاريات فى مباريات كرة القدم يرقصن ويهتفن تشجيعاً للفريق

هوامش

(١) بلال الحسن (٢٠٠٥). ثقافة الاستسلام بيروت: رياض الريس للكتب والنشر ص.٨٠.

(٢) أنظر مقال «الستالينية الأمريكية» فى وجهات نظر عدد يناير ٢٠٠٦.

(٣) ألذى اطلق لقب البنديت لأول مرة على ولتر ليبمان كان هنرى لوس صاحب مجلة التايم الذى تخرج من جامعة ييل والتى فيها ناد للطلبة المتفوقين باسم (Pundits club).

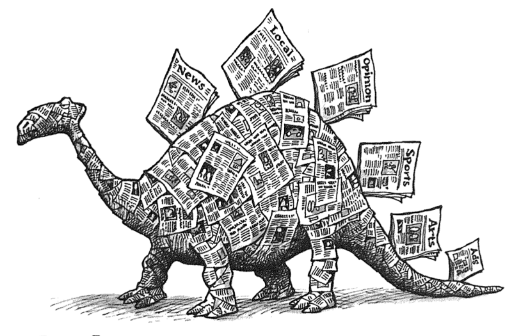
(٤) صوت ٤٨ عضواً فى مجلس الشيوخ مع القرار وعارضه أثنان فقط أما مجلس النواب فقد صوت ٤٥٢ نائباً مع القرار ولم يعارضه أحد.. ومن المعروف أنه أتضح فيما بعد أن الحادثة كانت غير صحيحة وأن الادارة قامت بخداع الكونغرس.

(٥) صدر كثير من الكتب عن السيرة الشخصية للرئيس لندن جونسون. ومن أهمها كتاب سنوات لندن جونسون للمؤرخ روبرت كارو الذى صدر منه حتى الان ثلاثة مجلدات، هى «الطريق إلى القوة» (١٩٨٢)، و«طرق الصعود» (١٩٩٠)، «سيد مجلس الشيوخ» (٢٠٠٢) وسيصدر بعد سنتين المجلد الرابع. وصفحات المجلدات الثلاثة مليئة بقصص الكذب والخداع التى مارسها جونسون فى حياته منذ أن كان سياسياً ناشئاً فى ولاية تكساس، ثم وهو عضو فى مجلس النواب الاتحادى، ثم عضو فى مجلس الشيوخ، ثم رئيس الاغلبية فى مجلس الشيوخ، ثم نائباً للرئيس.

(٦) كان لندن جونسون مغرماً بترديد حكاية ساخرة فى مجالسه الخاصة عن إن أصل جورج واشنطن هو فى الواقع من ولاية تكساس، وذات يوم وهو فى الثامنة من عمره جاء والده غاضباً يسأل العمال الذين يعملون فى مزرعته عن الذى قام بقصف جذع من أحد الاشجار، فما كان من الصغير جورج الا ان تقدم وقال: «يا والدى أنا لا استطيع أن أكذب، انا ألذى قصف جذع الشجرة». وعندها قال له الوالد: «يا بنى إذا كنت لا تستطيع أن تكذب فهذا يعنى أنك لا تستطيع أن تعيش فى تكساس» وهكذا قام الوالد ببيع المزرعة والانتقال بعائلته إلى ولاية فرجينيا

(٧) انظر كتاب سيمور هيرش (Summit Books,1983) (The price of power: Kissinger in the Nixon white house

(٨) انظر (Harper,1992) Eric Alterman, Sound and Fury



حبر "الأيام الخوالى"

مايكل ماسينج
Michael Massing

انهار توزيع الصحف والجرائد.. وتراكمت الديون والخسائر، وأصبح كثير من الصحفيين التقليديين بلا وظيفة... ولكن انتبهوا... هل رأيتم ماجرى فى ايران؟



■■ وفقاً لمدونة Paper Cuts فإن ١٥٩٧٤ عاملا بالصحف خسروا وظائفهم فى عام ٢٠٠٨ وفى النصف الأول من عام ٢٠٠٩ انضم إليهم ١٠٠٠٠ آخرون: قد يكون هذا رقما مفجعا ولكنه واقع لحوالى ٢٦٠٠٠ مراسل، محرر، مصور، كاتب عامود حول شئون العالم، ومحلل سياسى أو اقتصادى، وصحفيين ممن كشفوا قضايا فساد، وآخرين يكتبون عن الثقافة والترفيه والرياضة... فقدوا وظائفهم ويواجهون هذا الواقع.

لقد تقلصت عضوية «اتحاد المراسلين الحربيين والمحررين» من ٦٠٠ عضو فى عام ٢٠٠١ إلى ١٠٠ عضو حالياً. وفى ابريل، أغلقت صحيفة Cox Newspapers مكتبها فى واشنطن مما ادى الى نقص فى عدد المراسلين الذين يغطون اخبار الحكومة الفيدرالية.

أما Boston Globe، وThe Baltimore Sun، وThe Philadelphia Inquirer، وNewsday كلهم اضطروا لإغلاق مكاتبهم الخارجية لتقليل النفقات؛ أما عن مجموعة McClatchy التى تضم صحيفة The Sacramento Bee، The Charlotte Observer، وأكثر من عشرين صحيفة يومية توزع فى أنحاء الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل نفقات مكاتبها فى جنوب آسيا أو الحفاظ على مراسل دائم لها فى المكسيك او حتى بغداد، على الرغم من العمل الرائع الذى قام به مراسلو هذه المكاتب. فى «الأيام الخوالى» كان من الممكن الاستغناء عن المراسلين ولا تتغير القدرة على تغطية الأخبار، هذا ما كتبه المحرر الرئيسى فى مجموعة McClatchy الصحفى Mark Seibel ولكنه الآن يعترف أن هذه التقليصات الأخيرة فى الميزانية وما ترتب عليها من تسريحات قد أثرت عليهم وبشدة مهنياً.

فى اوائل هذا العام تحدث رئيس تحرير صحيفة New York Times الصحفى Bill Keller عن «تناقص منتج صحافة الجودة»، وتعبير «صحافة الجودة» هنا يقصد به هذه الصحافة التى يقوم بها مجموعة من المراسلين الذين تتوافر لديهم الخبرة، للذهاب إلى مكان الحدث، والتحدث مع شهود العيان، والبحث فى الوثائق والملفات، والتواصل مع مصادره ليؤكد الخبر مرة واثنتين؛ وعادة ما يكون هذا المراسل مدعوماً بمحرر يطبق أعلى قواعد المهنية الصحفية.

ولكن Keller يرى أن هذه صحافة مكلفة وخطرة فى بعض الأحيان، وأن الممارسين التقليديين لهذه الحرفة خاصة فى الصحف يتم تسريحهم أو المؤسسات بأكملها تعلن إفلاسها. وهذا ادى بالضرورة إلى انتعاش الاتصال من خلال الانترنت الملىء بمحاولات صحفية ولكن فى أغلبها لا ترقى للمهنية المطلوبة.

هذا الاتجاه الذى يعد Keller من الجوقة التى تتغنى به والذى يقلل من شأن الانترنت وقدرته على ممارسة الصحافة وقدرة المدونين على التعليق على الأحداث.

ولكن هذا الاتجاه يواجه نقدا لاذعا على يد المدونين أنفسهم، David Simon المراسل السابق فى جريدة Baltimore Sun ومبتكر The Wire فى مؤتمر عن «مستقبل الصحافة» فى مجلس الشيوخ أعلنها «الإنترنت وسيلة رائعة».

ونفى عنهم صفة الطفيلية التى يتهمهم بها تيار الصحافة التقليدية تحت دعوى انهم يأخذون الأخبار من الصحافة جاهزة ويعلقون عليها دون إضافة جديد؛ ولكن المدونين يرون أن اسهاماتهم تتخطى التكرار والتعليق؛ بل تتعدى هذا الدور بأنها مصدر الأخبار، حيث بدأ مستخدمو الانترنت يعتمدونهم بدلاً من الصحف التقليدية.

ولكن بالتأكيد الصورة الطفيلية التى يوضع فيها الانترنت بها شىء من الصحة، لولا جمع المعلومات الذى تقوم به المؤسسات الصحفية كان لكثير من مواقع الانترنت أن تحتضر وتموت من قلة المعلومات. ولكن هذا الادعاء وحده

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: منة اكرام

يبدو قديماً ودفاعيا؛ حيث إنه فى الأشهر الماضية المنصرمة بدأت مواد أصلية، ومثيرة ومبتكرة على الرغم من فوضويتها فى الظهور على الانترنت.

وهذا ما يسمى «بإعادة اختراع الصحافة» باستخدام الانترنت: من خلال تجارب متنوعة فى جمع الأخبار وتقديمها وتوصيلها. وهذا ما يجب أن يفهمه محررو الصحف ليكونوا قادرين على مواجهة هذا التطور والبقاء.

المدونان اللذان يعتبران رائدى هذا المجال هما: Mickey Kaus وAndrew Sullivan. حيث انشا Kaus مدونته kausfiles سنة ١٩٩٩؛ كما بدأ Sullivan مدونة The Daily Dish فى عام ٢٠٠٠ ويدونون أيضاً فى The Atlantic.

وهما مازالا يستخدمان نفس الأسلوب الذى نشراه وتميزا فيه، وهى تدوينات قصيرة وحادة تعلق على الأحداث وتقدم وصلات لمقالات وأعمدة رأى ووثائق ومدونات أخرى؛ مما قد يتهم موقعه قبل الظهور فى وسائل الإعلام الجماهيرية.

ولم يكن Sullivan محايداً أو حاول ادعاء هذا، فلقد كان راغباً وبشدة فى سقوط حكومة «أحمدى نجاد»، وفى حين كانت الكثير من وسائل الإعلام مكممة كانت The Daily Dish هى مركز الأخبار من قلب طهران. فأنا عند مشاهدتى لشبكة CNN كنت أتابع واقرأ موقعه، وأقول وأنا واثق أنه وهو جالس على حاسوبه تفوق على شبكة CNN بكل مواردها.

أسلوب Kaus وSullivan الذى يعتمد على «الاختزال والتعليق» هو أسلوب شائع بين المدونين ولكن على مر السنوات طوره البعض وأصبح له أسلوبه الخاص؛ ومن الأمثلة الواعدة هى مدونة TPM (Talking Points Memo) التى بدأها John Marshall سنة ٢٠٠٠ عندما كان محرراً فى واشنطن فى The American Prospect.

بعد خلافات عدة مع زملائه المحررين الشخصية: التى تضم TPMDC التى تغطى أخبار العاصمة، وTPMmuckraker التى ينشر فيها تحقيقات، وTPMcafe التى تظهر المشاركات من القراء والمتابعين. إن الانتشار السريع لمدونة Talking Points Memo يوضح تغيراً سياسياً كبيراً حدث على الانترنت.



فى عام ٢٠٠٥ حين كتبت عن «عالم التدوين» blogosphere كان اليمين هو المسيطر وكانت أشهر المدونات اليمينية هى Drudge Report: ولكن اليسار الليبرالى هو الاتجاه الصاعد فى الحين الذى وجهت طاقات المحافظين للحديث عبر الراديو.

وفى زيارة مؤخراً لمكتب TPM فى منهاتن، كان المكان به حوالى درزينة من المراسلين الشباب والكتاب و«الموصلين»

الاخبارية مثل 60 Minutes وThe New York Times ونشر هذه التحقيقات من خلال هذه المؤسسات حتى وجدت أنه من الضرورى أن يكون لها موقعها الخاص على الانترنت. ولقد تحدث Paul Steiger رئيس التحرير السابق لصحيفة The Wall Street Journal والمدير الحالى للعملية: «إن الشباب المثقف الذكى الذى يجيد التعامل مع الانترنت الذين أعينهم من أمثال Paul Kiel هم كنز حقيقى فبدلاً من قراءة الوثائق الحكومية فقط فهو يبحث على الانترنت ويتصل بمصادره ويصنع الأخبار من مكانه لتدور عجلة الموقع».

من مهام Kiel الترجمة على الانترنت والبحث عن التحقيقات التى قام بها الآخرون وتوصيل هذه التحقيقات والتعليق عليها لإلقاء الضوء عليها وجذب الانتباه الى ما تحتويه من أخبار وآراء. كما خصص Kiel موقعا فرعيا لمتابعة كل الأموال التى تصرفها الحكومة فى واشنطن ولكن

.. إعادة اختراع الصحافة!

بالطفيلية. ولكن فى اوائل يونيو مثلاً، كتب Sullivan تحت عنوان «أين يقف اليمين المتطرف الآن؟!»:

«شاهدت هذا فى «آسبن» (حيث كنت أحضر مؤتمرا هناك)، حيث يصرح Michael Scheuer أن امل الولايات المتحدة الوحيد هو هجوم كبير يقوم به «أسامة بن لادن» ليمكن الحكومة الأمريكية من اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية مواطنيها، هم يقفون على حافة الجنون ويقتربون منها كل يوم أكثر، هذا هو مكان اليمين المتطرف».

وذيل هذه التدوينة بوصلة لمقطع فيديو عرض على شبكة Fox التليفزيونية يتحدث فيه المحلل السابق فى الاستخبارات الأمريكية Scheuer عن أمله فى أن يقوم «بن لادن» بهجوم على الولايات المتحدة.

قد يكون فى هذا اعتماداً على الصحافة التقليدية دون الاتيان بأى أخبار من قبله ولكن بالقراءة المستمرة لتدويناته فهى تفتح الباب إلى تنويعة من المصادر التى تعبر عن اتجاهه الكاثوليكى - الثيوقراطى - الراديكالى - الليبرالى؛ مما ينتج عنه رؤية خاصة ومختلفة للعالم.

ومثال واضح على ذلك هو ما حدث بعد الانتخابات الإيرانية، حيث أصبح موقعه متابعا حيا ومنبرا لكل: الرسائل الإلكترونية، تحديثات «تويتر»، مقاطع الفيديو على موقع You Tube، الصور من طهران وبعضها كان يظهر على حول تأييده لـBill Clinton وسياسات التجارة الحرة بدأ فى العمل بشكل مستقل وبدأ التدوين. وقد استلهم من أسلوب Kaus وSullivan ولكنه اضاف من المحرر بداخله. فلم يقتصر الأمر على التعليق على الأخبار بل كشفها فى بعض الأحيان.



ومن اوائل هذه الأخبار التى فجرها هى واقعة التعليقات العنصرية التى أطلقها Trent Lott حول Strom Thurmond التى كتب عنها فى أكثر من تدوينة مما ساهم فى سقوط Lott. مع اتساع قاعدة القراء لمدونة TPM أصبح Marshall قادراً على جذب المعلنين وأصبح لديه طاقم من الموظفين يساعده فى الكشف عن المزيد من الأخبار. وأيضاً بدأ القراء بتزويده بمعلومات عن الأحداث السياسية فى مجتمعاتهم ومن خلال هذه الرسائل استطاع Marshall الكشف عن نمط اتبعته إدارة الرئيس «بوش» فى طرد المحامين الأمريكيين عبر البلاد. تدويناته الغاضبة ساعدت فى لفت انتباه الصحافة القومية للموضوع مما ساعده فى الحصول على جائزة George Polk.

اليوم موقع TPM من أكثر المواقع السياسية زيارة على شبكة الانترنت بالإضافة إلى مدونة John Marshall الذين يقومون بعمل وصلات لمواقع أخرى: يعملون بجد أمام حواسيبهم. أما Marshall الرجل الأربعينى صاحب الوجه المحايد فقد شرح لى انه يقضى معظم يومه فى قراءة الرسائل الإليكترونية. ويقول عنها: «تصلنا رسائل الكترونية من حيث الحجم والجودة أكثر مما يصل الى صحيفتى The New York Times وThe Washington Post». وهذا يتيح لنا فرصا للعمل أكثر من أى صحيفة بتعدد مصادرنا، التى فى أغلبها تكون مصادر محترفة ممن اعتادوا الاتصال بالمراسلين واعطاءهم المعلومات. معلوماتنا تأتى أيضاً من الطبقة الواسعة التى لا تعمل فى الصحافة السياسية لذا فإذا حدث اى شىء فى أى مكان أسمع عنه.

وعلى مر السنين ساعد Marshall فى تدريب العديد من المدونين الذين اخذ مهاراتهم إلى مؤسسات كبيرة، مثلاً Paul Kiel الذى قضى عامين فى TPM ثم عمل فى ProPublica وهى وحدة تحقيقات الكترونية تدعمها منح تقدر بالملايين من المستثمر العقارى Herbert Sandler وآخرين. ومنذ بداية ProPublica عام ٢٠٠٨ وهى تقوم بتحقيقات هائلة تكشف العديد من الفضائح، عن تورط الأطباء فى عمليات التعذيب حتى تلوث مياه الشرب من استكشاف الغاز الطبيعى. فى البداية قامت ProPublica بعمل تحقيقات مشتركة مع مجموعة من المؤسسات

الموقع مازال قيد البناء لتجميع ومنطقة كل هذه الأرقام والاحصاءات والرسوم البيانية وهذا ليس بالعمل السهل ولكنه تجربة مهمة ومنتظرة لتبين جدوى عمل تحقيقات إخبارية على الانترنت.

Kielهو مثال عن جيل جديد هجين بين الممارسة الصحفية التقليدية واستخدامات الانترنت المتعددة ومن هذا الجيل أيضاً Matthew Yglesias وهو مدون يبلغ من العمر ٢٨ عاماً بدأ التدوين وهو طالب فى «هارفارد»، ويكتب الآن عن السياسات الأمريكية فىThink Progress وهى مدونة «مركز للتقدم الأمريكى» Center for American Progress.وأيضاً Ross Douthatالذى بعد تخرجه من «هارفارد» فى سنة ٢٠٠٢ عمل فىThe Atlanticمحرراً ومدوناً والتحق هذا العام بصحيفة The New York Timesككاتب عمود. وعلى قائمة هذا الجيل أيضاً Ezra Kleinالذى بدأ التدوين حين كان طالبا فى جامعة كاليفورنيا «بسانت كروز»، وقام بتطوير خبرته فى مجال الرعاية الصحية مما أبهر محررى The Washington Post وعينوه ليدون على موقع الجريدة. «الشرح تخطى أهمية التعليق» وفقاً لما يقوله Kleinالذى يبلغ من العمر ٢٥ سنة.

أصبح الانترنت الآن منبرا لكل الأمريكيين من مختلف الخلفيات والأعمار الذين تجول بخواطرهم الكثير من الأفكار ولكن لا يجدون قناة لبث هذه الأفكار؛ مثال على هذا Marcy Wheeler التى



تعيش فى «آن اربور» فى «ميشيغان» الحاصلة على شهادة الدكتوراه فى الأدب المقارن وتعمل مستشاراً فى صناعة المحركات وقد بدأت التدوين فى عام ٢٠٠٤. بدأت تدويناتها فى جذب الانتباه على مدونتها عن Valerie Plame leak case، وفى بداية عام ٢٠٠٧ قامت بعمل تدوين حى ومباشر لمحاكمة Lewis Libby. وفى وقت لاحق من نفس العام بعد ان تركت عملها كاستشارية بدأت فى العمل بالتدوين بدوام كامل لصالح مدونة FireDogLake وهى مدونة يسارية جماعية، وهى تركز الآن على قضايا التعذيب والمراقبة للاتصالات دون إذن، وأزمة صناعة المحركات. لقد سمعت عن Wheeler فى ابريل الماضى حين ظهر اسمها فى مقال تصدر الصفحة الأولى فى جريدة The New York Times عن صدور مذكرة عن أساليب الاستجواب فى ولاية الرئيس «بوش». فمن خلال قراءة متأنية للوثائق استطاعت Wheeler استخلاص أن «خالد شيخ محمد» قد تم تعذيبه بطريقة waterboarding ١٨٣ مرة فى شهر واحد. ونشرت هذا الكشف صحيفة The Huffington Post ونقلته عنها The Times.

«ادعاء ان عملنا هو عمل طفيلى هو مهزلة. هناك الكثير من العمل الجاد والأصلى فى عالم التدوين. نصف الصحفيين الآن يرجعون إلى الفضاء التدوينى عند كتابة قصة. وفى نفس الوقت يسعدنى أن اعترف أننى لازلت اعتمد على الصحفيين. فلا يمكنك الحديث عن التعذيب دون الحديث مع Jane Mayer من The New Yorker»، هذا ما قالته لى Wheeler فى حديث تليفونى، كما مدحت كلا من Dana Priest وJoby Warrick من The Washington Post، وJames Risen وDouglas Jehl من The New York Times. «من الأفضل الحديث عن علاقة تكاملية بدلاً من الحديث عن علاقة طفيلية»، وأضافت أن: «أكثر ما يزعج المدونين هو الفصل الذى يقوم به الصحفيون ومحاولة الحفاظ على الوضع الحالى دون تطويره او الاستفادة منه».

وعلى العكس أثبت الفضاء التدوينى قدرته على اجتذاب المتخصصين فى مختلف المجالات الذين لا تتوفر لهم فرصة الوصول الى افتتاحيات الصحف الكبرى؛ ومثال على هذا هو Juan Cole الباحث فى شئون الشرق الأوسط بجامعة «ميشيغان» الذى قام فى مدونته Informed Comment بتقديم تحليل دقيق لكل التطورات الحادثة فى العراق وإيران الآن أكثر من معظم المراسلين الموجودين هناك فعلاً. اليوم، بإمكانك ان تجد معلقين خبراء تقريباً فى كل المجالات على الانترنت. فمثلاً للحصول على رأى حول مشاكل الرعاية الصحية فى أمريكا تقرأ مدونة KevinMD لكاتبها Kevin Pho. ولنظرة واقعية ومتجددة على أحوال التعليم فى مدونة joannejacobs.com. وللحديث عن سياسات الدواء مدونة The Reality-Based Community للبروفيسور Mark Kleiman فى جامعة «كاليفورنيا».

بعيداً عن هذه المجهودات الفردية، فلقد فتح الانترنت المجال للحديث عن المواضيع المسكوت عنها مثل سياسات الولايات المتحدة الأمريكية الداخلية تجاه إسرائيل؛ كل النشاطات التى تقوم بها الجماعات المساندة لإسرائيل مثل AIPAC كانت مسكوتا عنها خوفاً من إتهام من يتناولها بمعاداة السامية أو معاداة إسرائيل. اليوم الانترنت يعج بأخبار وتحليلات وآراء حول العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية. Rob Browne - طبيب الأسنان الذى يعيش فى «لونغ آيلند» - يتابع كل التشريعات التى تصدر من الكونجرس بخصوص إسرائيل على مدونته اليسارية الليبرالية Daily Kos. J.M Rosenberg أحد العاملين السابقين فى AIPAC وانشق عنهم، يشرح كل نشاطات اللوبى الاسرائيلى على مدونة Talking Points Memo. وفى المقابل هناك كتيبة من المدافعين عن إسرائيل من أمثال Ron Kampeas وMichael Goldfarb المحرر لصحيفة The Weekly Standard الإلكترونية، والصحفى والمدون المهم والأكثر تأثيراً فى الأمور الخاصة بإسرائيل Jeffrey Goldberg.

والطرفان يتسلحان بالمعلومات اللانهائية الموجودة على الإنترنت؛ فيضرب المدون Philip Weiss صاحب مدونة Mondoweiss «لم يكن باستطاعتك الحصول على جريدة هاآرتز الإسرائيلية سوى عن طريق Hotaling,s. أما الآن فيمكننى الحصول على كل الصحافة الإسرائيلية والعربية الكترونياً».

Weiss هو احد الذين يناضلون وعانوا لسنوات طويلة من إحباط صوتهم فى الوصول لقراء المجلات والجرائد ولكن البديل الإليكترونى من خلال مدونته أتاح له الفرصة لجمع حوالى ٨٠٠٠ دولار من تبرعات القراء والسفر فى قافلة مناهضة للحرب إلى غزة؛ وقام بعمل مجموعة تقارير عن أوضاع من قابلهم من طلبة وعاملين بمجال الإغاثة ومسئولين فى حركة حماس.

حتى الأحداث التى تتصدر عناوين الأخبار هذه الأيام فالإنترنت قادر على متابعتها بالكشف والتحليل؛ ومثال على ذلك عند احتدام أزمة الرهونات العقارية فى أواسط عام ٢٠٠٧؛ هرع الصحفيون إلى مدونات يكتبها اقتصاديون مخضرمون ذوو خبرة واسعة فى المجال ليستفهموا عن ماهية الأزمة، ومنها: مدونة Calculated risk لصاحبها Tanta، ومدونة Naked Capitalism التى تحدث فيها Yves Smith عن مسائل تتعلق بصناعة الخدمات المالية ومشاكلها، ومدونة Grasping Reality with Both Hands التى تناول فيها البروفيسور Brad Delong بجامعة كاليفورنيا ببيركلى: الأزمة الاقتصادية وقدم تحليلاً دقيقاً عن السياسات الاقتصادية.

عند قيامى بالأبحاث اللازمة لكتابة هذا المقال صادفت الكثير من المواد المكتوبة عن العلاقة بين وول ستريت وواشنطن، مثل التحقيقات التى يقوم بها Ryan Grim وتنشر على موقع صحيفة Huffington Post التى تتميز بتحقيقاتها المثيرة والتى عادة ما يكون لها صدى واسع لدى القراء خاصة فيما يخص المشاهير؛ ولكن مكتبهم الجاد فى واشنطن يضم ٧ محررين متميزين منهم: Dan Froomkin الذى انضم للجريدة بعد إنهاء عقده مع Washington Post بالإضافة إلى Grim، وعمله اللافت فى تغطية أخبار الكونجرس والمعارك الضارية بين البنوك، شركات البطاقات الائتمانية، وشركات الرهونات العقارية. وحتى أنه نشر ملاحظات السيناتور Dick Durbin عن تحكم البنوك فى أمور الكونجرس، وهى الملاحظات التى أهمل تغطيتها الإعلام المقروء، حيث علق السيناتور قائلاً: «لم يكن احد ليصدق أن البنوك فى ذروة الأزمة التى خلقتها بنفسها كان سيكون للوبى الخاص بها كل هذا التأثيرفى Capitol Hill؛ أنهم بصراحة كمن يمتلكون المكان». ولكن بعد كتابات Grim بعدة أسابيع؛ كتب Frank Rich عن نفس الموضوع فى عموده فى صحيفة Times. وتبنت Arianna Huffington الكتابة عن هذا الموضوع المهم فى مدونتها تحت عناوين ساخنة، مثل: «لماذا يعامل أصحاب البنوك كالملوك؟»، و«مصالح البنوك هى ما يحرك الكونجرس!!».

على الجانب الآخر كانت تغطية الصحافة المقروءة للأزمة الاقتصادية معالجة مخففة، وعرضية، ويتم تحييدها من قبل رجال الأعمال أصحاب المصالح والمتحدثين باسمهم وهو أمر يضطر الصحفيون للرضوخ إليه تحت قواعد المهنية. ولكن هناك استثناءات مثل مجموعة التقارير التى كتبها Stephang Gretchen Morgenson Labaton ونشرت فى صحيفة Wall Street Journal.

ولكن المدونين تحرروا من قيود المهنية والحيادية التى تفرض عليهم شكلا لطرح القضايا؛ بل أصبح المدونون يعبرون عن آرائهم واتجاهاتهم السياسية؛ مما جعل محيط التدوين محيطا جاذبا

الصحف التى لم تدرك أننا نعيش فى عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين

المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة). هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية إلى وسائل أكثر سرعة. وأكثر ديناميكية



وحيا. وهذا يتجلى فى جذب هذا المحيط لأشخاص من خارجه؛ Glenn Greenwald المحامى ومحامى الادعاء السابق هو حديث العهد بالتدوين فقد بدأه فى ديسمبر ٢٠٠٥؛ ولكنه سرعان ما تبوأ المكانة والقيادة بمقالاته اليومية الطويلة التى تقدم تحليلاً وافياً للأحداث مما جعله من قادة الرأى غير الرسميين.



أهم القضايا التى طرحها Greenwald وأكثرها شراسة هى هجومه الضارى على إدارة الرئيس بوش فيما يخص المراقبة بدون تصاريح؛ وأحدث هذه القضايا هو حديثه عن تأثير Goldman Sachs على إدارة الرئيس أوباما. كما هاجم Jeffrey Rosen ورفضه لتولى Sonia Sotomayor رئاسة المحكمة العليا بالولايات المتحدة. كما هاجم الصحافة القومية ككل لإصرارها على استخدام التلطيف اللغوى euphemism عند تناول مسائل التعذيب؛ وفى هذه المسألة كتب:

«فى ظل إصرار وسائل الإعلام الرائدة فى عدم تسمية ممارسات إدارة بوش «بالتعذيب» على الرغم من موت أكثر من ١٠٠ معتقل، وعدم وصف الوسائل المستخدمة فى «غوانتنمو» على انها تعذيب ولكن عند استخدامها فى بلدان أخرى تحرص هذه الإدارة فى وضعها تحت بند «التعذيب» وفضح هذه الممارسات إعلامياً. وهذا يبين الكثير عن صحفيى هذه الأيام.»

على الرغم من أهمية تدوينات Greenwald إلا أنها تعيبها بعض الأمور المتعلقة بالجرعة الايدولوجية المبالغ فيها بكتاباته والتى غالباً ما تفقدنا القدرة على متابعة مقصده فى وسط متاهة التنظير. مثل موقفه المناهض لرفض الرئيس أوباما نشر صور التعذيب الأخيرة من «غوانتنمو»، فمع وجود منطق لموقفه إلا أن موقفه يغفل الكثير من الاعتبارات العملية للعبة السياسة والتى يجب أن يتقيد بها لاعبوها.

ولكن مشكلة التدوين «غير المحايد» أو المعبر عن آراء أصحابه بوضوح أنه جعل محيط التدوين عبارة عن سلسلة من الوصلات من مدونة لأخرى وبين مجموعة من القراء والكتاب؛ وهذا وفقاً لدراسة قام بها Wasik: أن ٨٥٪ من وصلات المدونات تكون لمدونات تعبر عن نفس الآراء السياسية وتقريباً دون أى احترام للمدونات التى تقف على الجانب الآخر من موقفهم السياسى: مما يؤدى بالتأكيد إلى خلق وعى مفلتر مسبقاً وتدعمه معلومات منتقاة وتعرض جانب واحدا من الحقيقة.

على الرغم من وجود أصوات كثيرة تحاول التعبير عن آرائها؛ تواجه هذه الأصوات نوعا آخر من الفلترة وهو مسألة الأولويات، فمديرو المواقع يحرصون على ظهور الأخبار المثيرة والحسية. فمثلاً على الرغم من العمل الرائع الذى قام به Ryan Grimuk عن حقيقة العلاقة بين وول ستريت وواشنطن إلا أن خبر مثل وجود صورة Lindsay Lohan عارية الصدر على تويتر سيأخذ حيزا وأهمية أكبر على موقع Huffington Post.

بالإضافة إلى كل هذا يعانى كتاب الإنترنت من مشكلة الإيقاع السريع للعمل، الذى يفرض عليهم سرعة التفكير والكتابة وقصر التدوينات مما لا يتيح لهم الوقت للعمل على مشاريع أكبر، فكما يقول Jacob Weisberg المحرر السابق لموقع Slate: «العقبة الوحيدة التى لم نتخطها بعد هى كيفية ممارسة الشكل الصحفى المفصل اليكترونياً... القراء لا يحبون قراءة مقالات طويلة على الإنترنت» وهو ما دفع خليفته David Plotz إلى منح فرصة لكل كاتب فى الموقع مدتها ٦ أسابيع للعمل على مشاريع أكبر.

ولكن كل ما سبق لا ينفى ان الانترنت لا يزال مرتعاً للشائعات، والحقائق المشوهة، والأخبار الملفقة. وأكبر دليل على ذلك هى الانتخابات الرئاسية الأخيرة، فالمدونات اليسارية أشاعت أن «سارة بالين» قد ادعت الحمل لتساعد ابنتها وتجمل موقفها، والمدونات اليمينية ادعت أن الرئيس أوباما زور شهادة ميلاده وأنه لم يكن مواطناً أمريكياً. وكذا ما حدث وقت الانتخابات الإيرانية الأخيرة حيث اختلطت الرسائل الاليكترونية والفيديوهات وتحديثات «تويتر» الحقيقية بالملفقة مما احتاج إلى خبراء لتدقيق هذه المصادر ليتابعها متصفحو الإنترنت.

إذن الإنترنت هو بمثابة حاضنة لكل هذه التجارب المثيرة، فموقع Youtube يقدم نصائح عن عمل التقارير التليفزيونية وكيفية تغطية الأخبار العالمية؛ كما قامت Huffington Post بعمل صندوق لتمويل الأبحاث الصحفية. كما قامت GlobalPost بالتنسيق مع عشرات من المراسلين المستقلين لإيجاد منافذ لنشر عملهم. ومواقع مثل Minn Post فى مينيابولس وVoice فى سان دييغو يختبرون هل من الممكن القيام بخدمات metro reporting اليكترونياً. ومن التطورات الجديدة أيضاً هو القسم المخصص فى The Daily Beast لتدقيق الكتب وتحريرها؛ وكذا وحدة المناظرات المرئية على bloggingheads.tv، وتجمع مدونات المحافظين NweMajority.com الذى أنشأه David Frum بعد انفصاله عن National Review.



كل هذه المبادرات مجتمعة تدل بشكل حقيقى على وجود تغيير حقيقى فى صناعة الخبر حول العالم، كما أوضح مركز دراسات «بيو» للتميز الصحفى فى تقريره لعام ٢٠٠٩ عن «دولة الأخبار»، ما يلى:

إن الدفة تتحول من يد المؤسسات الصحفية إلى ناحية الصحافة الفردية، من خلال البحث والرسائل الاليكترونية والمدونات والإعلام الاجتماعى وغيره الكثير.. وهذا دليله ازدياد طلب المستهلك على صحافة الأفراد بدلاً من الماركة المسجلة للمؤسسات الصحفية. ومثال على هذا تجربة GlobalPost التى تعتمد فى الأساس على مراسلين ومصورين مستقلين.

وفى مقارنة أخرى قدمها باحث فى علوم الإنترنت والبروفيسور فى جامعة نيويورك Clay Shirky قال أن: ما يحدث الآن شبيه لما حدث عندما ابتكرت الصحافة المطبوعة، وكيف أن وسائل نقل المعلومات التى كانت موجودة قبلها اندثرت وأن هذه النقلة صاحبها الكثير من الشك وعدم التأكد؛ ويمكن رؤية المسألة من زاوية أخرى فكما ساعد اختراع الطباعة على كسر القيد الذى فرضته الكنيسة على أوروبا فى العصور الوسطى؛ فانتشار الإنترنت والصحافة فى شكلها الجديد قد يحررنا من سطوة وسائل الإعلام الجماهيرية، وما سيحدثه ذلك من آثار على عملية الديمقراطية والتخلص من المركزية.

بالطبع الوسائل التقليدية لنقل الخبار مازالت قادرة على إعلام الناس ولكن هل ستقدر على التكيف مع التغير السريع الحادث فى عالم صناعة الأخبار؟ ومن سيدفع فى مقابل خدمات الأخبار والمعلومات فى المستقبل؟

ان كنا نتحدث عن الأخبار، فالمسألة فعلا محل شك، ولكن المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة)، هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية الى وسائل أكثر سرعة، وأكثر ديناميكية.، كما يشير بحث جامعة نيويورك، والذى يتفق مع دراسات أخرى ذات صلة، تشير كلها الى أن الصحف التى لم تدرك أن أننا نعيش فى عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين. كما تشير أيضا الى أنه لا يكفى أن يكون شباب الصحفيين فاهمين للآليات الجديدة، فالقائد فى المعركة لن يستطيع أن يقود جنودا يستخدمون أسلحة ليس لديه الخبرة الكافية بها، بمعنى أنه اذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من ادارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة. ■

إذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من إدارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة

محمد المهدى

منطق تاجر البندقية!!

■■ خيال الف ليلة وليلة وخيال (بوكاشيو) فى الايام العشرة. خيال ابى العلاء وخيال (دانتى) فى تصوير العالم الاخر. حى بن يقظان وقصة (روبنسون كروزو) أو رحلات (جاليفر). خيال سرفانتس فى دون كيشوت. كليلة ودمنة وامثال الشرق والغرب. وعندما جاء نابليون الى مصر عاد ومعه (زينب). وعندما دار الرحالة الفرنسى (بوجنفيل) حول العالم اصطحب معه شابا من جزيرة تاهيتى الى باريس. والامثلة كثيرة حول خيال الشرق وزمان رومانتيكية الغرب.

وتساءل اهل الغرب من اصحاب دعوة العودة الى الطبيعة فى رحلاتهم الشرقية

هل يتم الحوار؟ هل ينجح اللقاء؟.

تساؤل يثير قضية اكبر. الفارق بين زمان رحالة غربى وزمان رحالة شرقى. الفارق بين زمان وظروف رحلات جماعية شرقية، وزمان ظروف رحلات جماعية غربية، او بمثال واضح الفارق بين رحلات العرب الكشفية ورحلات الغرب الباحثة عن طريق الى التوابل الشرقية. الفارق بين خروج الجماعة العربية ودخولها الأندلس، وبين خروج الجماعة البرتغالية والاسبانية ودخولها جزر الهند الشرقية والغربية. وأرجو أن نتقبل المقابلة بهدوء الى حين، حتى نحسن الاجابة على تساؤل طرحته الاجيال السابقة ومازال تطرحه الاجيال الجديدة..

هل كان العرب فى اسبانيا محتلين؟

دخلت الجماعة العربية الى اسبانيا بعقيدة. ونعبر على عدة قرون فنرى انها كغيرها فى دمشق وبغداد والقاهرة انتهت الى سلطة فئة مهزوزة العقيدة او شكلية العقيدة. انفصلت العقيدة عن السلطة فى جوهرها الاخلاقى وصارت نوعا من المصالح المشتركة بين الطرفين او مايسمى صاحب الدين وصاحب الدولة. انفصال جعل الدولة لا اخلاقية والدين سلبيا وشكليا و(بركة) فى احسن الاحوال. الخليفة المعتز العباسى ٢٥٥هـ يجر من رجله ويضرب ويهان ويحبس حتى يموت جوعا وعطشا على يد وزرائه الاتراك.

والخليفة المتقى ٣٣٣هـ يحاول الهرب من بغداد ثم يعود فيقبض عليه وتسمل عيناه ويصيح فيضربون الدفوف ثم تؤخذ منه البردة والقضيب والخاتم وتسلم الى المستكفى بالله رمزا لانتقال الخلافة اليه. ودخل احد الامراء بغداد فى ايام الخليفة القائم بأمر الله ٤٥٠ هـ، وسيطر على الدولة واكتفى من الخليفة العباسى بعمامته وعرشه وخلعته وارسلها للخليفة الفاطمى فى القاهرة رمزا للانتماء اليه. ولم تختلف صورة الاستهانة بالخليفة فى مصر الفاطمية والاندلس الاموية، عنها فى بغداد العباسية. واذا كنا الان نستمع الى الموسيقى العسكرية من اذاعة ما فنعرف ان انقلابا عسكريا قد حدث بصرف النظر عن نوعية انتماء السلطة، فان رمز الانقلاب فى زمان الخلافة الضعيفة هو الانتقال فى الاذان من (حى على الفلاح) الى (حى على خير العمل) أو العكس هو ذكر اسم خليفة دون اخر على المنابر. أو رفع العمامة من على رأسه وخلع البردة من على اكتافه. اما السلطة السياسية فهى للشاطر يحصلها بصرف النظر عن انتماءاته.



والملاحظ ان فصل الدين عن الدولة فى تاريخ اوروبا جاء مع توازن من مؤسسات ديموقراطية تبلورت بعد ثورات. مؤسسات جاءت لتعوض النقص الاخلاقى نتيجة فقدان قاعدة الدين بمفهومه الاخلاقى والاستعاضة عنه بقاعدة اخلاقية وضعية. اذن حكمت السلطة الدنيوية ببعض الضوابط مهما كان فيها من فرص التلاعب. بينما نجد ان انفصال الدين عن الدولة فى تاريخنا جاء دون تعويض من سلطة دنيوية رقابية على الحاكم والنتيجة واضحة. القاعدة الاخلاقية النابعة من عقيدة صادقة التى تمتع بها الحاكم ضاعت، وكانت تمثل سلطة الضبط الذاتى وجاءت السلطة الدنيوية شكلية منقولة دون جذور. ويكفى ان نقول انها بيد الحاكم ايضا. ونتيجة هذه النتيجة وهى الافتقار للنظام الاصيل، والافتقار ايضا للمنقول بشكل صحيح. افتقار لانتاج قواعد محلية جيدة أصيلة، وافتقار الى حسن استخدام الانتاج اوالصناعه المستوردة مهما كانت فخمة أو مكلفة. وكاننا امام طائرة او سيارة فخمة معقدة التركيب قد نحسن ركوبها وقيادتها ولكن لا نحسن اصلاحها عند العطل، فيظل خبراء شركة انتاجها يطاردوننا فى صورة استعطاف منا لهم.



وليس قولا جديدا ان نقول ان التواؤم مع الذات هو افضل ما يثمر به الانسان ثمرة أصيلة. نعود مثلا الى رحلات العرب ورحلات الغرب. رحلات العرب كانت تحمل احلام الفرد للكشف والبحث والثروة. وليس احلام الجماعة او سيطرة السلطة، او التوسع الاستعمارى، كما جاءت رحلات الغرب فى فترة التوسع القومى الاقتصادى والسياسى والعسكرى. ويعجب الكثيرون كيف ان الانجليزى لبق مهذب عند التعامل معه فرديا بينما هو صاحب سيرة سيئة فى وسط جماعته الاستعمارية. هذا هو الفارق بين الاحلام الفردية التى مهما اتسعت وصارت اطماعا تظل متواضعة، وبين احلام الجماعة بقيادة توسعية استعمارية.. قيادة لاترى بالفرد ولكن بالجملة..تسحق بالجملة وتتوسع على حساب الجملة.

واذا اردت مثالا عكسيا لحالة الانسان بين فرديته وجمعيته. تأمل حالة نجم المجتمع السياسى او الاجتماعى او حتى الفنى والفكرى. ترى سلوك هذا النجم وسط الجماعة التى يحتاجها لتوفر له النجومية بسيطا مهذبا مبتسما، ملوحا فى حب،بينما ينقلب عند لقائه بأحد أفراد المعجبين به على انفراد متجهما،متعجلا، ساخطا. ويعجب المعجبون من امر تأثير قيصر أو نابليون او هتلر او غيرهم ممن سحروا الجماهير بينما كانت سيرتهم الشخصية منفرة تسحق فى تاريخها الحشرات الفردية.

رحلات العرب كانت من نوع الطموحات الفردية بما فيها من نواقص النفس البشرية. بينما كانت رحلات أهل اوروبا بحكم مرحلتها التاريخية ذات نزعة جماعية دموية. رحلات العرب خلا بعضها من بعض الضبط الاخلاقى ولكن بحكم ظروفها التاريخية خلت من روح السيطرة الاستعمارية. اما رحلات اوروبا فقد خلت واكرر بحكم خروجها فى مرحلة ظهور القوميات الاوروبية بجذورها السابقة من فصل بين الدين والدولة، وتولى للسلطة الدنيوية القيادة دون ضوابط اخلاقية مع طموحات الحكام.. خلت هذه الرحلات من اية قاعدة اخلاقية وانتهت الى نهايتها المحتومة وهى السيطرة الاستعمارية.

ولا ابالغ اذا قلت اننا لو خرجنا الان باخلاقياتنا الى دولة استعمارية لفعلنا كما فعل الاستعمار بنا. غياب الضوابط الاخلاقية الدينية للجماعة وغياب ضمير الحاكم. ورغبة السلطة فى التوسع ستؤدى الى نفس النتيجة او نفس المستوى من الانحطاط الذى وصل اليه الاستعمار فى التعامل معنا عندما خرج كجماعة بيدها السلاح تقوده سلطة تفتقرلقاعدة اخلاقية. وقد يسأل سائل.. ولكن الاستعمار الذى تتكلم عنه كان عاتيا ظالما ساحقا فى فترة كان البرلمان الانجليزى مثلا فى قمة سلطاته وسطوة ديموقراطيته؟

بمعنى انه كان يفتقر حقا الى ضبط العقيدة، وان توافرت له سلطة الضبط الدنيوى..

**إذا اردت تأمل جزئيات النسيج التاريخى
فاستخدم منظارا مكبرا وتأمل الفرق بين رحلة مكتشف رحالة
شرقى ورحلة مكتشف رحالة غربى**

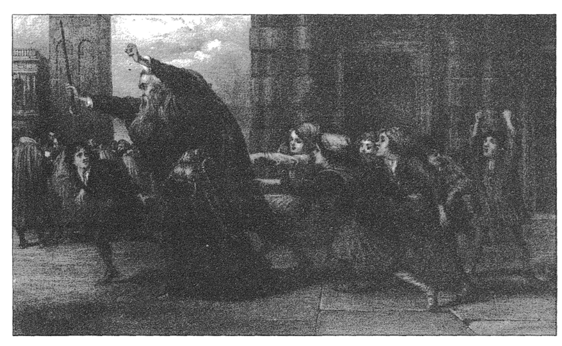
THE MERCHANT of VENICE

اجيب أن هذا التساؤل يؤيد القضية التى اطرحها. اخلاقيات الجماعة مالم تضبط بقاعدة عقائدية فانها تقع فى هذة الازدواجية. ضوابط ديمقراطية او مجلس (سناتو) دافع عنه اليونانى والرومانى فى الحضارات القديمة. وبرلمان او جمعية وطنية يدافع عنه الاوروبى فى حضاراته الحديثة. ويردد قولة (فولتير) الشهيرة.. انه على استعداد لدفع حياته ثمنا للدفاع عن حقك فى ابداء رأيك حتى لو اختلفت معه.

ضوابط ديموقراطية داخلية تخص اليونانى والرومانى والانجليزى والفرنسى..الخ. ولكن لا تنطبق على شعوب الارض من البرابرة. واذا عدنا الى التساؤل عن الاندلس سنلاحظ ان بتاريخها اربعة قرون عجاف اكلت اربعة قرون خصبة. من القرن الاول الهجرى الى القرن الخامس الهجرى فترة ازدهار، قابلتها والى اواخر القرن التاسع الهجرى فترة استئثار من سلطة دنيوية، او انفصال بين حاكم ومحكوم، او صراع السلطات الدنيوية فيما يعرف بمرحلة (ملوك الطوائف). ضاعت الفرصة لتحويل المحكوم الى حاكم بمنطق واسع لا يحصر السلطة فى طوائف دون غيرها. اربعة قرون من الفصل بين الدين والدولة، أو من احتكار للدين والدولة كانت كفيلة باتاحة الفرصة للطرف الاخر للنمو بمنطق ضيق. ثم اكتساح للعرب والمولدين (من العرب والاسبان) ومن يناصرهم على حد سواء وبصورة بشعة.



ونستطيع ان نتمثل نفسية المسيحى الاسبانى انذاك فى صورة الرجل الذى يأمل للحصول على قصر فى الجنة بقدر ما يسيل من دماء المسلمين الكفار وهى حالة وصل اليها الحكام الاسبان لفصلهم ايضا بين الدين والدولة



وعلى صورة تبدو عكسية تماما. تبدو وكأنها جمع بين العقيدة والسلطة الحاكمة. لقد وظفت الدولة التي تسعى الى التوسع الدنيوى كل مشاعر الحماس الدينى عند الجماعات المسيحية بدعوى انها مكلفة بأمر (الهى) بأمور الدين والدنيا. ويكشف دخول قوات (نابليون) الى اسبانيا فى فترة متأخرة حاملة لواء الفصل الصريح بين الدين والدولة بل احتقار شأن الدين الى جانب عزة الدولة القومية.يكشف عن هذه الحالة العجيبة من التناقض. دخلت قوات نابليون بعد الغاء محاكم التفتيش (١٨٠٨) التى تخصصت فى مطاردة وتعذيب بقايا العرب والمولدين ومن يتعاطف معهم، الى احد الاديرة فى مدريد ووجدت فى كهوف تحت الارض ادوات رهيبة للتعذيب والتمزيق والسحق والجنون..امسكوا برهبان الدير وببساطة سحقوهم بأدوات التعذيب..

كانت علاقة الدين بالدولة. او الملك والكنيسة ايام محاكم التفتيش نوعا من تبادل المصالح المشتركة. فلما طلقت الدولة الكنيسة طلاقا بائنا فى الثورة الفرنسية، الغيت محاكم التفتيش،وهوجمت الاديرة استبيحت دماء رجال الكنيسة.

يقولون أن دخول العرب الى اسبانيا صورة من صور الدخول الجماعى، الذى يبدو فى صورة استعمارية.او صور من صور الرحلة الجماعية يقابلها البعض برحلة الجماعات الاستعمارية فى قرون الاستعمار الاوروبى الشهيرة.. الخامس عشر والسادس عشر.. مشابهة ظالمة دخول العرب إلى اسبانيا كان بقاعدة عقائدية اخلاقية ارادت الاستقرار والاندماج والادماج. يتولى الصالح امور الجماعة دون تمييز بين العربى والاسبانى والمولد، وشاءت السلطة الدنيوية ان تضيع هذه الفرصة سواء من جانب العرب أو من جانب الاسبان.

أما دخول الجماعات الاوروبية إلى مشرق العالم ومغربه فكان صريحا فى استغلاله من اللحظة الأولى. لم ترد فكرة الاندماج او الادماج، وان وردت فكانت بتمييز بين الوافد والمقيم.

وإذا اردت تأمل جزئيات النسيج التاريخى فاستخدم منظارا مكبرا وتأمل الفرق بين رحلة مكتشف رحالة شرقى ورحلة مكتشف رحالة غربى، وتشاء تركيبة التاريخ المنطقية ان تجعل خروج البرتغال والاسبان رواد الاستعمار فى اوروبا فى فترة خروج العرب من اسبانيا. شهد (كرستوفر كولمبس) تسليم عبد الله الاحمر مفاتيح مدينة غرناطة للملك (فردناند) والملكة (ايزابيلا) فى عام ١٤٩٢ حاولوا اعطاء هذا الخروج.. خروجهم إلى الشرق للكشوف البحرية وخروج العرب من اسبانيا قالبا دينيا بتصريح ومباركة من البابا، ولكن النوايا الحقيقية كانت واضحة.



وتعال نتأمل ما دار فى مسرحية (تاجر البندقية) لشكسبير. تاجر البندقية هو انطونيو الثرى النبيل الكريم. اثرى من تجارة الشرق سفنه التجارية موزعة بين طرابلس وجزر الهند، والمكسيك وانجلترا مثال للرحالة الاول خرج يبحث عن ثروة التوابل والاعشاب فى الشرق، وكان المماليك فى مصر حلقة الوصل.

(هنرى الملاح) اول امير برتغالى يجوب المحيط الاطلسى بحثا عن طريق الوصول للهند بعيدا عن المماليك فى الطريق يحلم بالعثور على دولة القديس يوحنا المسيحية الخيالية. قيل انها فى افريقيا او هى اثيوبيا وقيل انها اسيا. دوخت الرحالة الاوروبيين ولم تكن إلا حجة وهى (بركة) دينية او يباركون بها رحلاتهم لصبغ اهداف سفنهم.

انطونيو او تاجر البندقية كان أعقل اكتفى بانتظار سفنه العائدة بثروة الشرق. هنا تبدأ المشكلة مع (شايلوك) المرابى اليهودى الشهير.

شايلوك يضيق به ويفضح اخلاقياته الاستغلالية التى لاتتفق مع مسيحيته النقية. وحينما يضطر انطونيو ان يلجأ إلى شايلوك ليقترض منه انقاذا لصديق وقع فى ضائقة يشترط اليهودى ان يأخذ من لحمه رطلا من موضع الصدر إذا لم يسدد فى موعده.. ويوافق تتأخر سفنه ويقال انها غرقت ضاعت ثروة الشرق، واصبح مهددا بانتقام اليهودى.

اختلف التاجر مع اليهودى كشف اليهودى عن عفونته ووجدها فرصة لفضح نظام التاجر المستغل فيقول (واى خطأ حتى اخشى الحساب؟ ان بينكم عديدا من العبيد الذين اشتريتموهم بالمال وسخرتموهم فى افظع الاعمال واخسها كأنهم حميركم، او بغالكم أو كلابكم لا لشىء إلا لانكم اشتريتموهم بالمال) وتنتهى المسرحية باحباط الاعيب اليهودى الخبيث وتعود سفن التاجر المسيحى النبيل ليسعد الجميع حتى ابنة اليهودى فقد تحولت إلى المسيحية وتزوجت حبيبها المسيحى.

مسرحية تاجر البندقية لها جانب يخصنا بصرف النظر عن قيمتها الدرامية الشكسبيرية اخلاقيات السيد التاجر الذى جمع بين صورة المسيحى الطيب ورغبة الاثراء الاخرين وعندما حمل الزنوج لأول مرة إلى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج هم ارقاء وبشر فى وقت واحد وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم إلى مسيحيين اما

المسلمون فيجب ان يقهروا ثم يقتلوا، وهم ايضا سلعة وثروة. وفى عام ١٤٤٤ حملت السفن إلى البرتغال أول شحنة كبيرة من العبيد مائتين وثلاثة وخمسين عبدا، كان نصيب الامير (هنرى الملاح) منها ستة واربعين كان مسيحيا كريما بمنطق السيد النبيل تاجر البندقية فلم يقبل استرقاقهم لذلك اهداهم لاصدقائه.



وفى عام ١٤٤٠م جاء للبابا (اوجينيوس) الرحالة (نيكولودى كونتى) الذى جاب الشرق وحمل ثروة التوابل. احتفى البابا بالرحالة احتفاء عظيما، فقد كان شرابه المفضل هو القرفة الساخنة، بينما كان الرحالة مهموما.. لقد اضطر فى مصر الى اعتناق الإسلام لينقذ نفسه واسرته، وجاء للبابا ليعترف ويطلب المغفرة.

والرحالة الشهير (الـ بوكيرك) حينما وصل إلى الحبشة وجد هناك عرضا يدعو البرتغال ان تتعاون لتحطيم سلطان مصر فى القاهرة، ثم تحطيم مدينة مكة، ووجد الاتفاق يحقق احلامه فى اختطاف رفات الرسول، والمساومة بها مع المسلمين للاستيلاء على فلسطين، وبدأت فكرة تحويل التجارة عن مصر لافقارها هذا الخيال الدينى المختلط بروائح التوابل او دافع الثروة، تبخر سريعا، ولن نصل إلى رحلة (ماجلان) حول العالم عام ١٥١٩ إلا واستقرت رائحة التوابل وابتلعت كل خيال دينى.. كان الشعار الذى منح الامبراطور البرتغالى

لـ (دلاكانو) الذى قدر له ان يعود ببقايا سفن ماجلان بعد مقتله فى الفلبين هو صورة كرة ارضية يرفعها ملكان من ملوك الشرق، يحمل كل منهما فى يده الاخرى غصنا من اغصان اشجار التوابل، بينما على الدرع عودان من القرفة وثلاث وحدات من جوزة الطيب، واثنتا عشرة حبة من حبوب القرنفل.

وكان حملة الاسهم الهولنديون اسبق من غيرهم ربح يصل إلى ٤٠٠٪ من تجارة التوابل وارتفع على يد الانجليز إلى ٦٥٪ من تجارة جوزة الطيب وإلى ٧٠٪ من الفلفل وإلى ٨٠٠٪ من تجارة البهار والقرنفل، وتحولت جمعية (الفلفليين) إلى نقابة عرفت بجمعية البقالين أو العطارين وصار محافظ لندن رئيسا لها، ونظم مهرجان (انتصار لندن) عام ١٦٧٨ على صورة مهرجان (باخوس) رب النبيذ اليونانى. يتقدم المهرجان تمثال على هيئة جمل يجلس فوقه غلام زنجى يتوسط سلتين فضيتين ملئتا بالفاكهة والتوابل، وقد اخذ الغلام ينثرها بين جموع المشاهدين، واشترك فى المهرجان ربة (الثروة) ورب (الطيوب) وانشد الجميع فى مرح قائلين:

بالقرفة والقرنفل والبهاء وغيرها من التوابل

نحن قد زرعنا فردوسا جديدا

دون ان نشعر بذنب من خطيئة ادم

وكان شرفا للملك (وليم) عام ١٦٨٩ ان يصير بعد ذلك رئيسا اعلى لجمعية البقالين.. او العطارين اصحاب الثروة.

وقد يقول متحمس اوروبى صاحب منطق محرج. كيف يحق لكم محاكمة الاستعمار وحالكم اسوأ منه فيما بينكم؟

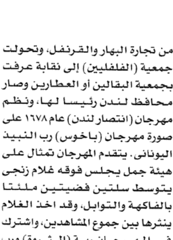
ان طول لسانكم ليس الا قصر ذيل.

وإذا قلت له ان المشكلة هى مشكلة السلطة قال لك.. وعليك ان تناضل لتحصل منها على حقك كما فعلنا، ان السبل واضحة ام التقليد الجيد كأهل اليابان، او تركيبة بجذور محلية أو تركيبة جديدة لن نسمع بها، اما الاخذ بكل الانظمة متلازمة بتلفيق فشىء لايفيد منه الا الانتهازى الذى يجد بهذه الوسيلة منطقا يبرر به الشىء ونقيضه حسب الحاجة.



هكذا اذن ضاعت تجربة الاندلس بفقدان الاصالة، وكان من الممكن ان تكون تجربة حضارية جديدة فى تاريخ البشرية. هكذا ايضا عمر منطق تاجر البندقية بازدواج شخصيته. واجهة دينية تعلن بها صلاحه مع سعى محموم لجمع الثروة على حساب الاخرين. افرغ الدين من محتواه الاخلاقى، وبالتالى وجد مصلحته مشتركة مع الدولة المستغلة. صار كل منهما يدافع عن الاخر من هذا المنطلق. ■

كتاب الزاوية

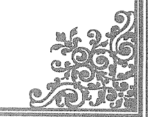


تقرير جولدستون (٢)

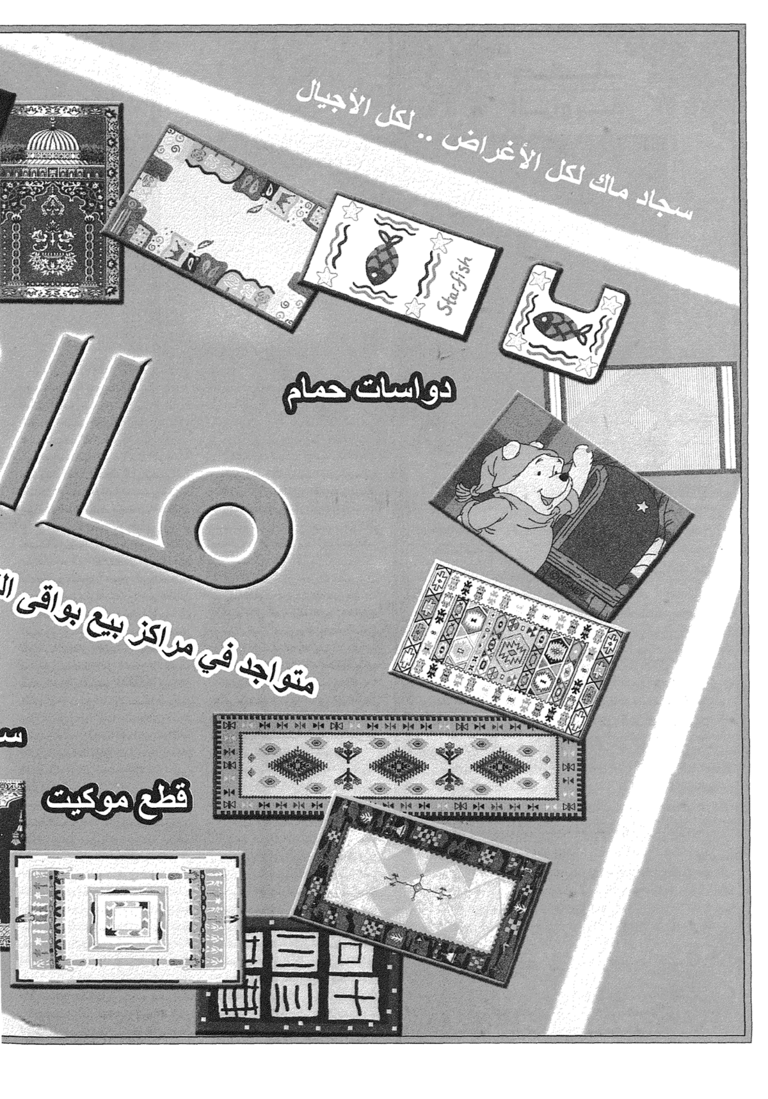
استندت البعثة فى أعمالها إلى تحليل مستقل ونزيه لمدى امتثال الأطراف لالتزاماتها بموجب قانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الإنسانى الدولى فى سياق النزاع الأخير فى غزة، وإلى معايير التحقيق الدولية التى وضعتها الأمم المتحدة.

٢٥ ـ وعلى هذا الأساس، حددت البعثة، بقدر ما سمحت به أفضل قدراتها، ما هى الوقائع التى ثبتت. وفى كثير من الحالات تبين لها أنه قد ارتُكبت أفعال تنطوى على مسؤولية جنائية فردية. وفى جميع هذه الحالات، قررت البعثة وجود معلومات كافية لإثبات العناصر الموضوعية للجرائم المعنية. وقد تمكنت البعثة أيضًا، فى جميع الحالات تقريبًا، من تحديد ما إذا كان يبدو أن الأفعال المعنية قد ارتُكبت عمدًا أو على نحو متهوِّر أو فى ظل معرفة أن العواقب التى نتجت كانت ستحدث فى السياق المعتاد للأحداث. وهكذا، أشارت البعثة فى كثير من الحالات إلى عناصر الخطأ ذات الصلة (ركن القصد الجنائى). وتُقدِّر البعثة تمام التقدير أهمية افتراض البراءة: فالاستنتاجات المقدَّمة فى التقرير لا تقوِّض العمل بهذا المبدأ. ولا تحاول الاستنتاجات تحديد هوية الأفراد المسؤولين عن ارتكاب الجرائم كما أنها لا تدعى أنها ترقى إلى مستوى البرهان الواجب التطبيق فى المحاكم الجنائية.

ومن أجل إتاحة الفرصة للأطراف لتقديم المعلومات الإضافية ذات الصلة وللإعراب عن موقفها والرد على الادعاءات، قدمت البعثة أيضًا قوائم شاملة بالأسئلة إلى حكومة إسرائيل وإلى السلطة الفلسطينية وإلى سلطات غزة قبل إتمام تحليلها ووضع استنتاجاتها. وتلقت البعثة ردودًا من السلطة الفلسطينية ومن سلطات غزة ولكن ليس من إسرائيل.

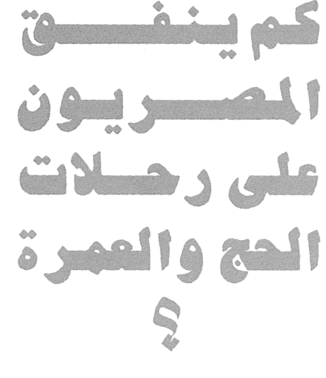





سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



BIENVENUE
سجاد أطفال
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



كم ينفق المصريون على رحلات الحج والعمرة ؟

الحج فريضة وركن من أركان الإسلام الخمسة، أما «العمرة» فهى كما يعرفها صاحب المعجم الوجيز «نسك كالحج ليس لها وقت معين ولا وقوف بعرفة». والفارق فى رأى كثير من الفقهاء بين «الحج» من ناحية و«العمرة» من ناحية أخرى هو فى كون الأولى فريضة من فرائض الإسلام الخمس، لا يصح إسلام المرء إلا بها - من استطاع إليها سبيلاً على عكس «العمرة» فهى شعيرة من الشعائر وسنة عن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بحيث لا إجبار عليها ولا إلزام، وإن كانت من الشعائر المحببة لوجدان كثير من المسلمين.

وبقدر هذه القيمة الوجدانية والعقائدية لفريضة «الحج» لدى أهل الأديان كافة والإحساس بالتطهر من الآثام والذنوب فإنها أيضا قد خلقت ملتقى اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً لأصحاب كل عقيدة أثناء هذا التجمع الحاشد، فيتعارفون، ويتبادلون الخبرات والتجارب كما يتبادلون المصالح بالبيع والشراء.

وبهذا المعنى تحولت هذه الأماكن إلى أسواق اقتصادية ومالية هائلة عبر الزمن واستقرت فيها أوضاع ومصالح البائعين والمشترين، ومن خلالها تتزاحم عمليات التجارة والتسويق، بدءاً من البضائع مروراً بالفنادق وأماكن إقامة «الحجيج» انتهاء بنفقات السفر والانتقالات وغيرها.

إذن من هذه الزاوية الاقتصادية المجردة، يمثل موسم «الحج» و«العمرة» إحدى وسائل العلاقات الاقتصادية والمالية بين الشعوب والأمم، ولكنها هذه المرة محكومة بغطاء دينى يجمع بين أهل كل عقيدة على حدة.

ولقد ظلت الأراضى الحجازية - وكذلك بقية الأماكن المقدسة لأهل الديانات الأخرى - أهم الأنشطة الاقتصادية لأهل هذه الأماكن، يعتمدون عليها فى معاشهم ويستندون إليها قبل غيرها فى استكمال مقومات حياتهم الاجتماعية مثل إقامة علاقات المصاهرة والزواج أو غيرها، تماماً كما يرتبط أهل المجتمعات الزراعية بموسم جنى المحصول لاستكمال مقومات حياتهم الاجتماعية. ولقرون وراء قرون، ظلت فريضة «الحج» وشعيرة «العمرة» لدى ملايين المسلمين فى بقاع الأراضى المترامية الأطراف فريضة دينية، وسنة نبوية تمارس دونما حسابات هنا وهناك، ودونما استثمار واستغلال سياسى يقوم به طرف هنا أو طرف هناك.



وتثير قضية مصروفات المصريين - أو غير المصريين - على رحلات «الحج والعمرة» مشكلات متعددة، سواء على المستوى العلمى والأكاديمى أو على المستوى السياسى والاجتماعى بقدر ما تثير مخاوف وهواجس جماعات وفئات اجتماعية وثقافية معينة.

ذلك أن هذا الموضوع برغم طابعه الدينى والعقائدى المرتبط بوجدان ومشاعر المصريين عموماً والمتدينين منهم على وجه الخصوص، فإنه علاوة على ذلك له أبعاد وجوانب اقتصادية ومالية مسكوت عنها منذ سنوات طويلة لاعتبارات عديدة، برغم الأزمات الاقتصادية التى تعيشها البلاد وتنعكس سلباً على مستوى معيشة الفقراء والفئات الوسطى تحديداً.

وما يدركه الكثير من المصريين وغير المصريين، أن موضوع «الحج والعمرة» بقدر عمق علاقته بالمشاعر الدينية بقدر ارتباطها بحركة أوسع نطاقاً من الناحية المالية والاقتصادية على الصعيد الإقليمى والدولى يطلق عليها «إعادة التدوير» Recycling ذلك أن مئات الملايين من الدولارات التى حصل عليها المصريون العاملون فى منطقة الخليج والمملكة السعودية قد عاد جزء كبير منها إلى اقتصاد المملكة السعودية فى صورة نفقات لزيارات «الحج والعمرة» التى قام بها عشرات الملايين من المصريين طوال نفس الحقبة النفطية (١٩٧٤م- ٢٠٠٨م)، ومن ثم فإن الحركة المالية والاقتصادية بين مصر والمملكة السعودية لم تكن ذات اتجاه واحد وإنما كانت فى إتجاهين متوازيين وإن كانا متناقضين ومتعاكسين.

وإذا كانت كثير من الدراسات الاقتصادية سواء من جانب المملكة السعودية أو الخبراء المصريين قد قدرت حجم المساعدات التى قدمتها المملكة السعودية إلى مصر فى صورها المتعددة (قروض - منح - مشروعات مشتركة - دعم عسكرى.. إلخ) خلال الفترة التى أعقبت هزيمة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م حتى قطع هذه العلاقات عام ١٩٧٩م ثم عودتها عام ١٩٨٦م إلى اليوم بحوالى ١٢ إلى ١٧ مليار دولار أمريكى، فإن أحداً لم يلتفت أو يرغب فى أن يلتفت إلى حجم الحركة المالية والاقتصادية العكسية التى ذهبت من مصر والمصريين إلى المملكة السعودية فى صورة أفواج من المعتمرين والحجاج خلال نفس الفترة.

نفقات الحج والعمرة خلال الـفـتـــرة (١٩٥٥ - ١٩٧٣)

بـرغم قدسية ممارسة المسلمين لفريضة «الحج» ووجدانية الحدث، فإن الله سبحانه وتعالى وتخفيفاً على عباده وضع شرط «الاستطاعة» كأساس لحساب المسلم على أدائه أو تقصيره لهذه الفريضة الدينية الأساسية. و«الاستطاعة» هنا تتخذ ركنين أساسيين هما:

- ركن مالى.
- ركن مادى وجسدى.

فتوافر هذين الركنين يلزم المسلم بأداء هذه الفريضة وسنة نبيه فى أداء شعيرة «العمرة».

و تاريخياً يمكن النظر إلى الأمر عبر أربع مراحل متمايزة ومتباينة وهى:

المرحلة الأولى: الممتدة منذ ظهور الدعوة المحمدية وحتى ما قبل عام ١٩١١م.

المرحلة الثانية: من عام ١٩١٨م وحتى عام ١٩٧٣م.

المرحلة الثالثة: من عام ١٩٧٤م حتى عام ١٩٨٤م.

المرحلة الرابعة: من عام ١٩٨٥م حتى اليوم.

ومعاييرنا فى التمييز بين هذه المراحل المختلفة أربعة عناصر متكاملة هى:

المعيار الأول: مدى توافر وتطور وسائل النقل والمواصلات.

المعيار الثانى: مقدار التكاليف المالية والأعباء المادية لأداء الفريضة الدينية.

المعيار الثالث: مدى توافر الاستقرار السياسى فى الأراضى الحجازية بما توفره من التجهيزات الإدارية والبنية اللوجيستية فى الأماكن المقدسة وخدمة زوار بيت الله الحرام.

المعيار الرابع: نظم التسجيل ورسوم دخول الأماكن الحجازية من حيث الإقامة أو القيود الكمية والنوعية والمالية.

فإذا تأملنا المرحلة الأولى: (منذ الدعوة المحمدية حتى عام ١٩١٠م): والتى تميزت بتدنى وسائل النقل والمواصلات، واعتماد أفواج «الحجيج» و«المعتمرين» على وسائل بدائية للسفر والترحال، كان أكثرها تقدما حتى ذلك الحين، السفن التى تنقل الحجاج القادمين من مصر ومنطقة المغرب العربى من ميناء السويس وميناء سفاجا أو بعض الموانئ البسيطة على ساحل البحر الأحمر، اجتيازاً لهذا البحر وصولاً إلى موانئ الأراضى الحجازية خصوصاً فى جدة.

أما قوافل الحجيج القادمين من الشام وبلاد الرافدين، فقد كانت تنتقل براً على ظهور الجمال وغيرها من الحيوانات لمدة شهور طويلة قاطعة الصحراء الشمالية والشمالية الشرقية للأراضى الحجازية وصولاً إلى «مكة المكرمة» و «المدينة المنورة».

ومن ثم فقد كان للأعباء الجسدية والمالية على هؤلاء الحجيج أثر فى تواضع أعدادهم ومن ثم تواضع حصيلة رسوم «الحج» و«العمرة» التى تحصل لصالح القائمين على هذه الأماكن المقدسة من القبائل الحجازية.

كما أدت عمليات السلب والنهب التى كانت تتعرض لها بعض قوافل الحجيج فى بعض السنوات التى تعرضت فيها البلاد إلى اضطرابات وصراعات بين القبائل (آل سعود - آل الرشيد - آل الحسين - آل غالب.. إلخ) إلى عدم انتظام مواسم الحج، وتقلب حصيلة رسوم «الحج»، وكذا تواضع كمية «الأضحية» وسوق التجارة الذى كان يعد المصدر الرئيسى لمعيشة القبائل الحجازية عموماً، والقبائل ذات الصلة المباشرة بالأماكن المقدسة «مكة» و«المدينة» خصوصاً.

وبرغم هذه الظروف غير المستقرة فقد ظل الحجيج المصريون والأتراك هم الأكثر عدداً من ناحية والأكثر إنفاقاً فى مواسم «الحج» طوال هذه المرحلة، لأسباب موضوعية بعضها يعود لطبيعة الحجاج المصريين والأتراك الذين كان ينتمى معظمهم إلى أبناء الطبقات الوسطى وكبار ملاك الأراضى والأعيان الذين تتوافر لديهم فوائض مالية تمكنهم من أداء هذه الفريضة الإسلامية من ناحية، وبعضها الآخر بسبب تقدم مصر وتركيا نسبياً مقارنة ببقية شعوب العالم الإسلامى امتداد من إندونيسيا والهند شرقاً انتهاء بمراكش غرباً والسودان وبعض الجماعات الإسلامية فى أفريقيا جنوباً.

أما المرحلة الثانية (١٩١٠م- ١٩٧٣م): فقد تميزت بعدة تطورات إيجابية فى هذا المجال لعل أولها، ذلك التطور السريع فى وسائل النقل والمواصلات، حيث بدأ المهندس الألمانى «ميسنر» منذ عام ١٩٠٥م تحت تصور إستراتيجى للإمبراطورية الألمانية الصاعدة - بالتواجد فى هذه المنطقة ببناء ومد أول خط سكة حديد يمتد من دمشق شمالاً مروراً بفلسطين انتهاء «بمكة المكرمة» وانتهى من بناء هذا الخط الاستراتيجى عام ١٩١٠م وأطلق عليه «خط سكة حديد الحجاز» ولم يتوقف الرجل وطموحاته عند هذا الحد بل أنه شرع فى مد خط سكة حديد جديد يمتد من بغداد وبلاد ما بين النهرين شرقاً إنتهاءً «بمكة المكرمة» غرباً وسعى بعدها إلى مد خط «الحجاز» الأول إلى حلب وعاصمة الخلافة العثمانية «القسطنطينية» والذى لم يسعفه اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) لاستكماله فتعرضت هذه الخطوط الحيوية للتدمير من جانب بعض القبائل العربية الموالية والمتعاونة مع بريطانيا وبقيادة ضابط الاستخبارات «إدوارد لورنس» إلى التدمير قطعة بعد قطعة بحجة إضعاف المجهود الحربى العثمانى والحقيقة أن وراء هذا التدمير هدفا آخر أكثر خبثاً يتعلق بانفراد بريطانيا بهذه المنطقة الواعدة بكنز من النفط الأسود وتقطيع أواصر الاتصال بين شعوب هذه المنطقة العربية (اتفاقية سايكس - بيكو السرية عام ١٩١٦م).

كما شهدت هذه المرحلة تطور وسائل المواصلات الحديثة مثل السيارات والطائرات وبداية استخدام بعضها (خاصة الحافلات لنقل الحجيج) فى مواسم «الحج» و«العمرة».

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وأعلن عن قيام «المملكة العربية السعودية» عام ١٩٣٣م واستقر الأمن إلى حد كبير فى طرق قوافل الحجيج سواء القادمون من مصر أو الشام أو بلاد ما بين النهرين. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن دخل الحكومة السعودية من الضرائب والرسوم على الحجاج المصريين عام ١٩٣٨م بلغ حوالى ٥ ملايين جنيه مصرى وهو مبلغ ضخم فى ذلك الزمان. هذا علاوة على النفقات المباشرة التى ينفقها الحجاج فى الأراضى المقدسة (المأكل والمشرب والسكن والأضحية وشراء الهدايا للأقرباء.. إلخ) والتى تزيد بدورها على ثلاثة إلى خمسة أضعاف هذا المبلغ أى نحو ١٥ مليونا إلى ٢٠ مليون جنيه بأسعار ذلك الزمان.

وهذه الضرائب والرسوم على الحجاج المصريين كانت تعنى أن عدد هؤلاء الحجاج ذلك العام (١٩٣٨م) يزيد على ٥٠ ألف حاج مصرى (بمتوسط ١٠٠جنيه للحاج الواحد) أى أن نفقات الحجاج المصريين سنوياً كانت تتراوح من ٢٠ مليون جنيه إلى ٢٥ مليون جنيه (بما يعادل ٦٠ مليون دولار إلى ٧٥ مليون دولار).

ولعل التطور الأبرز فى هذه المرحلة، إكتشاف آبار النفط فى شبه الجزيرة العربية بكميات هائلة بعد عام ١٩١٣م وبداية الحفر المكثف فى المملكة السعودية منذ عام ١٩٣٣م مما أدى لتراجع مداخيل مواسم «الحج» و«العمرة» إلى المرتبة الثانية فى الاقتصاد.

ويشير أحد الباحثين السعوديين إلى هذه الحقيقة بقوله «أنه بعد أن كان الاعتماد يقوم على رسوم الحجيج وما ينفقونه أثناء مواسم «الحج» و«العمرة» أصبح النفط أهم مصدر للدخل خاصة بعد عام ١٩٧٣م».

ومع زيادة الثروة النفطية بدأ التنظيم الإدارى الحديث للمملكة السعودية ويشير الباحث السعودى إلى أن هذه البلاد لم تعرف أى نظام للإدارة حتى عام ١٩٥٢م (١٣٧٤ هـ) حينما أنشئ أول مجلس للوزراء وإن ظل «للملك عبد العزيز بن سعود» ومن بعده ابنه «الملك سعود» السلطة المطلقة فى الشئون المالية والسياسية فى المملكة حتى تعرضت البلاد إلى أزمة مالية عاصفة خلال أعوام (١٩٥٦م - ١٩٦٠م) كادت تدفع بها إلى حافة الإفلاس مما اضطر الأسرة السعودية إلى عزل «الملك سعود» وتنصيب شقيقه



تثير قضية مصروفات المصريين - أو غير المصريين - على رحلات «الحج والعمرة» مشكلات متعددة، سواء على المستوى العلمى والأكاديمى أو على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى



«فيصل» ملكاً على البلاد لما عرف عنه من حزم وقسوة فى أحيان كثيرة.

وعلى الفور استخدم الملك «فيصل» بعثة متخصصة من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى أوصت بضرورة إنشاء مجلس أعلى للتخطيط تابع إلى رئاسة مجلس الوزراء توكل إليه مهمة وضع الخطط الشاملة للمملكة، وفى عام ١٩٦٣م عقدت الحكومة السعودية اتفاقية مع مؤسسة فورد الأمريكية Ford foundation تقوم بمقتضاه الأخيرة بتنظيم الجهاز الإدارى للمملكة.

أما المرحلة الثالثة (١٩٧٤م - ١٩٨٤م):

فقد حدث بها أربعة تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية كبرى عكست نفسها على حركة «الحج» و«العمرة»، ليس فى مصر وحدها وإنما فى ربوع العالم الإسلامى كله، وقد تمثلت هذه التحولات الكبرى فى الآتى:

الأول: التطور السريع والمذهل ليس فى استحداث وسائل النقل والمواصلات فحسب وإنما فى امتلاك الدول العربية والإسلامية (خاصة المملكة السعودية وبقية دول الخليج) لأساطيل بحرية للنقل وكذا أساطيل من طائرات الركاب الحديثة.

الثانى: تحركات العمال العرب عموماً والمصريين خصوصاً بأكثر من ٢٠ مليون عامل ومهنى من كافة المستويات العلمية والمهنية خلال هذه الحقبة النفطية (١٩٧٤م - ١٩٩١م) ومعهم تحركت مليارات الدولارات فى صورة تحويلات نقدية أو عينية من هؤلاء العمال والمهنيين إلى بلدانهم وإلى أسرهم، مما جعل مئات الآلاف من الفقراء ومتوسطى الحال قادرين على أداء فريضة «الحج» وتكرار رحلات «الاعتمار».

الثالث: تنامى النفوذ الفكرى والثقافى والسياسى للتيارات الوهابية عموماً فى المنطقة العربية والإسلام السنى خصوصاً بدءاً من أندونيسيا والباكستان انتهاء بمصر والجزائر وبلاد المغرب العربى، وانتقال هذا النفوذ الفكرى والثقافى من إطاره العقائدى والوجدانى إلى الإطار السياسى الحركى (الجماعات الإسلامية بكافة أنواعها) ومنها تأججت مشاعر دينية تعرضت للقنص من جانب جماعات وجمعيات مصالح وجدت فى هذه المشاعر الدينية فرصة سانحة للكسب فتشكلت آلاف الجمعيات التى جعلت من تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» سوقاً للكسب والتربح.

الرابع: اكتساح رياح العولمة الرأسمالية وآليات السوق بكل وحشيتها لكل الأنشطة والمجالات ونزولها العاصف إلى حركة «الحج» و«الاعتمار» فحولتها إلى سوق بكل موبقات السوق وجشع العاملين فيه.

أما المرحلة الرابعة (١٩٨٥م حتى اليوم): فقد اتسمت بانفلات العقال من كل قيد وتسابق كل الأطراف الرسمية (الأجهزة المصرية والأجهزة السعودية) وغير الرسمية (الجمعيات - الوكلاء - شركات السياحة - السماسرة.. إلخ) لتحقيق الأرباح الهائلة دون حسيب أو رقيب وأسقطوا تماماً المعانى الوجدانية والإنسانية والدينية لهذه الفريضة المقدسة.

المشاعر الدينية تعرضت للقنص من جانب جماعات وجمعيات مصالح وجدت فيها فرصة سانحة للكسب فتشكلت آلاف الجمعيات التى جعلت من تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» سوقاً للكسب والتربح



الحقبة النفطية

و«الصحوة الإسلامية»:

ثلاثة متغيرات إقليمية كبرى تزامنت، أو تكاد بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م ولعبت دوراً مؤثراً فى سير الأحداث فى المنطقة العربية والإسلامية وهى:

الأولى: تناقص دور القيادة القومية للمنطقة العربية وشعوبها سواء فى شكلها الناصرى أو البعث السورى أو العراقى.

الثانية: بداية بروز ثم صعود نفوذ الجماعات الوهابية والسلفية فى المنطقة تحت مسمى «الصحوة الإسلامية» كرد فعل سياسى وثقافى لفشل القيادة القومية للمنطقة العربية.

الثالثة: بداية امتداد النفوذ السعودى السياسى والاقتصادى فى المنطقة العربية والذى ازداد أثره بعد وفاة الزعيم القومى التاريخى «جمال عبد الناصر» عام ١٩٧٠م وتولى «أنور السادات» الحكم من بعده.

ومع تضافر هذه العوامل الثلاثة، وتدفق أموال المساعدات السعودية العلنية وغير العلنية للمؤسسات والأشخاص والجمعيات الدينية الإسلامية والأزهر فى مصر والعالم العربى تنامت وترعرعت ثلاثة عناصر جديدة فى الحركة الاجتماعية والسياسية والدينية المصرية، وكذلك فى كثير من الدول العربية والإسلامية وهى:

الأولى: انتشار الجمعيات الأهلية الإسلامية.

الثانية: انتشار حركة بناء وتشييد المساجد الأهلية.

الثالثة: بداية تمدد نفوذ الحركات السياسية الإسلامية.

فإذا تأملنا العنصر الأول (الجمعيات الأهلية) نجد أن عدد الجمعيات الأهلية العاملة فى مصر عام ١٩٦٠م تزيد على ٣٤٩٤ جمعية (علاوة على ١٥٨ جمعية فى أسوان) ولم تكن الجمعيات الإسلامية تزيد على ٥٧٩ جمعية (أى بنسبة ١٦,٦٪) وتكاد تساويها الجمعيات الأهلية المسيحية التى بلغ عددها ٤٢٧ جمعية (بنسبة ١٢,٢٪) أى أن أكثر من ٢٨٪ من الجمعيات الأهلية العاملة فى مصر تكاد تكون دينية أو ذات غطاء دينى وهو ما حدا بالمشرع المصرى إلى محاولة التضييق على الجمعيات ذات الطبيعة الدينية فأصدر القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤م الخاص بالجمعيات الأهلية.

وقد استهدف المشرع من هذا القانون التضييق على الجمعيات الأهلية الدينية فحدد نشاط الجمعيات فى ثلاثة عشر نشاطاً يسمح لهذه الجمعيات بممارستها ولم يكن من بينها نشاط تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة»، وإنما اندرج هذا النشاط داخل نشاط أوسع نطاقاً هو «الخدمات الثقافية والعلمية والمهنية» لكن التغير الذى طرأ على السياسة المصرية بعد عام ١٩٧٠م وبداية انتهاج الدولة تحت قيادة الرئيس «السادات» لسياسة دعم نشاط الجماعات الدينية الإسلامية (بما فيها الإخوان المسلمين) قد أدى لغض الدولة (ممثلة فى وزارتى الشئون الاجتماعية والداخلية) الطرف عن الأنشطة ذات الطبيعة الدينية لهذه الجمعيات، فزاد عدد هذه الجمعيات من ٣٤٩٤ جمعية عام ١٩٦٠م إلى ١١٣١٣ جمعية عام ١٩٩٠م، أما فى عام ٢٠٠٧م فقد بلغ عدد الجمعيات الأهلية (المسجلة) لدى وزارة الشئون الإجتماعية ٢٢١٠٢ جمعية (أكثر من نصفها تقريباً مجرد لافتة) منها ما لا يقل عن أربعة آلاف جمعية إسلامية.

مئات الملايين من الدولارات التى حصل عليها المصريون العاملون فى منطقة الخليج والمملكة السعودية عاد جزء كبير منها إلى اقتصاد المملكة السعودية فى صورة نفقات لزيارات «الحج والعمرة» التى قام بها عشرات الملايين من المصريين طوال نفس الحقبة النفطية (١٩٧٤م- ٢٠٠٨م)

وبينما كانت الجمعيات الإسلامية المصرح لها بتنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» عام ١٩٧٠م حوالى ٣٦ جمعية فإن هذا العدد قد قفز إلى عشرة أضعافه بنهاية عام ٢٠٠٧م ليزيد على ٣٦٥ جمعية وتخفى بعضها الآخر خلف حركة بناء واسعة للمساجد والزوايا الدينية مستفيدة بعد ١٩٧١ من صدور القانون رقم (..) لسنة ١٩٧١م الذى أعفى أصحاب العقارات من أداء ضريبة العقارات والمبانى فى حال تخصيص بعض شقق العقار لإقامة الشعائر الدينية الإسلامية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإذا تأملنا حركة بناء المساجد الأهلية خلال نفس الفترة الممتدة من عام ١٩٧٤م حتى عام ١٩٨١م نجد أنه قد جرى بناء حوالى ٢٥٣٦١ مسجداً أهلياً مقابل وجود حوالى ٥١٠٢ مسجد حكومى واستمرت هذه الحركة حتى مطلع التسعينيات من القرن العشرين حينما اصطدمت الدولة المصرية بالجماعات السياسية الدينية المسلمة «الجهاد والجماعة الإسلامية والتكفير والهجرة وغيرهم». فجرى ضم آلاف المساجد الأهلية إلى عصمة وزارة الأوقاف وفى نفس الفترة جرى توظيف عشرات الآلاف من خريجى «الأزهر» فى وظائف الدعاة والأئمة حتى أصبحت هذه الوزارة رابع وزارة فى ترتيب العاملين فيها (٢٥٠ ألف موظف عام ٢٠٠٦م) معظمهم من الدعاة والأئمة، ولعل هذا ما دفع مئات الآلاف من الطلبة للالتحاق بمعاهد الأزهر التعليمية وجامعة الأزهر بحيث أصبحت هذه الجامعة تضم حوالى خُمس طلاب الجامعات الحكومية عام ٢٠٠٦م والبالغ عددهم حوالى ١,٧ مليون طالب جامعى.

وأخيراً فإن انضمام عشرات الآلاف من الشباب والمراهقين إلى الجماعات الدينية والإسلامية بكافة تياراتها بدءاً من الإخوان المسلمين مروراً بجماعتى «الجهاد والجماعة الإسلامية» انتهاء بجماعة (التبليغ والدعوة وجماعة التكفير والهجرة وغيرها) حتى الجماعات ذات الطبيعة السلفية والصوفية والمقدر عددهم بأكثر من مليون شاب خلال هذه الفترة (١٩٧١م- ٢٠٠٦م) كل هذا قد عزز من نفوذ هذه الجماعات وزاد من تأجيج المشاعر الدينية لدى ملايين المصريين.

الفريضة: «السوق» و«العولمة»

وسط هذه الظروف والمتغيرات، تأججت مشاعر الشوق لملايين المصريين لأداء فريضة «الحج» وأحد أركان الإسلام الخمسة، خاصة أن تدفقات وتحركات ملايين المصريين فى سوق العمل بالخليج والبلاد العربية النفطية قد ساعد على توفير عنصر «الاستطاعة» المالية، وزادها الشوق والوجدان الدينى التلقائى لدى المصريين البسطاء لهيباً واندفاعاً.

وهنا كان الصيادون من كل صوب وحدب متربصين ومتحفزين.

- كان بينهم مصريون.
- وكان بينهم سعوديون.

وبين هذا وذاك تحركت مئات الملايين من الدولارات الأمريكية والريالات السعودية فى شرايين الحياة الاقتصادية لتنقل نبضات الحياة من هنا إلى هناك.

صحيح أن «سوق الحج» كان قائماً منذ مئات السنين ظهور الرسالة المحمدية - وحتى قبلها فى عهد الوثنية. ولعب دوراً أساسياً فى اقتصاد ومعيشة أهالى المنطقة الحجازية (خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة) إلا أن ظهور «النفط» فى هذه البلاد المترامية الأطراف منذ عام ١٩٣٣م قد أدى لتغيرات فى أوزان مصادر الثروة، وتغير المشهد كله بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م حينما قفزت أسعار البترول العربى وغير العربى من أقل من ٣ دولارات للبرميل إلى ١١,٣ دولار فى أواسط عام ١٩٧٤م وها هو اليوم يدور صعوداً وهبوطاً حول ٨٠ دولارا للبرميل الواحد.

وقد ترتب على هذا أن قفزت عوائد صادرات النفط العربى خلال الفترة (١٩٧١م- ١٩٨٣م) إلى ١,٢ تريليون دولار أمريكى نالت السعودية فيها حصة الأسد (بقيمة ٥٥٢,٨ مليار دولار) يليها الإمارات المتحدة (١١٧,٠ مليار دولار) فالكويت (١٠٨,٤ مليار دولار) وبقية الدول العربية مثل ليبيا والعراق والجزائر وغيرها.

ونشأ على ضفاف هذه التدفقات المالية والنقدية الهائلة حركة تحويلات مالية من مراكز الثروة الجديدة إلى مواطن العمال والخبراء والمهندسين ومختلف الفئات فى مصر والسودان وفلسطين ولبنان وسوريا واليمن والبنجلاديش والهند والباكستان وغيرها.

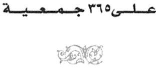
ومن بين حجم تحويلات وتعويضات على مستوى العالم قدرت بحوالى ٨٠ مليار دولار سنوياً خلال الفترة من عام ١٩٧٥م حتى عام ١٩٨٥م كان نصيب البلدان العربية (مصدرة ومستوردة لهذه الأموال والتحويلات) تقدر بحوالى ٢٠ مليار دولار سنوياً ازدادت أو انخفضت وتيرتها وأحجامها مع انخفاض أسعار برميل النفط أو ارتفاعه.

وقد بلغت هذه التحويلات والتعويضات للعاملين خارج دولهم على مستوى العالم عام ٢٠٠٠م حوالى ١٣١,٥ مليار دولار زادت عاماً بعد آخر حتى بلغت عام ٢٠٠٧م حوالى ٣٣٦,٩ مليار دولار وكانت حصة البلدان العربية منها حوالى ٢٠٪ تقريباً ولم تزد حصة مصر منها ذلك العام عن ٨,٥ مليار دولار.

ووفقاً لأحدث دراسة قام بها الباحث الاقتصادى السعودى «عبد الحميد العمرى» عضو جمعية الاقتصاد السعودية ونقلاً عن مؤسسة النقد السعودى فإن إجمالى ما قام بتحويله الأجانب العاملون فى المملكة السعودية (عددهم ٧ ملايين مشتغل معظمهم من شرق آسيا) - إلى بلدانهم خلال السنوات العشر الأخيرة (١٩٩٨م- ٢٠٠٧م) قد بلغ ١٦٤,٣ مليار دولار أى بمتوسط ١٦,٤ مليار دولار سنوياً تتفاوت من سنة إلى أخرى وإن كان المقدر لها أن تتجاوز ٢٤ مليار دولار أمريكى فى السنة خلال الأعوام القادمة.

ومن جانب آخر فإن البيانات الصادرة عن النشرة الشهرية من البنك المركزى المصرى فى أغسطس (آب) عام ٢٠٠٩م تكشف عن جانب آخر من الصورة حيث تراوحت تحويلات العمالة المصرية فى المملكة السعودية بين ٦٤٠ مليون دولار أمريكى عام (٢٠٠٣/٢٠٠٤) إلى ٩٥٩,٠ مليار دولار أمريكى عام (٢٠٠٧/٢٠٠٨) شاملة التحويلات النقدية والعينية معاً والأخيرة هى تلك المصاحبة للعامل المصرى أثناء عودته أو التى قام بشرائها ونقلها إلى ذويه فى مصر مثل السيارات أو السلع الكهربائية المعمرة أى أنها تشمل جزءا جرى إنفاقه داخل أراضى المملكة السعودية وفى شرايين اقتصادها.

بينما كانت الجمعيات الإسلامية المصرح لها بتنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» عام ١٩٧٠م حوالى ٣٦ جمعية فإن هذا العدد قد قفز إلى عشرة أضعافه بنهاية عام ٢٠٠٧م ليزيد على ٣٦٥ جمعية



مع تلك الطفرة فى التدفقات المالية من دول النفط، بدا أننا بدأنا نشهد شيئا شبيها بسياسة «التدوير» Recycling ذاتها التى اتبعتها الدول الأوروبية والولايات المتحدة فى مواجهة فوائض الأموال المتحققة لدى دول النفط العربية، وذلك بإعادة إدخال وتدوير هذه الفوائض المالية داخل الاقتصادات الغربية سواء فى الأسواق المالية أو أسهم الشركات الصناعية وغير الصناعية أو أذون الخزانة الأمريكية والأوروبية.

يشبه ذلك وإن اختلف السياق أن مئات الملايين من الدولارات تدفقت مرة أخرى من خارج المملكة السعودية إلى داخلها مصاحبة لعشرات الملايين من الحجيج والمعتمرين المسلمين من مصر وبقية ربوع العالم الإسلامى.

وعلى أية حال لقد ظل موسم «الحج» وتدفقات المعتمرين من كل أنحاء العالم الإسلامى طوال العام تقريباً تعد مصدراً أساسياً من مصادر الدخل لدى المملكة السعودية عموماً والعاملين منهم فى قطاع الحجيج على وجه الخصوص.

وهكذا تشكلت مصالح، وأنشئت شركات هنا وهناك، ويكشف تتبع التطور والتغير الذى حدث فى عمليات ترشيح وقبول الراغبين فى «الحج» أو الذاهبين إلى «العمرة» خلال الخمسين عاماً الماضية مقدار التحول المذهل من مفهوم «الخدمة» Service الدينية المصحوبة بمنافع اقتصادية لبعض الأطراف هنا وهناك إلى مفهوم ووقائع «السوق» Market بكل آلياته القاسية والوحشية فى عصر العولمة بما لم يعد يتلاءم إطلاقاً مع جوهر «الحج» كفريضة دينية واجبة أو «الاعتمار» كشعيرة دينية محببة إلى نفوس المسلمين.

ومع تسارع التطورات التكنولوجية فى عالم المواصلات والتواصل (طائرات - سفن - سيارات.. إلخ) زادت بالمقابل أعداد الحجيج فى كل موسم من هذه المواسم بحيث زاد عددهم من عدة عشرات الآلاف من الحجاج قبل عام ١٨٠٠م إلى أن تجاوز خمسة ملايين حاج فى مواسم «الحج» فى السنوات القليلة الماضية.

كم ينفق المصريون على رحلات الحج والعمرة ؟

خلال هذه العقود الطويلة الممتدة حوالى ١٣٠٠ عام من الهجرة المحمدية، ظل الطابع الغالب على هذه الشعيرة الدينية هو جانبها الوجدانى والروحى، برغم وجود عنصر «السوق» المتزامن والمصاحب لأداء فريضة الحج ومن مقوماتها:

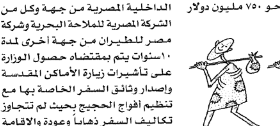
١- وجود عشرات الآلاف من الذبائح (الفدو) التى وفرت سوقا كبيرة لتجارة اللحوم.

٢- وجود أماكن لإقامة ورعاية الحجيج (المبيت) يتولاها مئات من المطوفين وأصحاب أماكن الإقامة والضيافة.

٣- حركة بيع الهدايا للزائرين من الحجيج التى تحمل نفحات وبركات الأماكن المقدسة.

٤- تكاليف الطعام والشراب لمئات الآلاف من الحجيج.

٥- ثم اتسعت حركة التجارة غير المشروعة (تجارة الشنطة) خاصة فى رعاية الدول ذات القيود الاستيرادية (مثل مصر) خلال عقدى الخمسينيات والستينيات.



إذا تأملنا تطور إنتاج النفط السعودى منذ عام ١٩٣٥م حتى عام ١٩٥٥م والعوائد السنوية المتحققة نكتشف الثقل الاقتصادى لقطاع «الحج» و«الاعتمار» «فى الاقتصاد السعودى خلال هذه المرحلة



برغم أن الحجاج المصريين لم يكونوا هم الأكثر عدداً خلال العقود السابقة على عام ١٩٧٤م، مقارنة بحجيج دول إسلامية أخرى (مثل إندونيسيا أو دول جنوب آسيا المسلمة) فإنهم - أى المصريين - كانوا الأفضل من حيث التجارة والشراء بحكم كونهم من الطبقة الوسطى وفوق الوسطى ومن ثم القادرين مادياً على أعباء وتكاليف «الحج»، فى تلك السنوات وساهم وجود «التكية المصرية» فى «مكة» و«المدينة» فى إضافة مظهر مميز لمصر لدى الحجيج عموماً والسعوديين على وجه الخصوص.

وعلى الجانب الآخر فإذا تأملنا تطور إنتاج النفط السعودى منذ عام ١٩٣٥م حتى عام ١٩٥٥م والعوائد السنوية المتحققة نكتشف الثقل الاقتصادى لقطاع «الحج» و«الاعتمار» فى الاقتصاد السعودى خلال هذه المرحلة.

ذلك أن إنتاج النفط السعودى قد مر بعدة مراحل متمايزة من حيث حجم الإنتاج وسعر برميل النفط:

ففى المرحلة الاولى (١٩٣٥م- ١٩٤٠م): كان متوسط حجم الإنتاج السعودى خلال هذه المرحلة لا يزيد على ٥٠٠ ألف برميل يومياً وسعر البرميل يتراوح بين نصف دولار إلى ٦٢ سنتا أمريكياً وبالتالى فإن متوسط إيرادات المملكة السعودية من النفط يدور بين ٧٥ مليون دولار أمريكى إلى ٩٣ مليون دولار سنوياً.

أما المرحلة الثانية (١٩٤١م- ١٩٤٥م): والتى زادت فيها طاقة الإنتاج والتصدير السعودية إلى ١٫٥ مليون برميل يومياً، كما زاد سعر البيع إلى الشركات إلى دولار أمريكى ومن ثم فقد زادت إيرادات المملكة السعودية إلى نحو ٤٥٠ مليون دولار أمريكى سنوياً.

وفى المرحلة الثالثة (١٩٤٦م- ١٩٥٥م): زاد إنتاج المملكة السعودية إلى ٢ مليون برميل كما زاد سعر بيع البرميل ما بين ١٫٢ دولار إلى ١٫٥ دولار أمريكى فحققت إيرادات قدرت بنحو ٧٥٠ مليون دولار سنوياً إلى ٩٠٠ مليون دولار سنوياً.

ومقابل كل هذا فإن قوافل الحجاج المصريين خلال نفس هذه المرحلة كانت تؤدى ضرائب ورسوم زيارة للأماكن المقدسة تتراوح بين ٥ ملايين جنيه مصرى إلى ٨ ملايين جنيه مصرى (الجنيه المصرى يعادل وقتئذ ٢٫٨٦ دولار أمريكى) تدخل إلى خزينة المملكة فإذا أضفنا إليها نفقات هؤلاء الحجيج - والمقدر عددهم سنوياً بحوالى ٤٠ ألفا إلى ٥٠ ألف حاج - فى صورة انتقالات وإقامة ومأكل ومشرب وشراء هدايا وثمن الفدو أو (الأضحية) فإن هذه النفقات تقدر بحوالى ٢٠ مليون جنيه أى ما يعادل من ٥٧٫٢ مليون دولار إلى ٦٠ مليون دولار أمريكى سنوياً هذا بخلاف عشرات الآلاف من الحجاج القادمين من كافة البقاع الإسلامية.

إذن حتى عشية اندلاع حرب من أكتوبر عام ١٩٧٣م كانت عائدات النفط فى المملكة السعودية تكاد تعادل تقريباً عائدات المملكة من نفقات يؤديها الحجيج والمعتمرون القادمون من كافة بقاع العالم الإسلامى ومن بينها مصر وتعتبر مسئولة عن تحريك القطاع الشعبى الأكبر فى الاقتصاد السعودى.

بين وجد الشوق.. وسوق عكاظ..!!

قبل عام ١٩٥٥م كان أداء فريضة «الحج» وسنة «العمرة» يكاد يكون محصوراً على الطبقات الثرية فى مصر من طبقة ملاك الأراضى الزراعية والتجار ورجال المال والأعمال، وفئة قليلة من متوسطى الدخول من كبار الموظفين ومن على شاكلتهم، نظراً للتكاليف الباهظة التى كان يتحملها المسافر لأداء فريضة «الحج» والتى كانت تتراوح بين ٢٠٠ جنيه إلى خمسمائة جنيه مصرى وهو مبلغ باهظ لا يتوافر للكثيرين من غالبية الشعب المصرى ورغبة من نظام الرئيس «عبد الناصر» فى إتاحة أداء هذه الفريضة للفئات الوسطى ومحدودى الدخل بدأ عام ١٩٥٥م بإعادة تنظيم هذا القطاع، حيث جرى التعاقد بين وزارة الداخلية المصرية من جهة وكل من الشركة المصرية للملاحة البحرية وشركة مصر للطيران من جهة أخرى لمدة ١٠سنوات يتم بمقتضاه حصول الوزارة على تأشيرات زيارة الأماكن المقدسة وإصدار وثائق السفر الخاصة بها مع تنظيم أفواج الحجيج بحيث لم تتجاوز تكاليف السفر ذهاباً وعودة والإقامة والتنقلات بين مكة والمدينة وميناء جدة أو ضبا حوالى ١٢٠ جنيهاً (فى حالة السفر بحراً) تزيد إلى ١٥٠ جنيهاً (فى حالة السفر جواً) بالإضافة بالطبع إلى رسوم وضرائب زيارة الأراضى المقدسة.

وقد ساهم هذا فى توسيع قاعدة المسافرين من المصريين لأداء فريضة «الحج» بحيث زاد عددهم على حوالى ٤٠ ألف حاج سنوياً خلال الفترة التى أعقبت ذلك العام وحتى عام ١٩٧٣م.

ولم تشمل هذه التكلفة بالطبع نفقات المأكل والمشرب وشراء الهدايا من جانب الحجاج المصريين فى الأماكن الحجازية.

ومن جهة أخرى فقد بدأ منذ ذلك التاريخ «نظام القُرعَة» الذى كانت تنظمه سنوياً وزارة الداخلية المصرية، بسبب تزايد الإقبال على هذا «الحج» الشعبى - إذا جاز التعبير - فى ظل وجود تأشيرات محددة للسفر إلى الأراضى الحجازية قد لا تزيد على ٤٠ ألف تأشيرة سنوياً، بالإضافة إلى الاعتبارات المالية التى أخذت بها الحكومة المصرية - ولا زالت - بشأن تأثير هذه المسحوبات من العملة الأجنبية (الدولار الأمريكى أو الريال السعودى أو الجنيه الأسترلينى) على احتياطياتها المتاحة من النقد الأجنبى.

وحتى ذلك التاريخ.. لم تكن قد برزت

ما دفعه المصريون فى الحصول على تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» عام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) يتراوح بين ٥٠ مليونا إلى ٧٠ مليون جنيه تقريباً



أدوار أطراف أخرى فاعلة فى عمليات تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» مثل شركات السياحة التجارية أو الجمعيات الأهلية فظلت أفواج الحجيج فى معظمها تتولاها أجهزة وزارة الداخلية بالتعاون مع السلطات السعودية من الجانب الآخر.

وبرغم التدهور الذى ساد فى العلاقات السياسية بين مصر والمملكة السعودية بعد عام ١٩٥٨م واستمر تقريباً حتى عام ١٩٧١م، فقد حافظت روابط أفواج الحجيج المصريين للأراضى المقدسة التى ظلت قائمة مستمرة وعند معدلاتها العادية.

فإذا حاولنا تقدير حجم النفقات التى دفعها المصريون الحجيج والاقتصاد المصرى فى سوق الرحلات المقدسة تلك خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٥م حتى عام ١٩٧٣م والتى تشمل:

١) تكاليف السفر ذهاباً وإياباً بحراً وجواً

٢) تكاليف التنقلات داخل الأراضى الحجازية

٣) تكاليف الإقامة

٤) تكاليف المأكل والمشرب داخل المملكة السعودية

٥) تكاليف الفدو (الأضحية)

٦) تكاليف شراء الهدايا من الأراضى المقدسة

وبإجراء المعادلات الرياضية على البيانات المتوافرة عن تلك الفترة (١٩٥٥م- ١٩٧٣م) يصل مجموع ما تحملته مصر من اقتصادها فى رحلات «الحج» لهذه الفترة إلى

= ١٢ مليون جنيه مصرى (ما يعادل ٣٤,٧ مليون دولار أمريكى)

نصفهم تقريباً حصل عليها الاقتصاد السعودى

بعد عام ١٩٧٤م تحول المشهد كله فى مصر والمنطقة العربية والإسلامية للأسباب التى سبق وعرضناها والمتمثلة فى:

١) أثر حركة العمالة المصرية والعربية والإسلامية إلى دول النفط العربية على توزيعات الدخول.

٢) تصاعد نفوذ المملكة السعودية على سياسات المنطقة.

٣) صعود التيار الوهابى والسلفية وانتشارها بين قطاعات واسعة من السكان.

وهنا اتسع نطاق الرحلات الدينية المقدسة وكذلك تعددت الأطراف والعناصر الفاعلة فى هذه الحركة فحولتها إلى سوق ضخم له قواعده العرفية ومعدلات أرباحه الخيالية وممارساته أحياناً غير الأخلاقية وغير الدينية ومن أبرز هذه الأطراف الجديدة أو المتجددة على كلا الجانبين:

- الشركات السياحية
- الجمعيات الأهلية
- الأجهزة الرسمية وشبه الرسمية

وقد زاد الأمر سوءاً لجوء السلطات السعودية بعد تكرر أحداث مظاهرات الحجاج الإيرانيين إلى فرض نظام الحصص عام (١٩٩٣م) لحجيج كل دولة إسلامية وفقاً لقاعدة (واحد لكل ألف من السكان) حتى تستطيع تحجيم عدد الحجيج الإيرانيين من ناحية ولتمكين الأجهزة الأمنية من السيطرة على الموقف من ناحية أخرى.

بيد أن هذه السياسات الجديدة قد لعبت دوراً كبيراً فى خلق «سوق سوداء» ضخمة فى مصر وبقية الدول الإسلامية وانتشر ممارسو السمسرة فى «تاشيرات الحج» وفنادق الإقامة وغيرها.

أدى انتعاش هذه الحركة الواسعة بعد عام ١٩٧٤م وتحرك ما يزيد على ١,٥ مليون مصرى سنوياً فى قوافل «الحج» و«العمرة» إلى انتعاش مقابل فى شركات السياحة العاملة فى هذا السوق. ففى عام ١٩٧٥م لم تكن شركات السياحة المصرية تزيد على ١٨٠ شركة من جميع الفئات زاد عددها عام ١٩٨٥م إلى ٥٠٢ شركة ثم إلى ٨٩٢ شركة عام ١٩٩٧م ثم وصلت الزيادة إلى ٩٩٠ شركة عام ٢٠٠٠م، وبحلول عام ٢٠٠٧م كان عدد شركات السياحة العاملة فى مصر قد بلغ ١٤٠٩ شركات وفى نهاية عام ٢٠٠٨م كان عدد الشركات السياحية فى مصر قد قارب على ١٧٠٠ شركة.

وقد أدى دخول هذه الشركات - ووكلائها السعوديين من الجانب الآخر - على خط تنظيم هذه الرحلات الدينية إلى فتح أبواب جهنم على الأسعار والتكاليف، فانتشرت عمليات البيع والشراء - وعمليات السمسرة - فى تأشيرات «الحج «التى كانت القنصليات السعودية تصدرها مجاناً، خاصة بعد اتباع المملكة السعودية عام ١٩٩٣م أسلوب النسبة العددية لكل بلد (واحد لكل ألف من السكان)

وبالتالى فقد بلغت حصة الشركات السياحية حوالى ٣٢ إلى ٣٥ ألف تأشيرة وزعت على الشركات العاملة فى هذا المجال.

ونظراً لقلة حصص بعض هذه الشركات (أقل من ٢٠ تأشيرة) فقد لجأ بعضها إما إلى بيع حصته تلك إلى شركات سياحية أكبر مقابل الحصول على ١٠ آلاف إلى ١٤ ألف جنيه للتأشيرة الواحدة أو تجميع حصص عدد من الشركات فى كتلة واحدة حتى تتمكن من التفاوض مع وكلائها السعوديين والحصول على شروط مناسبة لإقامة وتنقلات الحجيج التابعين لهم وتحقيق أرباح معقولة فى موسم «الحج».

أما وزارة التضامن فقد بلغت حصتها فى ذلك العام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) حوالى ١٦ ألف تأشيرة يجرى تجنيب حوالى ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف تأشيرة، يوجه بعضها إلى وزارات معينة (وزارة الدفاع وبعض الأجهزة الرئاسية) ويتسرب جزء آخر إلى «السوق السوداء» حيث تباع التأشيرة بمبالغ تتراوح بين خمسة آلاف إلى ٦ آلاف جنيه للتأشيرة الواحدة مما ساعد على انتعاش واستمرار «السوق السوداء» فى هذا النشاط الدينى. وكذلك الحال فى تأشيرات الجمعيات الأهلية (١١ ألفا إلى ١٣ ألف تأشيرة على حوالى ٥٠٠ جمعية)

كيف تكون سوق «الحج» و«العمرة» بعد عام ١٩٧٤م؟

أدت العوامل التى سبق أن أشرنا إليها (العمالة المتحركة - التحويلات - الصحوة الإسلامية) إلى تدافع مئات الآلاف من المصريين المسلمين لأداء الفريضة المقدسة «الحج» والسنة النبوية المحمودة «العمرة»، مصحوبين بقوة شرائية هائلة ومشاعر شتى ومثلهم ملايين من المسلمين فى كافة أرجاء العالم الإسلامى.

وبطبيعة الأشياء، فإذا كان السوق حاضراً فى مواسم «الحج» منذ مئات السنين - حتى قبل انبعاث الدعوة المحمدية - فإنه يعد الآن منادياً وجاذباً وله رجاله والمتربحون منه من كل صوب وحدب.

وأغرى هذا السيل المتدفق - بلا توقف - الكثيرين بالمشاركة فيه حتى لو كانت أدوارهم لا تستلزم ذلك سواء على الجانب السعودى (وزارة الحج - هيئة مخاع - الغرف التجارية والسياحية) أو على الجانب المصرى (وزارة الداخلية - الشركات - السماسرة - وزارة السياحة.. إلخ).

ففى البداية لم يكن هناك سوى الرسوم المقررة المتواضعة لإصدار وثيقة السفر والباقى يتحمله المسافر من تذاكر الطائرة أو الباخرة وتكاليف الإقامة والتنقلات فى المملكة وغيرها سواء تحملها بصورة مباشرة وشخصية أو من خلال وسيط كشركات السياحة أو الوكلاء أو الجمعيات الأهلية.. إلخ.

وهكذا بدأ تحميل «الحاج» أو «المعتمر» بعشرات الرسوم والمصاريف المبالغ فيها حتى وصل سعر «الحج» السريع من فئة الخمسة نجوم إلى ١٠٠ ألف جنيه (لأحد عشر يوماً).

انتشرت عمليات البيع والشراء - وعمليات السمسرة - فى تأشيرات «الحج» التى كانت القنصليات السعودية تصدرها مجانا، خاصة بعد اتباع المملكة أسلوب النسبة العددية لكل بلد



تجارة «التأشيرة»:

من الناحية القانونية - والشكلية - مازالت تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» التى تصدرها القنصليات السعودية مذيلة بتعبير «مجانية» أى بدون مقابل لكنها ومنذ مطلع التسعينيات بدأت السلطتان السعودية والمصرية تتسابقان فى فرض رسوم على إصدار هذه التأشيرات حتى قاربت مبلغ الألف جنيه فى الوقت الراهن.

ففى عام ١٩٩٣م وضعت السلطات السعودية نظاماً جديداً قائماً على فكرة الحصص لكل دولة من الدول الإسلامية (واحد لكل ألف من السكان) خاصة بعد تزايد التظاهرات التى كان يقوم بها الحجاج الإيرانيون وأدت إلى مقتل المئات منهم فى العام السابق (١٩٩٢م) وقد لاقى هذا الإجراء ترحيباً من السلطات المصرية لعدة أسباب بعضها سياسى والبعض الآخر اقتصادى:

- سياسياً: أعتبرت

السلطات المصرية أن تقليص أعداد المعتمرين والحجاج يصب لصالح تقليص الأرضية والبيئة الثقافية والفكرية المؤيدة أو المحتضنة لتيارات الإسلام السياسى خصوصاً جماعة الإخوان المسلمين التى تشكل خطراً سياسياً وربما انتخابياً للنظام العسكرى القائم فى مصر.

- واقتصادياً: فإن ما تتحمله خزينة البنك المركزى المصرى والنظام المصرفى من أعباء مالية بسبب توفير العملات الأجنبية (الريال السعودى - الدولار الأمريكى) لهذه الأعداد الهائلة سنوياً يؤثر لا شك على حصيلة النقد الأجنبى والاحتياط النقدى المتاح لدى الاقتصاد المصرى.

ومن ثم فقد جاءت إجراءات المملكة السعودية فى فرض رسوم على إصدارات تأشيرة «الحج» متوافقة مع الرغبة المصرية، كما شجعت الحكومة المصرية



جاءت اجراءات المملكة السعودية فى فرض رسوم على إصدارات تأشيرة «الحج» متوافقة مع الرغبة المصرية، كما شجعت الحكومة المصرية على فرض رسوم مماثلة

وأجهزتها الأمنية على فرض رسوم مماثلة. ووصل الأمر فى نهاية المطاف أن أصبح على الحاج المصرى سداد ما يقارب ٥٩٣,٦ جنيه مصرى أو (٣٩٣ ريالا سعوديا) مقابل الحصول فقط على تأشيرة «الحج».

ويجرى فيما بين الشركات السياحية الصغرى والكبرى عمليات بيع وتجارة واسعة النطاق فى هذه التأشيرات بحيث تصل قيمتها من ١٠ آلاف جنيه إلى ١٤ ألف جنيه كما يجرى تسريب أعداد من تأشيرات «الحج» من حصة وزارة التضامن أو وزارة الداخلية مقابل مبالغ تتراوح بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف جنيه للتأشيرة الواحدة خاصة أن سعر الحج السريع (١١ يوماً) لدى بعض الشركات المتوسطة يتراوح بين ٣٦,٥ ألف جنيه و٤٦,٥ ألف جنيه إلى ١٠٠ ألف جنيه للشركات ذات الخمسة نجوم.

فإذا قدرنا ما دفعه المصريون فى الحصول على تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» لعام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) نجدها تتراوح بين: ٥٠ مليونا إلى ٧٠ مليون جنيه تقريباً.

بينما تحتسب تكلفة التأشيرة لحوالى خمسة عشر ألف حاج آخرين ضمن تكلفة الحج السريع الذى تنظمه الشركات السياحية الكبرى (١٠٠ ألف جنيه لأحد عشر يوماً) أو الشركات السياحية المتوسطة (٣٦,٥ ألف جنيه إلى ٤٦,٥ ألف جنيه لذات المدة) فى حين يتسرب حوالى ٥ آلاف تأشيرة أخرى إلى جهات سيادية وأمنية.

تعالوا هنا - كمثال - لنحسب كم أنفق المصريون على الحج فى العام الماضى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ:

١- حجاج الشركات السياحية:

بلغت الحصة الرسمية لهذه الشركات فى العام الماضى (١٤٢٩هـ) حوالى ٣٢ ألف تأشيرة (بنسبة ٤٠٪ من الإجمالى)، علاوة على عدة آلاف قليلة من التأشيرات تقتنصها هذه الشركات من خلال «السوق السوداء»، وكذلك ما يتسرب من تأشيرات من حصة وزارتى التضامن الاجتماعى (الجمعيات الأهلية) والداخلية.

وبالتالى فإن العدد الفعلى لهذه الشركات يصل إلى حوالى ٣٥ ألف تأشيرة تتوزع بين مستويات اجتماعية واقتصادية مختلفة من الحجيج المصريين ووصل عدد المتعاملين مع هذه الشركات حوالى النصف تقريباً أى حوالى ١٩ ألف حاج فى ذلك العام.

واذا أخذنا بالاعتبار التوزيع النسبى لحجاج الشركات، وتبعا للمعلن من أسعار سنجد أن مجموع ما أنفقه الحجاج المصريون المسافرون فى أفواج الشركات السياحية = ١٦٨٥ مليون جنيه مصرى

٢- حجاج وزارة الداخلية:

قبل عدة سنوات قليلة كان دور وزارة الداخلية المصرية يقتصر فقط على أربعة واجبات:

١- الحصول على تأشيرات السفر بالتنسيق مع السلطات السعودية.

٢- إصدار وثائق السفر الخاصة بالحجاج.

٣- إجراء «القُرعَة» لاختيار من يقع عليهم الاختيار من بين المتقدمين ويترك لكل منهم السفر بوسائله الخاصة.

٤- الحصول على الرسوم التى فرضتها الوزارة على تأشيرة ووثائق السفر التى سبق وعرضنا إليها من قبل.

بيد أن نداهة السوق كانت أكبر فى الغواية من تقاليد وزارة الداخلية المحافظة فنزلت بدورها إلى سوق «الحج» بتنظيم قوافله من بين المتقدمين الذين وقع عليهم الاختيار وفقاً لحصة الوزارة (٤٠٪ من إجمالى التأشيرات الممنوحة من المملكة السعودية) فبدأت إدارة «الحج» و«العمرة» بالوزارة بالتعاقد مباشرة مع بعض الوكلاء السعوديين ونظمت قوافل السفر بالطائرات أو السفن ونزلت إلى سوق ضخم فانزلقت أقدامها وتاهت بوصلتها فى دهاليز الخصخصة الجديدة.

على أية حال ووفقاً للتعاقد الذى تم بين إدارة «الحج» و«العمرة» التابعة لوزارة الداخلية المصرية وبين أفواج الحجاج المصريين فى موسم «حج» عام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) فإن متوسط سعر أداء المناسك كان فى حدود ٢٥ ألف جنيه شاملة الإقامة والطعام والتنقلات الداخلية داخل المملكة السعودية علاوة بالطبع على السفر من مصر إلى المملكة السعودية والعكس دون أن يشمل بالطبع الهدايا التى اشتراها الحجيج على حسابهم الخاص لذويهم فى مصر.

وبالتالى فإن حجم ما تحمله الحجاج المصريون المتعاقدون مع وزارة الداخلية لعام ٢٠٠٨:

= (٢٩ ألف حاج × ٢٥ ألف جنيه)

=٧٢٥ مليون جنيه مصرى

٣- الجمعيات الأهلية

كما سبق وذكرنا فإن حصة وزارة التضامن من تأشيرات «الحج»، ذلك العام حوالى ١٦ ألف تأشيرة (٢٠٪ من الإجمالى) يتم توزيع ١٢ ألفا منها فقط (وفقاً لتصريحات وزير التضامن الاجتماعى) يتسرب معظم الباقى إلى السوق السوداء.

ويقدر متوسط تكلفة الحاج الواحد فى هذه الجمعيات بحوالى ١٥ ألف جنيه إلى ٢٠ ألف جنيه تدفع عادة على دفعات قبل السفر.

وبالتالى فإن متوسط ما تحمله الحجيج المصريون أعضاء هذه الجمعيات ذلك العام يتراوح بين:

= (١٢ ألف تأشيرة × ١٥ ألف جنيه)

= ١٨٠ مليون جنيه مصرى

أو = (١٢ألف تأشيرة × ٢٠ ألف جنيه)

= ٢٤٠ مليون جنيه مصرى

تكاليف الهدايا بصحبة الحاج العائد:

إذا استثنينا عمليات التجارة المصاحبة لرحلات بعض المسافرين المصريين لأداء فريضة «الحج» و «العمرة» (تجار الشنطة) والمرتبطة باستخدام هذه الرحلة المقدسة للتغطية على عمليات تهرب جمركى والاستفادة من فروق الأسعار فى بعض السلع بين مصر والمملكة السعودية. فإن المؤكد أن جميع الحجيج تقريباً يستحضرون معهم أثناء العودة بعض المشتريات والهدايا إما لإهدائها لأقربائهم وأبنائهم وأحبائهم فى مصر أو تبركاً بها من الأماكن المقدسة.

وعلى قدر المستطاع لدى الحاج المصرى فإن هناك حدودا دنيا للإنفاق على هذه الهدايا لم يقل عن ألف ريال سعودى (١٥٠٠ جنيه مصرى فى المتوسط) ويتدرج صعوداً إلى ما يقارب ٢٠ ألف ريال سعودى (٣٠ ألف جنيه مصرى) فإذا كان عدد المسافرين المصريين لأداء فريضة «الحج» ذلك العام (٢٠٠٨م) قد بلغ حوالى ٨٠ ألف شخص تتفاوت قدراتهم المالية والشرائية فإننا نستطيع عبر استخدام توزيعات الأعداد المسافرة على المستويات الثلاثة السابق الإشارة إليها أن نقدر الآتى:

١- أن حوالى ٢٥٪ من الحجاج المصريين (أى ٢٠ ألف حاج) هم من القادرين على شراء هدايا فى حدود ٢٠ ألف ريال سعودى لكل حاج (أى حوالى ٣٠ ألف جنيه).

٢- وأن هناك ٢٥٪ من الحجاج المصريين (أى ٢٠ ألفا آخرين) هم من متوسطى الحال الذين لن تتجاوز مشترياتهم عشرة آلاف ريال سعودى للحاج الواحد (أى حوالى ١٥ ألف جنيه مصرى)

٣- وأن هناك ٥٠٪ من الحجاج المصريين (أى حوالى ٤٠ ألف حاج) لن يستطيعوا أن يستصحبوا معهم سوى هدايا فى حدود ألف ريال سعودى فقط لكل حاج (أى ١٥٠٠ جنيه مصرى).

وبالتالى وبحسبة بسيطة سنجد أن تكاليف الهدايا فى صحبة الحجاج المصريين العائدين:

= ٦٠٠ مليون جنيه + ٤٠٠ مليون جنيه + ٦٠ مليون جنيه

=١٠٦٠ مليون جنيه مصرى



والخلاصة أنه بحساب أرقام إنفاق الفئات المختلفة للحجاج السابق الإشارة إليها مع نفقات شراء الهدايا وكذلك نفقات التأشيرات، يصبح مجموع ما أنفقه الحجاج المصريون فى موسم «حج» عام (١٤٢٩هـ) الموافق عام ٢٠٠٨م

= (٧٠ + ١٦٨٥ + ٧٢٥ + ١٨٠ + ١٠٦٠)

=٣٤٨٨ مليون جنيه مصرى

أو =٣٥٤٨ مليون جنيه مصرى

أى ما يعادل=٦٢٢,٩ مليون دولار أمريكى

أو =٦٣٣,٦ مليون دولار أمريكى

أو بالعملة السعودية = ٢٣٢٥,٣ مليون ريال سعودى

أو = ٢٣٦٥,٣ مليون ريال سعودى

ذهب نصفها تقريباً إلى الاقتصاد السعودى وذهب نصفها الآخر إلى قطاعات فى الاقتصاد المصرى (السياحة - وزارة الداخلية - شركات الطيران والعبارات البحرية ووسائل النقل المصرى).

وإذا حاولنا تقدير الصورة الإجمالية لمصروفات الحجيج من كل بقاع العالم الإسلامى والمقدر بحوالى ٤ ملايين حاج لذلك العام (٢٠٠٨م) تتفاوت قدراتهم المالية والاجتماعية (حجاج بنجالاديش والهند والباكستان واليمن مقابل حجاج تركيا ومصر ودول الخليج العربى.. إلخ).

فإذا قدرنا أن متوسط التكلفة لفقراء الحجاج المسلمين فى الدول المشار إليها هو ألف دولار للحاج الواحد وأن متوسط إنفاق حجاج بقية الدول الإسلامية يتراوح بين ثلاثة آلاف دولار إلى عشرة آلاف دولار أمريكى.

وأن نصف الحجيج من البلاد الإسلامية الفقيرة (باكستان - بنجالاديش - الهند - نيجيريا - اليمن.. إلخ) بينما ربعهم الآخرون من الدول متوسطة الإنفاق والربع الأخير من الدول ذات القدرات المالية الكبيرة.

فإن حجم الإيرادات التى تحققت للمملكة السعودية

= (٢ مليون حاج × ألف دولار) + (١ مليون حاج × ٣ آلاف دولار) + (مليون حاج × ١٠ آلاف دولار)

= (٢ مليار دولار) + (مليار دولار) + (١٠ مليار دولار)

= ١٣ مليار دولار أمريكى

أى ما يعادل ٤٨,١ مليار ريال سعودى وهو مبلغ هام فى الاقتصاد السعودى يكاد يعادل ماجرى تحويله من أموال سعودية لصالح العمالة الأجنبية والعربية العاملة على أراضيها والذين قدرتهم دراسات بعض الخبراء السعوديين بأنها بلغت ١٦,٤ مليار دولار سنوياً خلال العشر سنوات الممتدة من عام١٩٩٨م حتى عام ٢٠٠٨م. ■



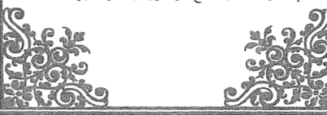
تقرير جولدستون
(٣)

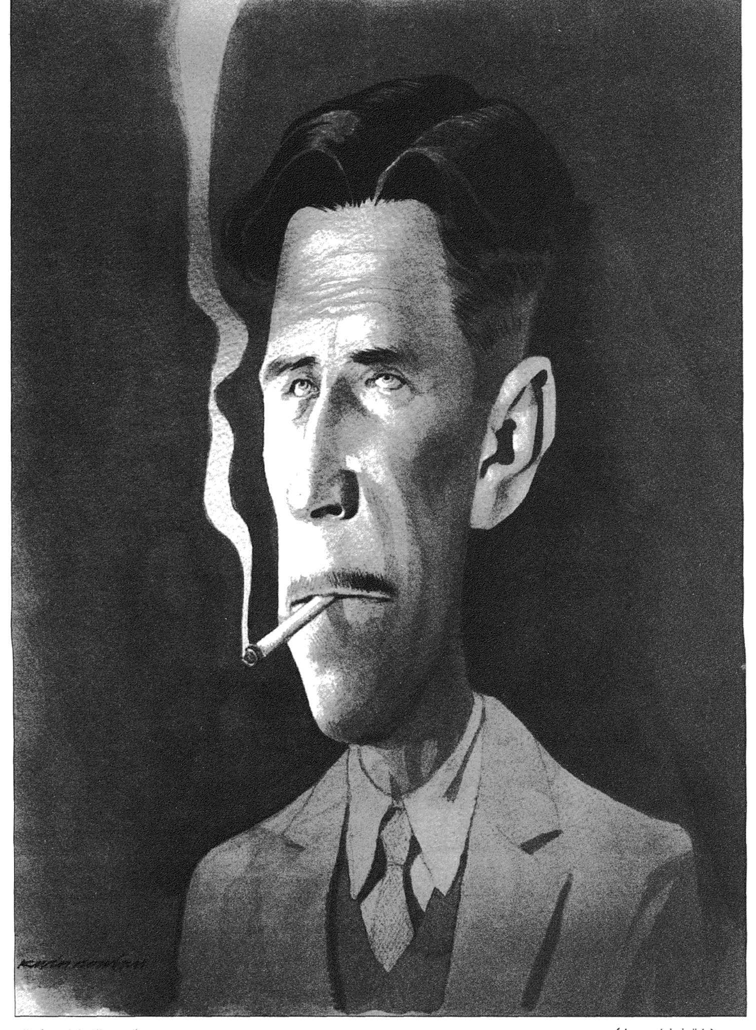
الحصار

ركزَّت البعثة (الفصل الخامس) على عملية العزل الاقتصادى والسياسى الذى تفرضه إسرائيل على قطاع غزة، والمشار إليه بصورة عامة باسم الحصار. ويشمل الحصار تدابير مثل فرض قيود على السلع التى يمكن استيرادها إلى غزة وقفل المعابر الحدودية أمام الأشخاص والسلع والخدمات، وهو ما يستمر أحيانًا لأيام، بما فى ذلك إجراء تخفيضات فى الإمداد بالوقود والكهرباء. كما يتأثر اقتصاد غزة تأثرًا شديدًا بتقليص مساحة الصيد المسموح بها للصيادين الفلسطينيين وإنشاء منطقة عازلة على طول الحدود بين غزة وإسرائيل، مما يُخفِّض مساحة الأرض المتاحة للزراعة والصناعة. وبالإضافة إلى أن الحصار يخلق حالة طوارئ، فإنه قد أضعف كثيرًا من قدرات السكان وقدرات قطاعات الصحة والمياه والقطاعات العامة الأخرى على الاستجابة لحالة الطوارئ الناشئة عن العمليات العسكرية.

٢٨ ـ ومن رأى البعثة أن إسرائيل مازالت مُلزمة بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وإلى أقصى حد تسمح به الوسائل المتاحة لها، بضمان توريد المواد الغذائية واللوازم الطبية ولوازم المستشفيات والسلع الأخرى بغية تلبية الاحتياجات الإنسانية لسكان قطاع غزة دون قيد من القيود.

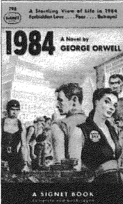
ومن رأى البعثة أن إسرائيل مازالت مُلزمة بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وإلى أقصى حد تسمح به الوسائل المتاحة لها، بضمان توريد المواد الغذائية واللوازم الطبية ولوازم المستشفيات والسلع الأخرى بغية تلبية الاحتياجات الإنسانية لسكان قطاع غزة دون قيد من القيود.

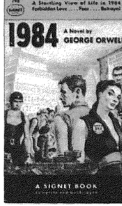






جورج أورويل





هَل تتذكره..؟!

أحمد حجاج

«انتهت الحرب مع أورآسيا ووجد ونستون نفسه يعمل طويلا أثناء الليل لكى يعيد كتابة تاريخ الحزب الذى كان يصور أورآسيا كعدو. أنا وجوليا فى حاجة إلى مكان منعزل نستطيع أن نمارس فيه الحب ونحن نستمع إلى نشيد «الله يبارك لك أيها الحاكم»



■■ «لقد كان يوما باردا فى أبريل، وكل الساعات دقت الساعة الثالثة عشرة».

هل تتذكرون هذه الجملة المشهورة؟ أنها من الرواية التى ألفها جورج أورويل منذ ستين عاما. اعتقد أن جيلا كاملا تأثر بها كثيرا حول العالم. عندما عثرت فى شبابى على نسخة مستعملة من هذا الكتاب دفعنى الفضول إلى شرائها بثمن رخيص بعد ان سمعت عنها وعن مؤلفها. عندما بدأت فى الاطلاع عليها سهرت ليلة كاملة حتى انهيتها. ليست رواية طويلة من أمثال قصص تولستوى وغيره ولكنها تستحوذ عليك من الصفحة الاولى. انها رواية ١٩٨٤ ـ نعم هذا هو عنوانها. وكان أورويل يرمز بها عندما كتبها عام ١٩٤٩ إلى ما قد ينتظر العالم بعد ستين سنة، عالم مخيف وقاس تتلاشى فيه ارادة الفرد ويخضع المجتمع لسيطرة ونفوذ ومراقبة ما يسمى «بالأخ الكبير» وهو شخصية غير مرئية ولكن هذا الأخ ونظامه لا يتركون للفرد أى حرية لكى يعيش حياته كما يشاء، فمنذ استيقاظه وعمله طوال النهار وحتى فى نومه فإنه مراقب وأى خروج عن النظام أمر يستحق العقاب. لا توجد صداقات أو حتى عداوات ولكن فقط الأخلاص للنظام والأخ الكبير.

فى عام ١٩٤٦ كان جورج أورويل كاتبا مغمورا ولكن المحرر الأدبى فى جريدة الأويزرفر البريطانية توسم فيه خيرا بالرغم من كل مظاهر عدم الأتزان والجنون أحيانا التى كانت تلم به بين الحين والأخر، واعاره كوخه الريفى لكى يتفرغ للانتهاء من كتابة هذه الرواية التى تحدث عنها كثيرا من قبل. هذه الرواية اعتبرت من أفضل الروايات التى ظهرت خلال القرن العشرين وأصبحت بمثابة الرواية الكلاسيكية التى تدرس لطلاب الأدب فى الجامعات المشهورة. وكتبت عنها مئات من رسائل الماجيستير والدكتوراه وأصبحت من أكثر الكتب مبيعا فى الكثير من الدول وترجمت إلى لغات عديدة- ٦٥ لغة بالضبط - واعيد طبعها ولا يزال عشرات المرات.

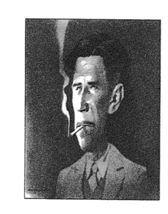
هذه العبارة السابقة التى بدأ بها أورويل روايته تجعل القارئ متسمرا فى أحداثها حتى النهاية. قد يرى البعض فيها بعض الرتابة ولكن أحداثها تشدك حتى تنتهى من قراءتها. الرواية فى صورتها النهائية التى طبعت بها لم تكن هى الرواية الأصلية التى كتبها أورويل، ولكن كما تظهر المخطوطة الأصلية فقد ادخل عليها أورويل تعديلات واعاد صياغتها بالكامل عدة مرات. والمراقب الذى يقوم بتحليل هذه «الروايات» يمكنه ان يرى بوضوح الأزمة العميقة التى كانت تستحوذ عليه نفسيا والتى جعلته اقرب إلى الجنون منه إلى التعقل والاتزان.

١٩٨٤ أصبح تعبير يستخدمه الكثيرون للاشارة إلى الأنظمة القمعية، ويمكن مثلا أن تقول «الأخ الكبير» لكى يعرف أنك تريد الاشارة إلى دكتاتور أو حاكم مطلق يطلب الطاعة العمياء من الرعية، كذلك هناك تعبير «التفكير المزدوج» Doublethink أى أن ما تفكر به هو متناقض تماما مع ما تتحدث به، بل هناك لقب «الاورواليه» المرتبط باسم المؤلف ويقصد به الآن أى نظام شمولى متسلط يلغى حرية الشعب والفرد. يطلق الآن ناس كثيرون هذه الوصف على أنظمة كثيرة وهم لا يعرفون أنه مشتق من مؤلف رواية يدعى جورج أورويل. «بطل» الرواية ونستون سميث ما هو إلا شخص عادى بين ملايين من أمثاله فى مجتمع كل أفراده متشابهون ويتوجب عليهم التفكير بنفس الشىء، أى أن الفرد ما هو إلا صامولة من آلاف الصواميل فى آلة عملاقة.

الرواية جاءت بعد أكبر حرب عالمية فى التاريخ هى الحرب العالمية الثانية التى حصدت أرواح عشرات الملايين من الضحايا، ومثلت فى نظر الكثيرين الصراع بين الشر الذى مثله هتلر والنازية وبين «الخير» الذى مثله الغرب. لم يكن أورويل بالطبع يقصد ذلك من روايته وإنما عكس مخاوف الملايين التى خرجت من الحرب وهى تحلم بالمستقبل. كان هناك بالفعل تخوف مما قد يحدث لهم خاصة بعد تثبيت النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى الذى كان حليفا للغرب فى هذه الحرب ضد النازية. انما كان هذا تحالفا مؤقتا اقتضتة الضرورة ضد «عدو» واحد. ولكن هذا النظام كان أقرب فى نظر الكثيرين إلى النظام الدكتاتورى الذى محا حرية الفرد ليس فقط فى روسيا وانما سيطرته على العديد من دول شرق أوروبا دون ان يحرك الغرب ساكنا ورفض محاولة التعايش مع هذا النظام الشمولى. كما أن شخصية ستالين كانت تقريبا تماثل شخصية الأخ الأكبر أى أن الطاعة والولاء له تعلو فوق كل اعتبار.

توضح المراحل التى مر بها اورويل حتى الانتهاء من روايته، نموذجا فريدا فى الاطلاع على نفسيته المعقدة. كان مريضا تراوده أحلام فظيعة تظهر فيها الكثير من الشخصيات المرعبة والوحوش المخيفة التى تطوف فى مخيلته بين الحين والأخر. جلس يكتب الرواية فى مكان منعزل فى اسكتلندا بعيدا عن العمران ومن صحبة الأخرين. كانت فكرة الرواية تختمر فى ذهن أورويل لعدة سنوات قبل ان يشعر بالقدرة على بداية وضعها على الورق. كان يريد ان يسميها فى الأصل «الإنسان الأخير فى أوروبا» ولكنه عدل عن ذلك إذ ايقن فى رأيه ان الحضارة التى نعرفها فى طريقها إلى الزوال وفى وقت أقرب مما نتصور، ولذلك اختار هذا الاسم مكتوبا كما يلى «ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين» بدلا من الأرقام ١٩٨٤، وعاده يطلق البريطانيون شفاهة عليها اختصارا «تسعة عشر أربعة وثمانين».

الفكرة راودته ما بين





«جلس داخل شقته بعيدا عن أنظار بوليس الفكر. بدأ فى تصفح الكتاب الذى أحضره من مكان محظور على أعضاء الحزب أن يدخلوا إليه، وشعر على الفور برعشة فى معدته»



عامى ١٩٤٣/١٩٤٤ أو خلال فترة أشد المعارك ضراوة فى الحرب العالمية الثانية واعتقد الكثيرون ان القوة النازية الهتلرية هى التى ستنتصر وستختفى «الحضارة» الغربية كما عرفها العالم أو أصحابها على الأقل. فى هذه الفتره هو وزوجته ايلين تبنيا ولدهما الوحيد ريتشارد. هل كان ذلك علامة على بعض الأمل فى المستقبل، أم مجرد ملاذ لهما يؤنس حياتهما؟ لا نعرف. أورويل نفسه يقول أنه تأثر باجتماع عقده قاده الحلفاء فى مؤتمرهم فى طهران عام ١٩٤٤. ويقول زميله المعروف إيزاك دويتشر الذى كان من المع الصحفيين والأدباء فى بريطانيا فى ذلك الوقت ان أورويل كان واثقا ان ستالين وتشرشل وروزفلت تآمروا فى طهران لتقسيم العالم فيما بينهم. هذا التصور من جانب أورويل لم يكن بعيدا عن الحقيقة، فكما نعرف من مؤتمر بوتسدام عقب الحرب أن ستالين انتزع من زعماء الغرب - تشرشل وروزفلت - الاعتراف بإلحاق موسكو لدول عديدة فى شرق أوروبا للنفوذ السوفيتى والتى أصبحت ذات أنظمة شيوعية بالإضافة إلى تقسيم ألمانيا وهو ما أدى بعد فترة قصيره إلى ظهور الحرب الباردة بين النظامين الشيوعى والرأسمالى.

جريدة الأوبزرفر العريقة التى أدين لها بمعلومات كثيرة عن تاريخ أورويل تعد من أكثر الجرائد رصانة فى تاريخ الصحافة البريطانية ولا زالت فى رأيى من أفضلها. أجبرتها الأزمات المالية على تقليص نشرها وان تصبح أسبوعية ولكنها مع ذلك تضم أفضل المحللين السياسيين والاقتصاديين وتخصص صفحات هامة للأدب وتنشر فى كل أسبوع أهم الكتب التى تصدر عالميا. الجريدة كان يملكها فى ذلك الوقت الناشر البريطانى المعروف والارستقراطى فى نفس الوقت «دافيد استور» الذى الحق عام ١٩٤٢ جورج أورويل ضمن الكتاب العاملين فى الصحيفة، أول الأمر ككاتب يستعرض الكتب الجديدة ثم مراسلا فى مهام مختلفة. اعجب استور باسلوب أورويل و قدرته على «الحياد» الموضوعى والأسلوب المباشر فى مقالاته التى كانت تتسم بالعرض الأمين فى نفس الوقت. ولذلك إذا كان يصح استخدام هذا التعبير فإنه وضع أورويل تحت جناحيه او رعايته، بل أصبحا صديقين وهو عامل أثر إلى حد كبير فى صياغة رواية ١٩٨٤.

بالمناسبة تاريخ ١٩٨٤ كان فى نظر الخارجين من الحرب وما خلفته من دمار وعذاب، تاريخا قد يبدو بعيدا للكثيرين، ولو أنه إذا ما حسبت فانه كان يتحدث «مجازيا» عن مستقبل سيحل بعد خمسة وثلاثين عاما فقط. ولكن الغالبية كانت تريد ان تستريح وتنعم بالحياة ولا تريد أن تفكر فى احتمال أى مستقبل مظلم لها أو للعالم.

جورج أورويل أيضا هو صاحب الرواية المعروفة «مزرعة الحيوانات» التى ترجمت إلى العربية ومن يبدأ فى قراءتها أيضا لن يسكت حتى ينتهى منها. هى أيضا من الروايات التى أثرت فى جيل كامل وكانت مقدمة لرواية ١٩٨٤ وتتصور مزرعه للحيوانات فقط يسود فيها الخنزير صاحب السيطرة الذى تسعى بقية الحيوانات إلى التقرب منه بل والحصول على حظوته. كل ذلك بأسلوب رشيق تهكمى ساخر وقصد بها أورويل ان يشير إلى الأنظمة الشمولية التى يحاول فيها الأفراد والمؤسسات اغداق المديح على «القائد» وحكمته وبعد نظره إلخ..... وقد انعكس ذلك على أسلوبه فى عرض الكتب التى كان يختار عرضها كل أسبوع فى الأوبزرفر.

تدخلت عوامل أخرى لكى تؤثر فى نفسية أورويل وفى الرواية التى اختمرت عناصرها فى ذهنه. بعد فترة قصيرة من تبنى ابنه «ريتشارد» دمرت شقته تقريبا بفعل بعض القوارض، وهو ما مثل فى ذهنه قيام نظام ما لا تراه يقوم بتخريب حياتك وأنت لا تستطيع مقاومته أو حتى رؤيته أو التعرف عليه. كان ذلك أيضا مثالا لما حدث للكثير من مبانى لندن خلال الحرب التى استهدفتها الطائرات الألمانية دون تمييز ودمرتها من أجل احباط البريطانيين والتأثير على معنوياتهم وعزيمتهم على مواصلة الحرب، حيث كان هتلر يريد منهم أن يثوروا على تشرشل الذى أدخلهم فى حرب لا صلة لهم بها. وأسوأ من ذلك تلقى أورويل عندما كان فى مهمة للجريدة فى أوروبا نبأ وفاة زوجته ايلين التى كانت تخضع لجراحة بسيطة فى المستشفى.



لقد وجد نفسه فجأة ارملا وابا لطفل صغير يحاول مقابلة نفقات الحياة فى شقة متواضعة وأن يجتر أحزانه ووحدته خاصة بعد فقده زوجته. ركز على عمله لنسيان ما الم به وانكب على عمله فى الأوبزرفر حتى أنه يقال أنه خلال عام ١٩٤٥ وحده كتب مقالات كثيرة فى الأوبزرفر قدرها البعض أنها ضمت أكثر من مائة ألف كلمة. هذا فى وقت كانت فيه الصحافة تمثل أهم مصدر للمعلومات والرأى لغالبية السكان ولم يكن التليفزيون قد انتشر بعد.

وهنا تدخل صديقه ناشر الجريدة استور الذى كانت عائلته تمتلك جزيرة منعزلة فى إسكتلندا، بعيدة جدا عن أى عمران. فى البداية عرضها استور على أورويل لكى يقضى فيها عطلة واجازة له وقبل أورويل ذلك بحماسة شديدة. فى مايو ١٩٤٦ شد الرحال إلى هذا المكان المنعزل قائلا لصديقه أرثر كوستلر الكاتب المعروف أنه استعد للرحلة كما لو كان ذاهبا فى رحلة طويلة إلى القطب الشمالى. بالمناسبة أرثر كوستلر هذا صاحب الكتاب الشهير فيما بعد عن اليهود تحت اسم «القبيلة الثالثة عشرة» الذى انتقدته الأوساط الإسرائيلية واليهودية ولكنه حظى بتغطية واسعة.

لم يكن أورويل فى ذلك الوقت يتمتع بصحة جيدة، وكان شتاء عام ١٩٤٦ أقسى برودة فى بريطانيا على مدار قرن كامل، وكان المجتمع البريطانى لايزال يعانى من اجراءات التقشف وبطاقات التموين وعدم توافر السلع ونقص التدفئة، كل ذلك فاقم من مرضه. ولكن على كل حال فقد بعد عن حياة الصحفيين ومناوراتهم فى العمل التى كانت تسود لندن، وتوفر له لأول مرة الوقت والجو الملائم من أجل بدء كتابة روايته المشهورة.

ومن المفارقات أن بعض الصعوبات التى واجهت أورويل فى تلك الفترة كانت بسبب نجاح روايته السابقة «مزرعة الحيوانات»، فبعد أن شعر بالمرارة لأهمال المجتمع الأدبى له، وجد نفسه فجأة محط اهتمام الدوائر الأدبية ولعبقريته. فبعد انتهاء هذا الاهمال اسر إلى زميله «كوستلر» ان الكثيرين كانوا يطلبون منه الموافقة على إلقاء محاضرة أو الادلاء بحديث صحفى أو المشاركة فى مشروع معين، وهو يريد فى الواقع ان يتحرر من كل ذلك وتتاح له الفرصة لكى يفكر من جديد. وجد هذه الفرصة فى تواجده فى مكان منعزل فى إسكتلندا ولكن كان عليه ان يدفع ثمنا لذلك. كان قد كتب مقاله قبل ذلك بعدة سنوات تحت عنوان «لماذا اكتب؟» شرح فيها المعاناة التى يقابلها من أجل الانتهاء من كتاب ما، فالأمر فى رأيه بمثابة «معاناة فظيعة مثل مرض طويل يسبب للإنسان الاما كبيرة، ولا يجب على المرء ان يقدم على ذلك إلا إذا كان مسيطرا عليه شيطان ما، لا يمكنه ان يقاومه أو يتفهمه».

من ربيع عام ١٩٤٧ حتى وفاته عام ١٩٥٠ كانت كتابات أورويل تعكس كل هذه المعاناة والشكوك، ويظن البعض أنه وصل إلى الحد الذى قد يجعله يسعد بهذه المعاناة وهى أمور تلحق بمن يشعرون باللذة من تعذيب أنفسهم. كتب إلى ناشر روايته يقول «اننى اقاوم مع كتابة هذه الرواية التى يجب ان انتهى منها هذا العام، وعلى كل حال سينتهى بى الأمر بكسر ظهرى بحلول الخريف». الحياة فى هذا المنزل المنعزل لم تكن فاخرة، فهو بيت صغير نسبيا ولم يكن مزودا بالكهرباء وكان عليه استخدام الوقود من أجل طهو طعامه أو تدفئة المياه. كان مدمنا على تدخين السجائر ولم يرتبط مع العالم الخارجى إلا عن طريق راديو صغير يعمل بالبطارية.

عاش أورويل على سرير بسيط جدا ومنضدة صغيرة وكرسيين، وبالرغم من ذلك فقد أحب هذه الحياة البسيطة الخالية من أى كماليات. عرفه أهالى المنطقة باسمه الأصلى «اريك بلير» ووصفوه بأنه رجل مهذب طويل القامة ولكن تبدو على وجهه علامات الحزن. عندما التحق به ابنه ريتشارد الصغير مع مربيته فإنه كان يلجأ إلى أخته «ابريل». يذكر ريتشارد فيما بعد أن هذه الأخت كانت عونا عظيما لأخيها وطاهية ومدبرة منزل ممتازة وكان وجودها عاملا مساعدا لأورويل الذى بمجرد استقراره بدأ فى

كتابة الرواية بالفعل وكتب إلى ناشره انه يعتقد انه قد انتهى من ثلثى الكتاب، ولكن للأسف لم يستطع ان يفعل أكثر من ذلك بسبب سوء صحته. كان يدرك ان الناشر بدأ ينفد صبره من التأخير فى تسليم مسودات الرواية، فكان يخبره ان الفكرة الرئيسية جاهزة وانه يعتقد انه سينتهى من الرواية بحلول أكتوبر.

من الأمور البسيطة التى كانت تدخل السعادة على قلبه تمكنه من القيام هو وابنه بنزهات فى المنطقة المحيطة بمنزله فى الجزيرة أو صيد السمك. ولكن خلال رحلة بقارب صغير ضمه مع أخته وابنه كاد ان يغرق وظل فترة طويلة فى المياه الباردة التى تقارب درجة الصفر وهو ما أضر بصحته كثيرا وتعرض خلال شهرين لمعاناة مرضية شديدة. حتى ذلك الوقت كان ينوى ان يكون عنوان الرواية هو «اخر إنسان فى أوروبا» ولكن فى اطار شكه وتردده قال انه يجب اعادة كتابة ثلثى الرواية على الأقل مرة أخرى.

يبدو انه ادرك أن اجله قريب ولذلك بدأ يعمل بصورة مكثفة وكل يوم لساعات طويلة، ولكن فى نوفمبر انهار مصابا بحمى شديدة وكتب إلى احد زملائه انه اصيب بالسل مما اقتضى نقله بسرعة إلى المستشفى ولكن فى ذلك الوقت لم يكن العالم قد اكتشف بعد دواء لمعالجه هذا المرض وكان الاطباء ينصحون بمجرد تعرض المريض للهواء النقى مع غذاء معين. كان هناك دواء امريكى جديد تحت التجربة تم احضاره ولكن ابنه يعتقد ان والده قد اعطى جرعات زائده منه مما فاقم من اعراض المرض وفقد شعره وتغير جلده. ولكن بحلول شهر مارس من عام ١٩٤٨ تحسنت صحته إلى الحد الذى جعله يعتقد انه قد شفى تماما ولكنه يتهكم قائلا «ان الأمر كما كان بمثابة اغراق السفينة من أجل التخلص من الفئران التى تعبث بها، ومع ذلك فإن الموضوع يستحق».

انتهى من مسودة الرواية فى النهاية، لم يكن كما ذكر لناشره راضيا تماما عنها ولكنه فى نفس الوقت لم يكن شعوره سيئا نحوها، وكانت ستكون بالقطع أفضل لولا كتابته لها تحت تأثير مرض السل. كان مترددا فى عنوانها هل سيكون ١٩٨٤ أو «آخر إنسان فى أوروبا». كان فى صراع مع الزمن ولكنه قرر ان ينهى العمل بنفسه دون أى مساعده من الناشر وكتب النص النهائى على آله كتابة عتيقة، وانتهى منها فى ديسمبر ١٩٤٨. ادرك الناشر على الفور قيمه الرواية بعد ان وصلته واعتبرها من أفضل الكتب التى قرأها وأكثرها اثارة فى حياته وتوقع ان تبيع الرواية على الأقل ٢٠ ألف نسخة خاصة وان الأوساط الأدبية وصلتها أخبار عن مستواها الرفيع. فى هذا الوقت وصلت صحة أورويل إلى مرحلة حرجة جعلته يبصق دما ولكنه شعر ببعض السعادة من التعليقات الصحفية المرحبة بالرواية.

صدرت الرواية فى يونيو ١٩٤٩ فى بريطانيا، وبعدها بخمسة أيام فى الولايات المتحدة، وعلى الفور اعتبرت انها من أفضل الكتب التى صدرت حتى أن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا قال انه قرأها مرتين. أورويل فى غرفته فى المستشفى ومع تدهور صحته تزوج سيدة تدعى «سونيا براونيل» وشعر مؤقتا ببعض السعادة ولكنه توفى فى يناير ١٩٥٠ وهو ما مثل صدمة لعدد كبير من القراء والأوساط الأدبية فى نفس الوقت.

احتار النقاد فى سبب اختيار أورويل لعنوان ١٩٨٤، البعض قال ان هذا التاريخ كان يتناسب مع مئوية الجمعية الفابية وهى جمعية تأسست عام ١٨٨٤ وكانت تضم بعض الذين اعتبرهم المجتمع من الحالمين والمثاليين وكان من ضمنهم الكاتب الايرلندى الساخر المعروف جورج برناردشو. البعض الآخر يظن ان العنوان متعلق برواية الكاتب المعروف جاك لندن «القدم الحديدية» التى تنبأ فيها بوصول حركة سياسية إلى الحكم عام ١٩٨٤ إلى غير ذلك من التكهنات. ولكن احد الكتاب الذى عمل على جمع ونشر كل اعمال أورويل يرى ان العنوان ينبع من مجرد تغيير أماكن الأرقام من ١٩٤٨ إلى ١٩٨٤ وإلى تاريخ مولد ابنة بالتبنى عام ١٩٤٤، أما عن تخليه عن اسم «آخر إنسان فى أوروبا» فإن أورويل لم يكن متحمسا له فضلا عن انه ناشره قال له ان ١٩٨٤ عنوان أفضل.



الكتاب بلغت شهرته ان ظهر فى عدة أفلام ممتازة. اتذكر جيدا مدى تأثرى بالفيلم الذى ظهر فيه الممثل ريتشارد بيرتون والذى حاول الايحاء بالحكم النازى، كما قام التليفزيون بعرضها فى مسلسل تحت عنوان «الأخ الكبير» دون ان يدرى الكثير من المشاهدين مغزى عنوان ١٩٨٤ بل ان الغرفة رقم ١٠٠ التى ورد ذكرها كثيرا فى رواية جورج أورويل كمكان للاستجواب جعل بعض الفنادق تتفادى ان يكون بها غرف تحت هذا الرقم خشية ان يعرض عنها النزلاء، تماما مثل بعض الفنادق التى تتفادى الاشارة إلى الدور الثالث عشر الذى يتشاءم منه النزلاء. وأصبحنا الآن نسمع اسم «بوليس الفكر الذى اورده أورويل فى روايته عن شرطة تقوم بمراقبة أفكار المواطنين وعدم السماح لهم بالتفكير فى أى شىء يتنافى مع آراء السلطة.

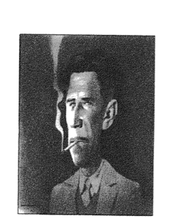
١٩٨٤ تظهر اسلوب اورويل الساخر الذى يوضح للمجتمع ماذا ستكون عليه الاحوال اذا ما قبل بوجود نظام شمولى او دكتاتورى حتى لو امكن لهذا النظام أن يوفر حدا أدنى من المعيشة المادية ولكنه يلغى الحرية والفكر. تماما كما فعل فى روايته الشهيرة «مزرعة الحيوانات» التى رفض نشرها الشاعر الشهير ت. أس. اليوت الذى كان مديرا لإحدى دور النشر فى عام ١٩٤٤ باعتبارها غير مناسبة ولأنها فى رأيه تعارض الفكر التروتسكى ومعادية لروسيا حليفة بريطانيا فى الحرب ضد النازية . ولكن منذ صدور هذه الرواية أو ١٩٨٤ لا تمر سنة إلا ويعاد طبعهما نتيجة شعبيتهما الكبيرة فى مختلف أنحاء العالم.

ولكن هل طباعة كتاب معين يعنى أنه يقرأ بالكامل؟ فى استفتاء مثير أجرى فى بريطانيا مؤخرا ظهر أن نصف من تم سؤالهم أفادوا أنهم يذكرون أنهم يقتنون الكتاب ولكنهم فى الحقيقة لم يقرأوه والأمر هو محاولة التظاهر «الكاذب» بذلك فى المجتمع حتى لا يظهروا أنهم متخلفين عن المثقفين. ١٩٨٤ كان على قائمة أكثر الكتب شهرة، ولكن عندما سئل الذين تم استقصاؤهم عما إذا كانوا قد ادعوا أمام آخرين أنهم قرأوا كتابا ما وفى الواقع لم يقرأوه، أجاب ٦٥٪ بنعم وقال ٤٢٪ أنهم ادعوا كذبا أنهم قرأوا رواية ١٩٨٤ لأورويل من أجل التأثير فى الآخرين. من الكتب الأخرى التى تدخل فى هذا الاطار رواية الحرب والسلام لتولستوى (٣١٪) وأوليسيس لجيمس جويس (٢٥٪) وحتى الانجيل (٢٤٪) أى أن حمى التظاهر بقراءة الكتب المشهورة موجودة بين الكثيرين وأعتقد أنها كذلك وأكثر فى مجتمعاتنا العربية أيضا.

هذا الاستقصاء الذى تم بمناسبة يوم الكتاب العالمى أظهر أن الكثير منا قراء عجولون ليس لديهم الصبر على قراءة الكتاب بالكامل بل نتعجل نهايته. ٣٣٪ قالوا أنهم لم يكذبوا أبدا ولكن الغالبية أقرت بذلك. وإذا كنت أحد الأشخاص الذين تلقوا أحد الكتب كهدية من شخص ما وأكتشفت أن الكتاب غير جديد بل إن الذى قدمه إليك كهدية قد قام بقراءته أولا من قبل فإنك مصيب فى شكوكك، ٤٨٪ أقروا بذلك.

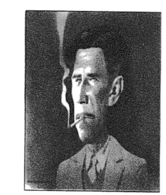
الكتب المجلدة تجليدا فاخرا كما تعودت اجيال عديدة على فعل ذلك أنتهت وحتى فى مصر فإن ظاهرة التجليد أختفت إلى حد كبير وأصبح من العادة أن تطوى الصفحة عندما تتوقف عند جزء معين وهى عادة قبيحة إذ يمكن استخدام وسائل أخرى تساعدك على البدء من الصفحة التى انتهى إليها مثل وضع ورقة أو حتى بقايا تذكره إلخ... ولكن بعض الناس لديهم قدرة عجيبة على «بهدلة» الكتب التى يقتنونها. يتنبأ البعض أيضا باختفاء الكتاب المطبوع على ورق فى مستقبل قريب، والموضة الآن هى شراء الكتاب الإلكترونى أو أسطوانة رقمية مسجل عليها عشرات الكتب، أى أن المكتبات التى نشاهدها حاليا وبها أرفف موضوع عليها مختلف الكتب ستختفى أيضا.

رواية ١٩٨٤ هى محاولة لاستقراء المستقبل. هل صدقت توقعات أو تخيلات جورج أورويل أم لا؟ لقد مر عام ١٩٨٤ ولم تحدث أو تتحقق هذه التخيلات، وأن كان البعض يرى أنها بالفعل موجودة وقد تحققت فى بعض أنحاء العالم. كان الاتحاد السوفيتى فى هذا التاريخ فى أوج قوته وكان يناطح الولايات المتحدة، هذا إضافة إلى نظام الصين الشعبية بقيادة ماوتسى تونج وكوريا الشمالية وبعض الدول الأفريقية التى جثمت على





«لقد فعلت ذلك مئات المرات مع رجال عديدين» هذا ما قالته جوليا برقة وحنان وهما يجلسان على الحشائش فى إحدى الحدائق وهما يدخنان فى السر سيجارة الانتصار





«شعر بمشاعر النشوة والتفوق. لم يحدث شيء كثير حتى تلك اللحظة لأن كل عمل قام به حتى الآن كان يرمى فقط لإظهار هشاشة العالم القمعى المقسم الى ثلاث قوى عظمى...»

أنفاسها أنظمة الحكم الواحد أو القائد الأوحد أو الزعيم والرئيس مدى الحياة. ولكننى أعتقد أن ما قصدة أورويل هو إطلاق طلقة تحذير إلى الإنسانية حتى تكون على حذر من انسياقها الأعمى وراء زعيم أو نظام أو مؤسسة الخ... هو لم يقصد أن ذلك يمكن أن يحدث فقط فى الأنظمة الشيوعية الشمولية، وإنما حتى فى الأنظمة الرأسمالية التى تتغول فيها الرأسمالية بطريقة وحشية وتكاد تنمحى فيها حرية الفرد. العالم يجرب ولا يزال فى بعض الأحيان يصيب وفى أحيانا كثيرة يخطئ. فى عالمنا الحديث أصبحت بعض الشركات العالمية متعددة الجنسيات أقوى من دول بكاملها وتستطيع التأثير على أنظمة مستقرة.

قراءة المستقبل أصبحت علما يدرس فى الجامعات والمعاهد المتخصصة وكل فترة تخرج علينا مؤسسات مختلفة بتصوراتها حول مستقبل العالم بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة. بل إن المخابرات الأمريكية خرجت علينا منذ سنتين بتقرير مفصل حول رأيها لما سيكون عليه العالم بعد ربع قرن وأى القوى ستكون هى الرائدة و مدى تأثر مركز الولايات المتحدة فى هذا الصدد وما يجب أن تفعله لكى تظل فى الصدارة دائما. بعض هذه التصورات تخيب مثل تنبؤات المخابرات الأمريكية حول القوة العسكرية السوفيتية التى هولت منها كثيرا وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى تبين أن هذه القوة لم تكن بهذه المنعة التى تصورتها وتخوفت منها المخابرات الأمريكية. ولكن صدقت تنبؤاتها حول قوة الاقتصاد السوفيتى وأنه يعانى من صعوبات جمة بسبب البيروقراطية وعدم الكفاءة والإدارة إلخ... على العموم علم المستقبليات يجب أن يحظى باهتمام فى بلادنا النامية والعالم العربى على وجه الخصوص ويحتاج إلى علماء السياسة والاقتصاد و الاجتماع والنفس إلى غير ذلك. مثلا ماذا سيكون عليه مستقبل الدول العربية المنتجة للنفط إذا انتهى النفط فى العالم أو إذا ما أخترعت بدائل للنفط؟ أو كيف يمكن أن تسد الموارد العربية المتاحة احتياجات السكان المتزايدة؟ ماذا ستكون عليه علاقة الأفراد بالمركز أو الحكومة؟ أو - وهو ما نتحدث عنه كثيرا الآن - ما هو مستقبل مصر على ضوء شح المياه وانعكاسات تغير المناخ؟ كل هذه الاحتمالات مطروحة وحتى أن لم تكن ملحة الآن إلا أنها تحتاج إلى تأمل وبحث ومعالجة وتقدير من أفضل العقول عندنا.

على العموم فإن استقراء المستقبل لا يقتصر على الحكوميين أو الخبراء الرسميين وأساتذة الجامعات، وإنما أمتد منذ قرن تقريبا إلى الكتاب والروائيين وظهرت أفلام كثيرة عما سيحدث فى المستقبل من صواريخ فى الفضاء إلى كائنات غريبة تغزو الأرض وطبعا كلها تستهدف المجتمع الأمريكى الذى تغار من رخائه ولكن البطولة والشجاعة الأمريكية هى التى تنقذ الأرض ومن عليها.

على العموم أفضل الكتب التى ظهرت حتى الآن عن تصورات المستقبل وأعمل فيها مؤلفوها العنان لخيالاتهم هى:

(١) «العالم يطلق سراحه» للمؤلف الأنجليزى الشهير هـ.ج ويلز الذى كتبه عام ١٩١٤ وتنبأ من قبل بظهور عدة اختراعات حدثت بالفعل، ولكنه فى هذا الكتاب تنبأ بعالم تسوده الطاقة النووية. قراه عالم معروف هو «ليوسيزلارد» عام ١٩٣٢ وأثار فى مخيلته إمكانية انتاج القنبلة الذرية.

(٢) «فرانكشتاين» للمؤلفه مارى شيلى عام ١٨١٨ الذى شاهدناه فى أفلام رعب عديدة. أثار هذا الكتاب الملايين من البشر الذين قرأوه ويحبون أن يحسوا بالخوف والرعب ولو لفترة قصيرة.

(٣) «من الأرض حتى القمر» بقلم جول فيرن عام ١٨٦٥ الذى أخرج أيضا فى فيلم معروف. تنبأ فيرن باختراع الغواصات والطائرات ولو أن البعض يقول أن الأفكار حول تلك الاختراعات سبقت عصره ولكنها لم تدخل حيز التنفيذ. وحتى عندما تخيل فيرن طريقة الوصول من الأرض إلى القمر فإنه تصور مدفعا يقذف بإنسان إلى سطح القمر، ولكنه قد يكون قد تخيل شكل صاروخ المستقبل. صدقت توقعاته عندما اختار فى كتابه ولاية فلوريدا كمركز لإطلاق المدفع وهى المنطقة التى تستخدم الآن فى الولايات المتحدة لإطلاق صواريخ الفضاء.

(٤) «انجازات لوثر ترانت» بقلم كل من أدوين بالمر ووليام ماكهارج عام ١٩١٠. الأثنان كتبا سلسلة من الروايات تتناول حياة أحد علماء النفس الذى تحول إلى مخبر بوليسى يدعى ترانت. الأخير استخدم فى تحقيقاته آله لكشف الكذب قبل أربعة عشر عاما من استخدام الشرطة لمثل هذا الاختراع.

(٥) «رحلات جاليفر» بقلم جوناثان سويفت عام ١٧٣٥. من منا فى حياته وحتى عندما كبر لا يغرم برحلات جاليفر المشهورة فى مناطق العمالقة ومناطق الأقزام والتى أخرجت فى عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية. فى منطقة لاجادو التى يشير اليها الكتاب، يتخيل سويفت آلة يمكنها كتابة الكتب، بينما فى الجزيرة لابوتا الطائرة بسبب قوة مغناطيسية، فإن علماء الفلك اكتشفوا - فى الرواية - قمرين صغيرين يحيطان بكوكب المريخ. حدث ذلك فى الحقيقة فيما بعد عندما استطاع علماء الفلك مشاهدة القمرين ولكن بعد مائة عام.

(٦) «بواسطة البريد الليلى» بقلم روديارد كيبلنج عام ١٩٠٥ وهو الكاتب الاستعمارى الذى كان يحتقر غير الأوروبيين وصاحب المقولة الشهيرة «الشرق شرق والغرب غرب». تخيل كيبلنج أن روايته تحدث عام ٢٠٠٠ والسماء ملئة بسفن فضائية أو طائرات تستخدم فى نقل الخطابات وغيرها إلى أى مكان فى العالم. هناك بالطبع الآن طائرات مخصصة لنقل البريد وغيره عن طريق شركات متخصصة بل أصبحت غير ضرورية فى نقل الرسائل بعد أختراع الأنترنت والفاكس الخ...

(٧) «القمر المصنوع من قوالب الطوب» اسم غريب لكتاب بقلم إدوارد ايفريت هال عام ١٨٦١. هال هذا أعطى لأول مرة وصفا لتصور كيف تعمل محطة فضاء تخيلها فى صورة شكل مخروطى مصنوع من قوالب طوبية طولها حوالى ثمانين مترا. بالمناسبة هال كان قسيسا مولعا بالقصص الخيالية.

(٨) «تشريح الميلانخوليه» بقلم رويرت بيرتون عام ١٦٢١ الذى أشار لأول مرة إلى وجود مخلوقات خضراء تأتى إلى الأرض من الفضاء وهو ما تصوره أفلام الخيال مرة بعد أخرى منذ عدة عقود.

(٩) رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل التى صدرت عام ١٩٤٩ والتى تشير إلى كاميرات مراقبة فى كل مكان يستخدمها الأخ الأكبر فى مراقبة المواطنين وشرطة مراقبة التفكير الخ...

(١٠) «نيو رومانسير» بقلم ويليام جيبسون عام ١٩٨٤ وهى السنة التى شهدت مولد أكبر كمبيوتر طرح للبيع للأفراد. تصور جيبسون فى كتابه قيام الأفراد فى المستقبل بتوصيل أنفسهم إلى الكمبيوتر للحصول على حياة متخيلة.

كل هذه الاختبارات التى توصل اليها بعض الكتاب البريطانيين تخضع لاعتبارات شخصية تماما، ولكن كنت اتمنى أن تشمل القائمة مثلا كتاب «آلة الزمن» التى شاهدناها فى أفلام عديدة ومسلسل تليفزيونى ناجح ويستطيع من يستعملها أن يرجع بالزمن إلى الوراء أو إلى المستقبل حيث يعايش أقواما كانوا يعيشون فى تلك الفترة أو أقواما أخرى فى المستقبل. كتاب خيالى جميل جدا لا أعتقد أن تنبؤاته ستتحقق فى المستقبل القريب، ولكن قد يحدث ذلك بحيث يجعلنا مثلا نعيش فى عهد رمسيس أو أحمس أو الحياة فى عام ٢٥٠٠. تخاريف نعم ولكن كل الاختراعات الحديثة نشأت من وحى تخاريف أصابت مبدعيها.

والآن نقتبس بعض فقرات كتاب ١٩٨٤ لجورج ايرويل حتى نتعرف على مغزى وأسلوب الرواية:-

«دقت الساعة الثالثة عشرة عندما دخل ونستون سميث شقته فى الدور السابع فى مبانى فيكتورى. الصوت الذى كان يسمع من الشاشة كان يتحدث عن الانجازات التى تحققت فى خطة العام الثالث والتسعين. تطلع من النافذة، المنظر الذى شاهده فى الخارج كانت تنتشر فيه صورة رجل بشوارب كثة وتحتها عبارة «الأخ الكبير يراقبك». كانت هذه هى مدينة لندن المدينة الرئيسية فى المطار رقم واحد وهى أيضا مقاطعة لدولة أوسيانيا.

«جلس داخل شقته بعيدا عن انظار بوليس الفكر. بدأ فى تصفح الكتاب الذى أحضره من مكان محظور على أعضاء الحزب أن يدخلوا إليه، وشعر على الفور برعشة فى معدته. الشئ الذى هو على وشك القيام به كان هو كتابة

مذكراته وهو جرم يعاقب عليه بالموت أو على الأقل ٢٥ سنة فى السجن مع الأشغال الشاقة.

«أنا عمرى الآن ٣٩ سنة ولدى مشاعر حقيقية. أنا لست مجرد صامولة فى تمثيلية هزلية داخل النظام السوفيتى الدكتاتورى.

«توقف ونستون عن الكتابة، قائلا لنفسه: ما فائدة ذلك؟ أننى مجرد كاتب. شرب من كوب يحتوى على شراب الجين (الكحولى) وذهب إلى عمله فى وزارة الحقيقة. شاهد صورة أمانويل جولد شتاين عدو الشعب على شاشات العرض تبعها فيلم تحت عنوان «دقيقتان من الكراهية» أعقبه إعلان معروف يقول: «الحرب هى السلام، الحرية هى العبودية، الجهل قوة». «عندما اختفت الصورة من على الشاشة، شاهد ونستون اوبريان عضو الجهاز التنفيذى للحزب الذى غالبا يكون قد رآه حوالى عشر مرات خلال السنوات الماضية. شىء فى وجه أوبريان أعطاه الانطباع أنه يتشابه معه فى ميوله السياسة، أى ليس كاملا فى هذا الاتجاه.

«شعر بمشاعر النشوة والتفوق. لم يحدث شىء كثير حتى تلك اللحظة لأن كل عمل قام به حتى الآن كان يرمى فقط لإظهار هشاشة العالم القمعى المقسم إلى ثلاث قوى عظمى هى أوسيانيا وأوراسيا وايست آسيا وكل منها فى حالة حرب دائمة مع الأخرى. وأثناء تجواله ادرك أن شابة صغيرة من وزارة الحقيقة قد وضعت خطابا فى جيبه.

«قرأ ونستون هذا الخطاب ووجد عليه عبارة «أنا أحبك». تساءل: لماذا تخاطر فتاه جذابة بكل شىء فى العالم فى وقت الحب والعلاقات الحميمة فيه ممنوعة لأعضاء الحزب، هل تخاطر من أجل رجل متوسط العمر وجهه مملوء بالندبات ولم تتحدث اليه قط من قبل؟ ولكن كل هذه التناقضات لم تزعجه لمدة طويلة، وفى الواقع بالمرة. دق قلبه بسرعة، إذ فى نهاية المطاف فإن الأمر قد بدأ بالفعل.

«لقد فعلت ذلك مئات المرات مع رجال عديدين» هذا ما قالته جوليا برقة وحنان وهما يجلسان على الحشائش فى إحدى الحدائق وهما يدخنان فى السر سيجارة الانتصار.

« أجاب ونستون» أنت بالطبع تعرفين أننا سنضبط معا فى النهاية؟ على المرء الاينسى وجود نظام قمعى مضيفا: «عند ذلك فإنه سيتم القضاء علينا».

«أجابت جوليا بتحد غير مدركة أنها قالت نفس الشىء مرات عديدة من قبل: «أنا لا آبه بأى شىء».

«كانت لقاءاتهما متباعدة خلال الأسابيع التالية، كل منها لا يستغرق أكثر من نصف ساعة ما بين الالتزامات الواجبة عليهما للحزب. وحتى ضجيج أحد الفئران بأحد الكنائس لم يتمكن من إخافة ونستون فعقله وقلبه أصبحا الآن حرين.

«قالت فى أحد الأيام: «يجب أن نذهب معا إلى أوبريان، فإننى واثقة أنه أحد الشخصيات القوية فى منظمة الأخوة ويمكن لنا أن نسجل أنفسنا فى حركة المقاومة».

أجاب: «يبدو ذلك كما لو أنه افتراض متسرع». لم تعلق جوليا.

«قال أوبريان وهو يشرب كوبا من النبيذ «أننى سعيد أنكما استطعتما المجىء، سأعطيكما نسخة من كتاب جولد شتاين المحرم لكى تقرآه».

«أنتهت الحرب مع أورآسيا ووجد ونستون نفسه يعمل طويلا أثناء الليل لكى يعيد كتابة تاريخ الحزب الذى كان يصور أورآسيا كعدو. أنا وجوليا فى حاجة إلى مكان منعزل نستطيع أن نمارس فيه الحب ونحن نستمع إلى نشيد «الله يبارك لك أيها الحاكم».

«وجد ونستون الغرفة التى عثر فيها على كتاب الذكريات. قالت جوليا وهى تضع بعض مساحيق التجميل المهربة على وجهها: «حبيبى أنها غرفة ممتازة». أجاب هامسا: «إنك تبدين جذابة جدا وأنت تخالفين وتتحدين السطوة الستالينية. والآن دعينى أقرأ عليك صفحة بعد أخرى من كتاب جولد شتاين الممل جدا الذى يكرر كل شىء تعلمينه عن النظام».

«سمعا صوتا من الشاشة يقول: «ارفعا أيديكما فى الهواء واقتربا ببطء، لقد تم ضبطكما وكنتما تعلمان أن ذلك سيتم».

«قال أوبريان ببطء وهو يضع جهاز الصدمات الكهربائية حول جسم ونستون»: يجب عليك أن تتعلم كيف تفكر فى شيئين متعارضين، أى فن الاحتفاظ بعقلين متعارضين فى نفس الوقت».

«أوكى أوكى أننى أومن أن ذلك شىء سياسى عظيم وأفضل نقد لروسيا السوفيتية، ولكننى لازلت أحب جوليا».

«إذن ستذهب إلى الغرفة رقم ١٠١ وتسمع حركات الجرذان».

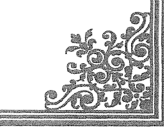
«جلس ونستون فى الميدان الفسيح وهو يستمتع بالإصغاء إلى ما يقوله الأخ الأكبر عن الانتصار العظيم. لماذا كافح كثيرا ضد الحزب؟ أنه لشىء عظيم أن تكون مجرد صامولة فى عجلات إحدى المهازل».

هذه مقتطفات مما جاء فى رواية جورج أورويل ١٩٨٤. قد تبدو الكلمات غير حية ومملة ولا تتناسب مع أحداث متلاحقة أو مثيرة، ولكن الرواية يجب أن تقرأ بالكامل حتى نستمتع بها. هى بالفعل تثير التأمل والتفكير أكثر من أى شىء آخر فليس بها حبكة بوليسية أو دموع وابتسامات وانما شذرات من هنا وهناك. أرجوكم اذا كانت لديكم نسخة من الكتاب أن تقرأوها مرة أخرى. أنا نفسى أعاود قراءتها كل ثلاث أو أربع سنوات فهو ليس كتابا طويلا ولكن فى كل مرة تكتشف شيئا جديدا. اذا لم تكن لديك نسخة أرجوك شراء واحدة. الذكرى الستون لهذه الرواية تجبرنا أن نتأمل ما حل بعالمنا، ونتساءل: هل كان جورج أورويل على حق؟ ■



تقرير جولدستون (٤)

شنت القوات المسلحة الإسرائيلية هجمات عديدة ضد المبانى وأفراد سلطات قطاع غزة. ففيما يتعلق بالهجمات التى شُنت على المبانى، فحصت البعثات الهجمات الإسرائيلية على مبنى المجلس التشريعى الفلسطينى والسجن الرئيسى بقطاع غزة (الفصل السابع). وقد دُمر كلا المبنيين ولا يمكن استخدامهما من بعد. وقد بررت البيانات الصادرة عن ممثلى الحكومة والقوات المسلحة الإسرائيلية هذه الهجمات بحجة مفادها أن المؤسسات السياسية والإدارية فى غزة هى جزء من «البنية الأساسية الإرهابية لحماس». وترفض البعثة هذا الموقف. فهى لا تجد أى دليل على أن مبنى المجلس التشريعى والسجن الرئيسى بقطاع غزة قد قدما إسهامًا فعالاً فى العمل العسكرى. وترى البعثة، بالاستناد إلى المعلومات المتاحة لها، أن الهجمات التى شُنت على هذين المبنيين تشكل هجمات متعمدة على أهداف مدنية بما يشكل انتهاكًا لقاعدة القانون الإنسانى الدولى العرفى ومفادها وجوب قصر الهجمات قصرًا حصريًا على الأهداف العسكرية. وتشير هذه الوقائع كذلك إلى ارتكاب خرق خطير يتمثل فى التدمير الواسع النطاق للممتلكات، الذى لا تبرره ضرورة عسكرية والذى تم القيام به على نحو غير مشروع ومفرط.





لقد تعلمنا أن الذين يقبضون على زمام السلطة العليا فى أمريكا ليسوا هم أولئك الذين تظهر أسماؤهم فى الانتخابات.. وإنما أولئك الذين تظهر توقيعاتهم أسفل الشيكات المخصصة للإنفاق على الحملات الانتخابية

الأدوية

التجارة أولا..

محمد يوسف عدس

فى صحيفة (الشروق) المصرية قرأت تلخيصا لمقال بصحيفة التايمز الأمريكية يتساءل فيه صاحبه: من المستفيد من إنفلونزا الخنازير؟ ومن الذى تضخمت أرصدته فى البنوك؟؟ يذكر من بين كبار المستفيدين من رواج (أو ترويج) إنفلونزا الخنازير شركات الأدوية ومنها شركة روش التى تتوقع جمع مليارى فرانك سويسرى بنهاية هذا العام من بيع لقاحاتها.. وتشارك فى هذه الأرباح بنصيب كبير شركة جيلد.. التى كان يرأس مجلس إدارتها دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق..!! كما تتوقع شركة جلاكسو أيضا أن تحقق إرتفاعا فى أرباحها من مبيعات عقارها البديل (ريلينزا).. والشركة بسبيل إنتاج لقاح آخر جديد سينزل السوق مع قدوم الخريف.. حيث يتوقعون تفجر وباء إنفلونزا الخنازير..

فى هذا الإطار قرأت تقريراً حديثا عن الأرباح التى حققتها شركة فايزر فى العام الماضى ٢٠٠٨، لا لأن هذه الشركة بالذات يهمنى أمرها، وإنما الذى يهمنى هو أن أرى حجم الأرباح والأموال التى تجمعها شركة واحدة ضمن مجموعة من الشركات فى كارتلة معينة.. يقول التقرير: إن شركة فايزر قد حصلت من مبيعاتها حول العالم فى عام واحد ثلاثة وخمسين بليون دولار، بلغت أرباحها من هذا المبلغ أحد عشر بليون دولار، ولكن النقطة الأهم هنا فى التقرير هى قول صاحبته (مارسيا آنجل) وهى باحثة وخبيرة فى مجال صناعة الأدوية: «كنت أظن فى الأيام الخالية أن شركات الأدوية تعنى فى أبحاثها بتطوير أدويتها لخدمة الإنسانية.. ولكنى اكتشفت أنها معنية فقط بتحقيق مزيد من الأرباح.. ولا تضيف إلى الأدوية شيئا ذا قيمة.. وإنما تنفق أكثر على برامج تسويق القديم تحت أسماء جديدة.. وتضع عليه أغلفة جذابة..» ثم تتابع فتؤكد ماهو أخطر، حيث تقول: «كانت الشركات فى الماضى تروج أدوية لمعالجة الأمراض، أما اليوم فإنها تروج لأمراض تناسب أدويتها القديمة..!»

وكنت قد التقيت مصادفة بأحد أساتذة الطب بجامعة الإسكندرية، فلما ذكرت أمامه حقيقة أن الأبحاث العلمية لم تقدم عقارا واحدا فعالا يمكن الاستغناء به عن الكيماوى فى علاج السرطان منذ أعلن نيكسون سنة ١٩٦٧ إطلاق مشروع بحث علمى للقضاء على مرض السرطان فى العالم، اعترض قائلا: بل هناك عشرات العلاجات الجديدة.. فسألته: هل تم الاستغناء عن العلاج الكيماوى..؟! قال: لا ولكنها أدوية مصاحبة، أثبتت فاعلية.. قلت: أنا لا أناقش فاعليتها.. ولكنى معنىّ بعلاجات بديلة تحل محل هذا الكيماوى الرهيب الذى يدمر الخلايا الحية ويقضى على جهاز المناعة فى جسم الإنسان ويسبب آلاما مروعة للمريض.. والحقيقة أن دراستى للتكتلات الاحتكارية أو (الكارتلات) وتأثيرها على الإنسان المعاصر هى التى لفتت نظرى إلى بشاعة تأثيرا كارتلات الصناعات الدوائية بصفة خاصة على حياة الإنسان ومصيره.. كان يدفعنى لمواصلة هذه الدراسة معاناة اثنين من أعز أصدقائى معاناة أدت إلى وفاتهما بسبب السرطان هما الدكتور عبد الوهاب المسيرى واللواء أحمد رمزى سليمان يرحمهما الله..

أود أن ألفت النظر هنا إلى نظرية راجت بين المهتمين والمراقبين، خلاصتها: أن القوى الكبرى الفاعلة فى هذا العالم تضم مجموعة من العلماء وكبار رجال المال والصناعة وأباطرة الإعلام فى العالم يجمعهم جميعا أيديولوجية واحدة يعتنقونها ويروجون لها.. مفاد هذه الأيديولوجية أن الموارد الطبيعية على الكرة الأرضية لا تكفى إلا لعدد من البشر لا يزيد على (٣.٨ بليون نسمة).. وأنه لا بد من التخلص من العدد الباقى من الستة بلايين نسمة (مجموع سكان العالم اليوم) ويتحدث البعض عن مذكرة قدمها هنرى كيسنجر (مستشار الأمن القومى) إلى الرئيس رتشارد نيكسون.. تحت رقم(NSSM٢٠٠)... وخلاصة هذه الوثيقة أن الزيادة السكانية المطردة فى دول العالم الثالث تعتبر تهديدا للأمن القومى الأمريكى،وأن الحروب والأوبئة الطبيعية وحدها لم تعد وسيلة ناجعة لوقف الانفجار السكانى ولا بد من اللجوء لوسائل مستحدثة وأسلحة جديدة لوقف الزيادة السكانية فى العالم،(من بينها التحكم فى إنتاج الغذاء العالمى، والتحكم تكنولوجيًا فى خصوبة النساء، واستطاعت بذلك إقناع الكونجرس بتخصيص مئات الملايين من الدولارات لهذا المشروع الإنسانى العظيم..! ولكن ثبت أن هذه الأموال قد أنفقت على تطوير أسلحة سرية بيولوجية وكيمائية.. ولم ينفق منها شىء يذكر على بحوث السرطان.. ولم يظهر منذ ذلك الوقت حتى اللحظة الحالية دواء واحد جديد يمكن أن يحل محل العلاج الثلاثى.

حقيقة صادمة:

إن شركات الأدوية لا تسعد فقط بانتشار الأمراض والأوبئة فى العالم بل هى تعمل على نشرها..! ومن وسائلها لتحقيق ذلك أن تغلق الطريق على العلاجات والأدوية البديلة غير المركبة كيميائيا.. وتستصدر من الحكومات قوانين وتشريعات لتحريمها، وتجريم من يقوم بممارستها من الأطباء، وتستعين عليهم بأجهزة الإعلام التى تملكها فتصمهم بالشعوذة والنصب والتدليس.. بينما هى فى الحقيقة علاجات أكثر فاعلية وأقل تكلفة.. ولا تسبب أضراراً جانبية مهلكة كالتى تلحقها الأدوية الكيميائية بالجسم والعقل.. ومن أبرز وأخطر الحملات الأمريكية فى هذا المجال حملتها على استخدام مستخلص نباتى فى علاج السرطان أطلق عليه مكتشفه اسم فيتامين (بى١٧) المعروف أحيانا باسم لاترايل Laetrile أو أبريكين أو أميجدالينا Amigdalina.. فقد طورد الأطباء الذين يمارسون العلاج بهذا العقار فى أمريكا.. واضطهدوا وحكم على بعضهم بالسجن.. وسحبت منهم رخص العمل.. لحرمانهم من ممارسة مهنة الطب والعلاج.. حتى اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى المكسيك لممارسة مهنتهم التى حرموا من ممارستها فى بلادهم

أين تذهب الأبحاث العلمية المستقلة:

تسمع من وقت لآخر عن أبحاث فردية مستقلة بعيدا عن مراكز الأبحاث الهائلة التى تملكها أو تسيطر عليها كارتلة الصناعات الدوائية، ولكن سرعان ماتندثر هذه الأبحاث فلا تجد لها أثرا بعد إعلان نتائجها الأولية.. ذلك لأن شركات الصناعات الدوائية لها بالمرصاد.. فهى قادرة بوسائلها المالية ونفوذها وتغلغلها فى الإدارات الحكومية على قمعها فى المهد..إما بالمحاصرة أوالإجراءات القانونية وغير القانونية.. وقد تشترى براءة الاختراع من أصحابها بسخاء.. ثم تضعها فى ظلمات خزائنها فلا ترى النور أبدا.

وهم كبير:

من حقك أن تقول «إنك تتحدث عن عالم تسود فيه الرأسمالية.. والرأسمالية تقوم على ركيزتين أساسيتين: المنافسة وحرية السوق أو الحرية التجارية..» وجوابى ببساطة هو: أن هذا مجرد نظرية.. ولكن ما أبعد هذه النظرية عما يجرى فى الواقع.. لا شك أن هناك هالات من القداسة الزائفة تحجب عن أبصارنا الحقائق المجردة.. وأعتقد أنه قد حان الوقت لإزاحتها.. لقد ترسخت هذه الهالات فى وعينا بفعل التضليل المكثف لعمليات التعليم والإعلام والتثقيف.. وهى عمليات تحيط بالإنسان المعاصر منذ ولادته حتى يتوارى فى قبره.. قلة

World Without Cancer: The Story of Vitamin B17,
G. Edward Griffin
American Media (CA); 1996

من الناس أفلتوا من هذه المصيدة واستطاعوا أن يروا العالم من منظور آخر.. وحاولوا تقديم رؤيتهم إلينا.. وأعترف أن على الإنسان أن يبذل جهدا مضنيا لكى يفلت من هذه الدائرة الجهنمية التى تحيط به.. لكى يتمكن من فهم واستيعاب هذه الرؤية.. ولكنه عندما يفعل سيشعر أنه يملك أداة جديدة تفسر له أشياء كثيرة كان يراها من قبل ألغازا وأسرارا ومتناقضات غير مفهومة.. أداة ستمكنه من رؤية العالم على حقيقته...!

الإحصاءات الرسمية عن انتشار مرض السرطان فى العالم تؤكد أنه فى تزايد مستمر لا تراجع فيه.. وأن معدلات الزيادة تشير إلى مصير بالغ السوء.. إذ يوجد فى أمريكا خمسة آلاف مريض بين كل مليون أمريكى، بينما تتضاعف إصابات السرطان فى بلاد أخرى كل عشر سنوات بمقدار ١٠٠٪.. وقد لاحظت المؤسسات الدولية المعنية بالأمر أن الإحصاءات التى ترد إليها من دول العالم الثالث (لأسباب عديدة) لا تمثل الواقع. وأن الحقيقة فيما يتعلق بانتشار مرض السرطان أبشع مما تمثله هذه الإحصاءات.. وأهم أسباب هذه المأساة إلى جانب تفاقم التلوث البيئى هو قصور العلاجات التقليدية.. وقصور البحث العلمى الجاد عن إيجاد علاجات حاسمة وآمنة.. والعقدة كامنة فى عدم رغبة الشركات المنتجة للعقاقير التقليدية أن تتخلى عن إنتاج هذه العقاقير باهظة التكاليف بالنسبة للمريض.. مادامت تدر عليها بلايين الدولارات بلا جهد يذكر ولا بحث ولا خوف من منافسة.. إنه موقف متعنت ولكنه مفهوم وواضح...!

أمـل جـديـد:

فى مقابل هذا التعنت هناك قدر كبير من المعرفة الطبية عن مادتين تستخدمان بنجاح فى السيطرة على مرض السرطان هما فيتامين سى بجرعات كبيرة.. وفيتامين بى ١٧.. وقصة هذا العقار الأخير هى ماتعنينى هنا بالدرجة الأولى.. يقول الأطباء الأمريكيون الذين استخدموه فى العلاج أنه حقا يحتوى على مادة سامة كما يروج أعداؤهم.. ولكن لا يمكن مقارنة سميته بسمية العلاج الكيماوى إذ لا تؤثر على الخلايا السليمة ولا تتفاعل مع أجهزة الجسم ولا الدم..



ولا تنطلق هذه المادة الفعّالة إلا عندما تصادف خلية سرطانية فتدمرها.. ليتخلص منها الجسم مع بقية إفرازاته.. ولمزيد من التفاصيل عن قصة فيتامين بى١٧ اقرأ كتاب (World Without Cancer) لمؤلفه G. Edward Griffin...

مدرسة جديدة فى علاج السرطان:

نحاول الآن استعراض وجهة نظر هذه المدرسة الجديدة فى كيفية نشوء مرض السرطان؟ وما هى نظريتهم فى الغذاء الذى يرجعون إليه صحة الإنسان ومرضه..؟.. وكيف يصبح التحكم فى العناصر الغذائية طريقا إلى الصحة والوقاية من المرض وعلاجه إذا حدث..؟! : السرطان فى نظريتهم هو نمو عشوائى لخلايا تسمى تروفوبلاست Trophoblast. التى هى نفسها جزء طبيعى وحيوى لعملية الحياة.. هذه الخلايا يقوم الجسم بإنتاجها خلال سلسلة من تفاعلات يتدخل فيها هرمون الإستروجين.. وعادة ماتجد الإستروجين بكميات كبيرة نسبيا فى أماكن الجروح والتمزّقات بالأنسجة ليساعد كمنظم أو محفّز على ترميمها.. وينشأ السرطان نتيجة تمزقات أو إجهاد مزمن فى مكان ما بالجسم (إدمان التدخين مثلا إجهاد مزمن للرئتين) وقد يحدث المرض نتيجة لتراكم المواد الكيميائية المضافة فى أطعمتنا المحفوظة، أو نتيجة فيروسات معينة تدخل إلى الجسم.. فهذه كلها من الأسباب التى تفجّر هرمون الإستروجين كجزء من عملية الالتئام الطبيعية.. وهى آلية شديدة التعقيد تستهدف السيطرة والحد من نموّ (خلايا تروفوبلاست).. وهناك عناصر كثيرة تتفاعل فى هذه العملية ربما من أكثرها تأثيرا مباشرا إنزيمات البنكرياس.. مع عنصر غذائى يعرف باسم Nitriloside أو فيتامين (بى١٧) وهى مادة عجيبة لها قدرة على تدمير الخلايا السرطانية بينما تحافظ فى الوقت نفسه على الخلايا الأخرى غير المصابة.. إنها مادة ذات طعم مرّ مستخلصة من نواة ثمار المشمش التى نلقى بها عادة فى صناديق القمامة.. جهلا بقيمتها العظيمة..! لا تندهش فما خلق الله داء إلا جعل له دواء فى هذه الطبيعة أو فى داخل الجسم نفسه لو استطعنا أن نمد أبصارنا بعلم إلى أبعد من مواقع أقدامنا..!

تبيّن لنا من نظرية هذه المدرسة الجديدة أن الإنسان لكى يتجنب السرطان عليه أن يتجنب أسباب التمزق والإجهاد المزمنين لأنسجة الجسم.. وأن يقلل من الأطعمة التى تحتاج الى إنزيمات البنكرياس فى هضمها.. والمحافظة على نظام غذائى غنى بالفيتامينات والمعادن خصوصا فيتامين بى ١٧.. ولكن هذا التفسير الغذائى لنشوء السرطان والوقاية منه يلقى معارضة هائلة.. عالية الصوت من قبل المؤسسات الرسمية الكبرى فى الولايات المتحدة.. ومنها وكالة الأغذية والأدوية FDA، وجمعية السرطان الأمريكية ACS، والجمعية الطبية الأمريكية AMA.. فكل هذه الهيئات دمغت التفسير الغذائى بالهرطقة والتدليس.. وذلك لدوافع سوف نتطرّق إليها فى موضعها.. فما هو موقف الأطباء الأمريكيين بصفة عامة..؟؟ يجيب على هذا السؤال «جى. إدوارد جريفين» فى

كتابه المذكور آنفا حيث يقول: «إذا ذهبت تقيّم موقف الأطباء لوجدت بينهم شيئًا من التفصيل: فهم أولاً ليسوا جزءاً من هذه المعارضة الضارية ولكنهم يستمعون إلى تصريحات المؤسسات الطبية الرسمية ويتقبلونها بثقة وبدون مساءلة.. غير أن البعض منهم لايمانع من أن يعطى العلاج بفيتامين بى١٧ الفرصة للتجريب فى العلاج، ولا يعرفون عن نتائج تجربته إلا مايصل إلى أسماعهم من بعيد.. وكلما ظهرت أدلة على نجاح هذا العلاج يشتد الجدل وتتعاظم المعارضة فى الأوساط الطبية، لماذا؟ يذهب البعض الى الاعتقاد بأن السبب يكمن فى أن السرطان قد أصبح فى الولايات المتحدة تجارة كبرى تُتداول فيها عشرات البلايين من الدولارات التى تُصب فى أرصدة كارتلات الصناعات الدوائية...»

ويؤكد جريفين أن هذه الثروات لا تأتى من ناحية التوسع فى الأبحاث وتطويرالأدوية كما قد يخطر على الذهن.. وانما يوجد جانب سياسى غير منظور يتمثل فى تبادل المصالح بين الأحزاب فى تنافسها على السلطة وبين المهيمنين على احتكارات الأدوية الخاصة بعلاج السرطان.. فالسياسيون يحتاجون إلى مال أصحاب هذه الصناعات العملاقة للإنفاق على الحملات الانتخابية الباهظة التكاليف.. وأصحاب هذه الصناعات يستفيدون من منافسات السياسيين ووعودهم.. إلى جانب مصالح تجارية ومكاسب أخرى..!» ويرى جريفين «أن هذا سوف يؤدّى إلى تكريس الأوضاع الراهنة فى الاتجاهات العلاجية.. التى تضيف فى النهاية كل يوم جيشًا جديدًا من المنتفعين بهذه التجارة الرائجة... ثم يتابع جريفين كلامه فيقول: إذا كنا نريد حقّا أن نسد هذا الشرخ الهائل الذى تتسرب منه المليارات، فليس علينا إلا أن نجرّب هذا العلاج البسيط الذى يوجد فى الطبيعة بكثرة وبثمن بخس.. ولكن هذه الحقيقة فى حد ذاتها تجعل أصحاب هذه التجارة يبذلون كل مافى وسعهم للتعتيم على أى حقيقة علمية تبشر بوسائل بديلة لعلاج السرطان.. لأن معنى ذلك أن يتنازلوا عن الأرقام الفلكية من أرباحهم فى تثبيت العلاج على وضعه الراهن...

> **حصلت شركة فايزر من مبيعاتها حول العالم فى عام واحد ثلاثة وخمسين بليون دولار، بلغت أرباحها من هذا المبلغ أحد عشر بليون دولار**



أعوان ولكن خارج دائرة الاتهام:

يجب أن ننبه هنا إلى أن (الجراحين وأطباء الأشعة والصيادلة والباحثين وكذا الآلاف من الناس الذين يثقون فيهم وينفقون بسخاء للحصول على العلاج والتخلص من هذا المرض البشع).. كل هؤلاء جميعا لا يمكن أن يمنعوا (وهم واعون) أى محاولة مخلصة للسيطرة على مرض السرطان..! فلا أحد يشك أنهم جميعا مهتمون بمقاومة السرطان.. وليس أحب إلى قلوبهم أكثر من أن يتمكنوا من وضع حد لمعاناة الإنسانية التى يسببها مرض السرطان.. علاوة على كل هذا فإن الأطباء والجراحين والصيادلة والمعالجين بالأشعة، يشعرون بأن هذا المرض المهلك يهددهم أيضا هم أنفسهم وأسرهم.. بنفس الدرجة التى يشعر بها بقية الناس.. ومن المعلوم والواضح انهم لا يملكون علاجات أخرى سريّة للسرطان يحتفظون بها لأنفسهم ولأسرهم..! يقول جى. إدوارد جريفين معلقا على هذه النقطة: «هل يتبع هذا بالضرورة أن نفهم أن كل معارضة للتشخيص والعلاج البديل الذى ألمحنا إليه سالفا هى معارضة بريئة.. وهل من الواجب علينا أن نؤمن بأن المنافع الشخصية والمصالح الخاصة الراسخة ليست عاملاً قائمًا وفعالاً..؟! لا.. بل يجب أن نعلم أن هناك فى أعلى الهرم الإقتصادى والسياسى للسلطة فى الولايات المتحدة توجد تكتلات ومصالح مالية وصناعية وسياسية متداخلة تداخلا مذهلا.. تشكّل بطبيعة تركيبتها وأهدافها العدو الطبيعى للمقترب الغذائى للصحة والعلاج.. ويحدد جريفين هذه النقطة بتفصيل أكثر حيث يقول: إنهم أعداء لفكرة أن منشأ السرطان والوقاية منه يتوقفان على كل ما يدخل الجسم من عناصر غذائية (ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه..!) وقد استطاع هؤلاء بما يملكون من قوة المال ونفوذ فى السلطة السياسية والإدارة أن يخلقوا مناخا متحيزًا.. بل مناهضا لموضوعية البحث العلمى.. فالتكتّلات الاحتكارية فى الصناعات الدوائية والكيميائية والأغذية سوف تقضى على أى بحث علمى يشكك فى قيمة منتجاتها أو يقترح بديلا عنها أنفع وأرخص تكلفة.. وسوف تحارب كل أسلوب أو طريقة علاجية بديلة عن الأساليب العلاجية التى فرضتها هى، وجعلتها

لاتسعد شركات الأدوية فقط بانتشار الأمراض والأوبئة فى العالم بل ربما كانت تعمل أيضا على نشرها..! بأن تغلق الطريق على العلاجات والأدوية البديلة غير المركبة كيميائيا



بروتوكولا راسخا فى الأوساط الطبية والتعليم الطبى.. وسخرت للحفاظ عليها واستمرارها قوى ومؤسسات ذات نفوذ خطير فى مجالات: السياسة والتشريع والإعلام، وبإنفاقها الهائل فى كل هذه المجالات... هناك كتب تتحدث عن وتحقيقات دارت فى أروقة مجلسى النواب والشيوخ فى الكونجرس الأمريكى.. وعلى لسان رجال من داخل هذه المنظومة الاحتكارية أصيبوا بصحوة ضمير مفاجئة.. إذا كنت تريد الحقيقة المجردة.. ولديك الصبر والقدرة على الإطلاع على ماهو مطبوع فى كتب ومقالات منشورة فى أوعية ورقية أو إلكترونية فسيصيبك الذهول..ويصعب سرد هذه المصادر فى هذا الحيز المسموح به وإنما نشير إلى بعضها فى عجالة: كتاب روبرت بروكتر How Politics Shapes What We Know and Don't Know About Cancer.

وكتاب لين كينسكى وروبرت بول Drug Industry In The Impact of FDA America Today.وكتاب رالف موس The Cancer Industry: Unravelling the Politics.وكتاب Doctors Business..

فى منظومة التزاوج الاقتصادى والسياسى لا شىء مستغرب.. فهنا تتوحد الدولة مع (البزنس).. ومن الناحية التاريخية لم يحدث هذا التوحد بطريقة طبيعية ولكن نتيجة جهود طويلة منظمة قامت بها قيادات التكتلات الاحتكارية.. مستندة فى نجاح عملها إلى عنصرين هما: قابلية السياسيين للإفساد والفساد، وسذاجة الناخبين وجهلهم...!

المشهد الأمريكى:

لقد تعلمنا أن الذين يقبضون على زمام السلطة العليا فى أمريكا ليسوا هم أولئك الذين تظهر أسماؤهم فى الانتخابات.. وإنما أولئك الذين تظهر توقيعاتهم أسفل الشيكات المخصصة للإنفاق على الحملات الانتخابية.. ونادراً ماتظهر أسماء هؤلاء الممولين السياسيين أمام الجمهور.. إن اللُحمة المصيرية بين هذه الشركات فى الكارتل تؤكد على أن انتماءها الأكبر والأوثق ليس لأوطانها الأصلية، وإنما لإله المصلحة العليا للكارتل..وأعنى به جمع الثروات والأموال بأى ثمن.. وهى تسلك لتحقيق هذا الهدف كل سبيل يمكنها من ذلك..ولكى تقوم بدورها على أفضل وجه تحرص على أن يوجد بصفة دائمة رجال فى أعلى قيادات السلطة الفدرالية يتولون مناصب إدارية فى الشركات التابعة للكارتل ويتلقون مرتبات عالية.. ويحتفظون دائما بعلاقات ونفوذ داخل الإدارة الأمريكية..!

إضافة إلى كل هذا فإن أسرة روكفلر (وهى تملك وتسيطر على أضخم إمبراطورية للصناعات الدوائية والبترولية والمالية فى العالم) قد استطاعت إنشاء علاقات وثيقة بالشخصيات المؤثرة فى الدوائر السياسية الحاكمة بتعيينهم مستشارين (لايعملون شيئا).. ولكن يتلقون مرتبات عالية نظير خدمات غير منظورة.. وعلاقات أخرى وثيقة مع المرشحين للكونجرس من كلا الحزبين الأمريكيين..وكان إسم وزير العدل نفسه على قائمة الذين يتناولون مبالغ كبيرة بصفة منتظمة نظير إستشارات مجهولة الهوية



كان جون فوستر دالاس (وزير الخارجية الأمريكى فى عهد الرئيس أيزنهاور) من رجال روكفلر البارزين.. كذلك كان هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى فى إدارة الرئيس ريتشارد نكسون ثم وزير الخارجية بعد ذلك ونعلم أيضا أن ديك تشينى نائب الرئيس بوش الابن كان مديرا لشركة هاليبارتون وأن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع السابق كان (وعاد الآن) مديرا لشركة مونسانتو التى تنتج مادة الـ(إسبراتيم)، والتى تدخل فى صناعة آلاف المنتجات لتحلية المشروبات والأغذية.. وهذه قضية أخرى طويلة..! ولكن السؤال هنا هو: ألا تعطيك هذه الصورة نوع القوة التى تملكها الشركات العملاقة ونوع الشخصيات التى تسخرها التكتلات الاحتكارية لخدمة مصالحها فى العالم والتغطية على أخطائها وجرائمها...؟!

وكالة الأغذية والأدوية:

هل تتصور أن وكالة الأغذية والأدوية الأمريكية يمكن أن تتخذ موقفا معاديا لمواد لا خطر فى تناولها فتضع عليها قيودا هائلة وتتراخى بالنسبة لأدوية ثبت ضررها على صحة الإنسان؟! قد يكون ذلك صعب التصديق، ولكن موقف الوكالة من فيتامين (B١٧) بالذات فلا يمكن وصفه إلا بأنه حرب إرهابية فاقت كل تصور معقول.. وهذا ما جعل كريج هوسمار عضو الكونجرس الأمريكى يوجه انتقادا لاذعا إلى الوكالة يقول فيه: «أعلم أنه لم تحدث وفاة واحدة بسبب تعاطى جرعات كبيرة من الفيتامينات. ولكنى أعلم أيضا أن هناك شخصا يموت كل ثلاثة أيام بسبب تعاطى جرعات كبيرة من الأسبرين.وعلى الرغم من أن الإحصاءات الرسمية تؤكد أن الأمريكيين يستهلكون فى السنة ما لايقل عن عشرين مليون رطل من الأسبرين فإن الوكالة لم تفكر مطلقا فى وضع إجراءات تنظيمية على تعاطى هذا العقار.. ولم تشترط على صانعيه وضع ملصق تحذيرى عليه.. وعلى عكس ذلك تماما اهتمت الوكالة بتحديد (ومراقبة) مقدار الجرعات التى لا ينبغى تجاوزها من مواد لا ضرر منها مثل الفيتامينات والمعادن..إن الخطر الحقيقى على الصحة العامة لا يوجد فى المكملات الغذائية العضوية ولا فى الفيتامينات التى تباع فى محلات الأغذية الصحية، إنما تكمن الخطورة فى الأدوية الكيماوية المصنّعة، والتى تتكدس على رفوف الصيدليات وفى المستشفيات بكميات كبيرة..» وينطلق من هذه النقطة جى إدوارد جريفين فيقول: «إن الجرعة الزائدة من الأسبرين ليس من الضرورى أن تكون فى مرة واحدة، ذلك لأن الاستخدام المستمر للأسبرين له تأثير تراكمى.. وإذا كان هذا العقار يتسبب فى وفاة أكثر من تسعين شخصا فى السنة فهذا العدد من الضحايا ليس بالأمر الهين..» (حاليا تروج شركات الأدوية إعلانا متلفزا ينصح بتناول قرص أسبرين يوميا بدعوى أن البحث العلمى أثبت فائدته فى الوقاية من مرض السرطان...!) ومع أن للأسبرين مضار كثيرة على الصحة فإنه يباع فى الصيدليات بدون روشتة طبيب. وقد أثبتت الخبرة اليومية لمئات من البشر أن أضرار تعاطى الأدوية الكيماوية يستوى فيها ما هو مباح وما هو مقيد بروشتة طبيب.. فالإحصاءات الأمريكية تشير إلى أن خمسة بالمائة على الأقل من المرضى الأمريكيين يدخلون المستشفيات بسبب الآثار الضارة لأدوية موصوفة بطريقة قانونية. ويبلغ عدد هؤلاء ثلاثة ونصف مليون مريض فى السنة.. هذا الإحصاء يرجع إلى الستينيات فى القرن العشرين. ويزداد عدد الضحايا من ذلك الوقت بصفة مستمرة.. وفى مقابل ذلك يقول جى إدوارد جريفين: «إن العلاج بالغذاء الطبيعى لم يتسبب فى أخطار صحية كالتى تنتج من تعاطى الأسبرين. ولم يتسبب فى كوارث صحية أو تشويه للمواليد كالذى نتج عن استخدام عقار «ثاليدومايد» فى عقد الستينيات من القرن الماضى..ولم تفعل الوكالة شيئا يذكر بإزاء هذه المخاطر بل تعاملت باسترخاء بالغ فى سحب هذه الأدوية من السوق ولم تتهم صانعيها ولا قدمتهم للمحاكمة، ولا قامت باضطهادهم ومطاردتهم كما فعلت مع منتجى فيتامين B١٧ ، ومع الأطباء الذين وصفوه علاجا لمرضى السرطان.. بل مع بعض المحاضرين الذين حاولوا توعية مرضى السرطان بوجود بدائل علاجية آمنة وأكثر فعالية من العلاج الكيماوى الشائع.. والقصة التالية تصور ما يمكن أن نسميه بدراما فيتامين بى ١٧:

تصفية المنافسين بأساليب مكيافلية:

فى سنة١٩٧٣أوقفت وكالة الأغذية والأدوية إنتاج وتوزيع مادة غذائية كان يطلق عليها اسم أبريكيرن Aprikern وكان هذا هو الاسم التجارى لمستخلص من نواة المشمش تم طحنه وعصره على البارد لإخراج الزيت منه واستبعاده، ثم وضعت المادة المطحونة الجافة على هيئة بودرة فى كبسولات، بهذه الطريقة يحتفظ المنتج بالنترلوسايد Nitrloside مادة ذات طعم مر) وهو الذى أطلق عليه مكتشفه فيتامين بى ١٧.. استخدمت هذه المادة فى علاج السرطان على نطاق واسع خلال العقد السادس وأوائل العقد السابع من القرن الماضى، وقدر عددهم بسبعين ألف مريض ولم ينتج عنه أى مخاطر أو

أضرار بمستخدميه، ومع ذلك أقدمت الوكالة على تحريم استخدامه وتجريم تداوله أو وصفه كعلاج.. واعتبرت من يحاضر أو يكتب دفاعا عنه مروجًا لدواء محظور استخدامه بحكم القانون يستحق العقوبة بالغرامة والسجن.. وقد استندت الوكالة في موقفها المتعسف إلى دراسة مزعومة أجريت في جامعة أريزونا (يقال) أنها أثبتت أن «الأبريكيرن» يحتوى على سموم (يمكن أن تقتل) الكبار والصغار.. تلاحظ في هذا التقرير أنه يقول (يمكن أن تقتل) ولم يقل إن الأبريكيرن (يقتل) كما هو ثابت بالنسبة للأسبرين مثلا.. كما تلاحظ أيضا إن الذين نسب إليهم القيام بهذا البحث قد أعلنوا في شهاداتهم أمام المحكمة أنهم جربوا العقار على الفئران فقط وليس من شأنهم أن يعمموا الحكم على الإنسان كما أشاعت الوكالة في وسائل الإعلام أثناء نظر القضية التي رفعتها أمام المحكمة.. ويستنتج جي إدوارد جريفين من هذا الموقف الغريب للوكالة حقيقة لا مفر من مواجهتها حيث يقول: «أليس من حقنا أن نتشكك في أن الإدارات الحكومية (ومنها وكالة الأغذية والأدوية) لا تعمل لصالح الشعب ورعاية صحته وإنما لصالح كارتلات صناعة الأدوية، إذ تقوم نيابة عنها باضطهاد بل تدمير كل منافس يظهر في طريقها.. إن هذه الكارتلات بإنفاقها الواسع على العملاء والمنافقين داخل الوكالة وخارجها لا تعدم وجود شخصيات ذات تأثير جماهيرى بحكم تخصصهم وموقعهم من السلطة، نذكر واحدا منهم هو «دكتور لويس كاسوث» مدير الصحة في ولاية أريزونا الذي يذهب أبعد من ذلك حيث يقول: «إن نواة المشمش خطر على الصحة فلا يجب كسرها أو أكل ما بداخلها» بينما تؤكد بعض الدراسات أن مجموعات بشرية في بلاد العالم الثالث تعتبر بذور المشمش وغيرها من البذور ذات الطعم المر جزءا ثابتا من طعامها اليومى، ولم يعرف عن هذه المناطق أنها تعانى من أمراض السرطان على الإطلاق.. والأمثلة موجودة عند الأبخاذ وعند قبائل الهونزا في جبال الهملايا ومناطق أخرى من العالم...

معضلة براءة الاختراع:

مشكلة فيتامين بى١٧في نظر الوكالة الأمريكية أنه عقار ليس له براءة اختراع مسجلة، ومن ثم لا يمكن للطبيب وصفه كعلاج لمرضاه إلا بالمخالفة للقانون، خصوصا بعد صدور قرار الوكالة بحظر استخدامه. لن نخوض في أسباب صدور مثل هذا القرار فهى واضحة من السياق، ولكن من صاحب المصلحة..؟ ومن الذى وضع قانونا ينظم هذه العملية بحيث يستبعد تلقائيا أى دواء ليس له براءة اختراع.. والأدهى من ذلك أنه وضع شرطا لا بد من توفره في العقار لكى يكون مؤهلا لبراءة الاختراع، وهى أن يكون مركبا من عناصر كيميائية (سنتاتك).. أما العقار الذى يستخلص من مواد طبيعية مباشرة فلا يمنح براءة اختراع.. وعلى هذا الأساس المتعسف تم استبعاد فيتامين بى ١٧ من قائمة الأدوية المصرح للأطباء بوصفها كعلاج للسرطان.. يظن كثير من الناس أن الوكالة لا تكذب ولا تقرر شيئا إلا بعد البحث العلمى والدراسة.. فهى في نظرهم مؤسسة محترمة موثوق بها، وهناك ملايين من الأطباء حول العالم عندما يتحدثون عن هذه الوكالة يتحدثون بقداسة كأنها المرجع النهائى لكل ما هو صحيح وصادق في مجالى الدواء والعلاج... هالة زائفة لو كانوا يعلمون...!!

الاحصــــاءات الرسمية عن انتشار مرض السرطان فى العالم تؤكد أنه فى تزايد مستمر لا تراجـــع فيه.. وأن معدلات الزيادة تشير إلى مصير بالغ السوء



المقاومة الباسلة:

يكشف جى. إدوارد جريفين عن عدد من الشخصيات الذين انتقدوا بقوة موقف وكالة الأغذية والأدوية المتحيز.. كما يعرض قصصا لمجموعة من الأطباء الأمريكيين الذين قاوموا هذه الوكالة ببسالة نادرة، وصمدوا أمام تحيزها واضطهادها لهم في محاكمات قضائية، وحاولوا إثبات زيف ادعاءاتها وكذبها فيما ادعت أنها أبحاث علمية استندت إليها في موقفها ضد فيتامين بى ١٧ واستخدامه في العلاج.. من أبرز هؤلاء دكتور «إرنست كريبس» مكتشف فيتامين بى ١٧ الذى استخدمه في علاج عدد كبير من المرضى وأثبت نجاحه، ولكنه اضطر إلى الدخول في معارك شرسة مع الوكالة التى عانى الأمرين من اضطهادها له فكتب إلى صديق له يصف بعض ما عاناه من جراء إصراره على إقناع الناس في محاضرات شرح فيها أهمية العلاج بفيتامين بى ١٧ وفاعليته.. كتب يقول : إذا أصر طبيب ما على اقتحام هذا المجال فلابد أن يفهم أن أفعاله وكلماته يمكن أن تكون لها آثار مدمرة على مركزه المهنى وعلى زوجته وأسرته.. بل حتى على سلامته الشخصية.. لقد أمضيت خمس ساعات في محاضرة مثمرة عن السرطان وعلاجاته البديلة أمام جمهور من المستمعين بلغ عددهم أربعمائة شخص في لوس أنجليس.. وفى الطريق وأنا عائد إلى سان فرنسسكو أصيب الزجاج الأمامى لسيارتى بعيار نارى.. وفى الليلة التالية أستهدف الزجاج الخلفى للسيارة بطلق نارى على بعد ثلاثمائة ميل من موقع الطلقة السابقة وكان من رأى رجال الأمن (أنه ربما كان شخص ما أراد أن يبلغك رسالة..!).. ويمضى دكتور كريبس في رسالته المطولة ليقول «لا أريد أن أدخل في تفاصيل كثيرة فيما يتعلق بالعنف المادى الذى يمكن أن نتعرض له من قبل جهات مجهولة.. ولكن لا تنسى أن المرحوم دكتور «آرثر تى. هاريس» هدد بالقتل بواسطة رجلين مجهولين إذا هو استمر في استخدام عقار لاترايل (فيتامين بى ١٧) في علاج السرطان.. ومنذ هذه الواقعة قمنا بتقسيم العمل فيما بيننا بحيث إذا أصيب اثنان منا بطلقات نارية يبقى برنامجنا حيا مقاوما دون أن يصل إلى نهايته المأساوية بالتوقف كما يرغبون...»

ويعلق جى إدوارد جريفين على ذلك فيقول : «إن مثل هذا الأمر يستدعى رجلا غير عادى يستطيع أن يصمد أمام الضغوط والتهديدات من هذا النوع البشع .. فهناك كثيرون يتحدثون عن الشجاعة الأدبية والتمسك بالمبادئ، ولكن عندما يجد الجد وتتناثر الشظايا في المكان فلن يبقى في المعمعة سوى نخبة قليلة من الرجال.. وكان دكتور كريبس واحدا من هؤلاء الرجال..!»

يتضح من تقارير كثيرة للأطباء أن إعلانات شركات الأدوية تحتوى على معلومات مبالغ فيها كما تحتوى على تزوير للحقائق.. ومع ذلك لم تكلف الوكالة نفسها بالتحقيق في واقعة واحدة مما ورد في هذه التقارير، وفى نفس الوقت اتجهت بكل قوتها لمطاردة المحاضرين الذين يتحدثون عن فوائد الأغذية الطبيعية لصحة الإنسان وأطلقت كلابها في حرب على مواد تباع في محلات الأغذية الصحية مثل عسل النحل وأجنة القمح ونوى المشمش...!

فارس آخر من فرسان المقاومة:

دكتور (جون ريتشاردسون) طبيب آخر من مجموعة دكتور كريبس المناضلة من أجل حصول مرضى السرطان على حق اختيار الطبيب الذى يرغبون فيه وعلى العلاج الذى يطمئنون له، كانت له مقاومته الباسلة ومأساته المدمرة أيضا: ففى ٢ يونية١٩٧٢ ألقى القبض عليه بتهمة انتهاكه لقانون الوكالة في كاليفورنيا وبالتحديد لاستعماله لا ترايل في علاج السرطان...هبط عليه ضباط الشرطة في عيادته أمام مرضاه وفى حضور مصورى الصحف والتلفزة الذين جلبتهم الوكالة خصيصًا لتصوير الواقعة.. فوضعوا القيود الحديدية في يديه كما فعلوا نفس الشىء مع مساعدين له.. وبعثروا كل شى في مكتبه واستولوا على أوراقه وملفاته ثم اقتادوه إلى السجن.. لقد كانت معركة دكتور ريتشاردسون القانونية للحصول على الحرية الطبية طويلة وباهظة التكاليف.. فبعد محاكمة استمرت عامين أعلن القاضى أن الأدلة غير كافية ولم يجمع المحلفون على إدانته فأطلق القاضى سراحه.. ولكن لم تهدأ وكالة الأغذية والأدوية فأخذت تتصل بمرضاه لعلها تجد واحدا متأففا من العلاج لتغريه برفع دعوى ضد دكتور ريتشاردسون وستدفع كل تكاليف القضية.. ولكن ولا واحد من مرضاه قبل

هذا العرض..فيما عدا والد لإحدى المريضات..كان له رأى مسبق بعدم جدوى هذا العلاج..فلما جاءت ابنته للشهادة أمام المحكمة دافعت عن العلاج وأكدت أنها تحسنت على تعاطيه ومن ثم رفضت الدعوى...

فاتجهت الوكالة إلى أساليب مكيافيلية أخرى، وفتحت لمحاربته جبهة جديدة.. فأخذت تراقب رسائل الأدوية المرسلة إلى مرضاه فى ولايات متعددة وأقامت ضده دعاوى قضائية بتهمة نقل دواء (لاترايل)المحظور بالقانون..وبهذه الطريقة حاولت إنهاكه وتدمير حياته فقد كان عليه أن يُوكّل محاميا عنه فى كل ولاية، وأن يحضر عشرات المحاكمات فى ولايات مختلفة استهلكت وقته وماله وحولت حياته إلى جحيم.. وأغرقته فى مستنقع من التحقيقات التى لا تنتهى.. ثم سلطوا عليه مصلحة الضرائب فاجتاحت مكتبه مرة بعد مرة.. واستولت على كل دفاتر حساباته.. وطالبته بوضع مبلغ كبير من المال فى مصلحة الضرائب قيد القضية.. ووجهت له تهديدا باقتحام منزله إذا لزم الأمر..وشعر بأنه قد هُزم أمام مكائد وكالة الأغذية والأدوية..!!

وفى سنة ١٩٧٦ كان فى طريقه للإدلاء بشهادته أمام لجنة كاليفورنيا للقوانين الصحية وكان الموضوع: مشروع بقانون لاستخدام لاترايل فى علاج السرطان..ولكن قبل وصوله إلى قاعة الاستماع ألقى زبانية الوكالة القبض عليه مرة أخرى، واقتادوه مكبلا بالقيود الحديدية بتهمة التآمر لتهريب لاترايل.. وفى أثناء التحقيق أرسلت الوكالة إلى جمعية الأطباء الفدرالية وإلى مجلس امتحان الأطباء فى فلوريدا بمذكرة مطولة عددت فيها مخالفات نسبتها إلى دكتور ريتشاردسون افتراءً.. واتهمته بتشجيع مرضاه على عدم الخضوع للجراحة أو العلاج الكيماوى مما يلحق أكبر الضرر بصحة المرضى.. وأنه يستخدم علاجا ثبت عدم فاعليته فى علاج السرطان..لذلك تطلب الوكالة من المجلس سحب ترخيص العمل من هذا الطبيب المتمرد..ثم كانت الضربة القاضية عندما تآمرت عليه بأساليب خسيسة أخرى إذ رفعت ضده قضيتين فى محكمتين بولايتين مختلفتين لتُنظرا فى نفس الوقت..! خطة جهنمية تجبره على التغيب قهرا من إحدى المحكمتين ومن ثم يُحكم عليه غيابيا بالسجن.. يصف الرجل جلسة المحاكمة التى تمكن من حضورها بأنها كانت استعراضية أشبه ماتكون بمحاكمات ستالين الشهيرة..وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٦ صدر قرار بسحب رخصة عمل دكتور ريتشارد سون فاضطر إلى الانتقال إلى المكسيك حيث توفى سنة ١٩٨٨...

وإلى جانب الطبيبين (إرنست كريبس) و(ريتشاردسون) ناضل أطباء آخرون وأدخلوا السجن بتهم ملفقة منهم (جيمس بريفيتيرا) و(دوجلاس برودى) و(فيليب بينزل).. وهذا الأخير لم يسجن ولكنه أمضى عشر سنوات (مرمطة) فى المحاكم الأمريكية لأنه تجرأ على مقاضاة شركات الأدوية التى تحتكر صناعة أدوية السرطان وتفرض حظراً على الأطباء الذين وصفوا لمرضاهم بدائل فعالة فى العلاج.. بريئة من الآثار السمية للعلاج الكيماوى..

ويلخص دكتور ريتشارد سون تجربته هذه فى خطاب له يقول فيه :عندما قامت الولايات المتحدة بمحاكمة مجرمى حرب النازى بتهمة ارتكاب جرائم حرب دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما كانوا ينفذون أوامر قادتهم ويطيعون قوانين الدولة.. ولكن هذا العذر لم يشفع لهم للتنصل من مسئوليتهم الجنائية..وهب العالم الحر كله يصيح: لا.. إنكم مذنبون فإن الإنسان من واجبه الأخلاقى أن يستجيب لقانون أعلى من قانون وطنه عندما تأمر قوانين وطنه بقتل أناس أبرياء..عليه أن يرفض هذه القوانين ويقف مع ضميره.. فإذا لم يفعل فإنه يستحق العقاب، وهكذا حكم عليهم بالإعدام.. يقول الرجل: « فى المعركة التى جرت مؤخرا فى مجال علاج السرطان قضى كثير من الناس نحبهم بلا مبرر سوى أنهم خضعوا مستسلمين للعلاج بجرعات سامة يسمونها الكيماوى..لقد مات من مرضى السرطان حتى الآن أعداد أكثر بكثير من ضحايا كل الحروب مجتمعة فكم من المعاناة والموت على الأمريكيين أن يتحملوا قبل أن يقفوا ضد البيروقراطية العاتية؟! كم من الأطباء سيوضعون فى السجون قبل أن تستيقظ جموع الأطباء وتصيح: كفى...؟! كم من فضيحة مثل (ووترجيت) نحتاج قبل أن نفهم أن الإنسان تفسده السلطة..؟! إن روح المقاومة موجودة..إنها معلقة فى الهواء فوق رؤوسنا.. أشعر بها تهفهف كنسيم منعش..إنها تمنحنى أملا فى المستقبل..لقد قررت أن أقف وحدى حتى لو انفض جميع الناس من حولى...! ولكنى وأنا أكتب كلماتى الأخيرة يساورنى العجب: هل هناك من أحد غيرى يقف معى فى هذه المحنة..؟!»

ثم سكت ريتشاردسون ■



تقرير جولدستون
(٥)

وعلى الرغم من أن الأحداث التى حققت فيها البعثة لم تثبت استخدام المساجد لأغراض عسكرية أو كدروع لحماية أنشطة عسكرية، فإنها لا تستطيع استبعاد احتمال أن يكون ذلك قد حدث فى حالات أخرى. ولم تعثر البعثة على أى أدلة تدعم الادعاءات القائلة بأن سلطات غزة أو الجماعات المسلحة الفلسطينية قد استخدمت مرافق المستشفيات كدروع لحماية أنشطة عسكرية أو أن سيارات الإسعاف قد استخدمت لنقل مقاتلين أو لأغراض عسكرية أخرى. وبالاستناد إلى التحقيقات التى أجرتها البعثة بنفسها وإلى البيانات الصادرة عن مسؤولى الأمم المتحدة، تستبعد البعثة أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد باشرت أنشطة قتالية من منشآت الأمم المتحدة التى استخدمت كملاجئ أثناء العمليات العسكرية. بيد أنه لا يمكن للبعثة أن تستبعد احتمال أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد عملت بالقرب من هذه المنشآت التابعة للأمم المتحدة وهذه المستشفيات. وفى حين أن مباشرة أعمال القتال فى المناطق المبنية لا يشكل فى حد ذاته انتهاكًا للقانون الدولى، فإن الجماعات المسلحة الفلسطينية، فى الحالات التى تكون فيها قد أطلقت هجمات بالقرب من مبانٍ مدنية أو مبانٍ محمية، تكون قد عرضت سكان غزة المدنيين للخطر على نحو غير ضرورى.



أحمد زكريا الشلق



يتفرد نهر النيل بين أنهار الدنيا، كما تتفرد مصر فى حوضه، ولسنا نبالغ إن قلنا إن مصر هى النيل، فتلك حقيقة أولية تتعلق بوجود مصر، فبدونه لا كيان لها، كما يقول جمال حمدان، ليس فقط من حيث مائه، وإنما كذلك من حيث تربته، فالنيل، بأى مقياس، نهر غير عادى، جيولوجيا وجغرافيا، تاريخيا، وحضاريا..

وكانت تلك نقطة البداية فى تفكير مؤلفنا «أمين سامى باشا» حين اتخذ من النيل، فى سخائه وكرمه وفيضانه، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويمًا حوليًا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر، فتتبع أحوالها، مقرنًا ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق فى تأليفه ما ينيف عن ربع قرن من الزمان.

ومؤلفنا سليل مدرسة تاريخية مصرية أصيلة، تمتد جذورها إلى العصور الوسطى الإسلامية. وإن تطورت بعد ذلك تطورًا عظيمًا ـ كانت لها تقاليدها ومناهجها، وكانت سمتها البارزة أن كتابها كانوا يعتمدون على النقل الحرفى فى معظم الأحيان، عندما يؤرخون لعصور سبقتهم، ولا يأتون بجديد، إلا عندما يصلون بكتاباتهم إلى التأريخ للعصر الذى يعيشون فيه، كما لم يحفلوا كثيرًا بنقد الروايات أو تحليلها، أو حتى إبداء الآراء بشأنها، وبشكل عام كان معظمهم يتبعون طريقة «الحوليات» التى يؤرخون فيها لمصر، وللعالم الإسلامى، عامًا فعام، وقليل منهم حاول التأريخ للموضوعات أو الدول، كما فعل ابن خلدون.

غير أن هذه المدرسة ما لبثت أن تطورت مع بداية العصر الحديث، خلال فترة الحكم العثمانى، حتى لقد برزت فيها ثلاث مدارس واضحة، أولها مدرسة المؤرخين من العلماء، وهم أولئك الذين ظلوا على ولائهم لتقاليد مدرسة التاريخ الإسلامى التى كانت سائدة قبل عصرهم، ومن أبرز أعلامها، ابن إياس وأحمد شلبى بن عبدالغنى والإسحاقى والبكرى والشرقاوى، ثم الجبرتى، الذى مثل نقلة نوعية كبيرة فى تطور هذه المدرسة. وثانيها مدرسة التراجم، التى نشطت خلال العصر العثمانى بشكل واضح، وكان من أبرز كتابها العينى والمحبى والزبيدى، وكذلك الجبرتى. أما المدرسة الثالثة فيمكن تسميتها بمدرسة الأجناد، التى قدمت مادة تاريخية فريدة فى أهميتها، رغم افتقادها إلى خطة للبحث والكتابة، ويمثلها ابن زنبل والدمرداش كتخدا عزبان، ومصطفى ابن الحاج إبراهيم.

صحيح أن هذه النهضة فى مجال التأليف التاريخى فى مصر بدأت مع غروب القرن الثامن عشر، وعلى أيدى شيوخ الأزهر وعلمائه، والذين برز منهم الزبيدى والشبراوى والعطار والخشاب والجبرتى، مما كان يوحى بأنها نهضة طبيعية تلقائية، بدت لبعض الكتاب وكأنها إرهاصات نهضة فكرية عامة، بيد أن تطور التعليم والثقافة خلال القرن التاسع عشر، أدى إلى ظهور رواد جدد فى مجال البحث والتأليف، أسهموا بدورهم فى دفع هذا التطور الثقافى العام، الذى غذى التأليف التاريخى، ومع تبنى محمد على لسياسة إصلاحية، كان من أبرز أسسها الاستفادة من حضارة الغرب والنقل عنه، من خلال البعثات والمبعوثين، واستقدام الخبراء والمعلمين والفنيين، فضلاً عن حركة الترجمة الواسعة والنشطة، ونتيجة لهذه النهضة العامة، أعطيت دفعة جديدة لنهضة الكتابة التاريخية. التى كان الجبرتى قد بدأها. فاتخذت هذه الدفعة سبيلاً آخر، وتأثرت بعوامل كثيرة كان أهمها اعتماد النهضة العلمية والثقافية على الترجمة، وبطبيعة الحال لم تشذ حركة الكتابة التاريخية عن ذلك، ولعل هذا يفسر كيف ترجمت فى عصر محمد على أعداد كبيرة من كتب التاريخ ومن سير الحكام.

وقد بدا واضحاً أن المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر قد تأثروا بالمنهج العلمى الحديث، الذى لاحظوه، فيما قرأوا ودرسوا وترجموا من كتب التاريخ الأوروبية، فتخلوا عن الكتابة بطريقة الحوليات على نحو كبير، وبدأوا يهتمون فى مؤلفاتهم بالموضوعات وبالعصور والدول، فيؤرخون لهذا العصر أو ذاك أو يضعون فصولاً مستقلة فى موضوعات بعينها أو يؤرخون لدولة ما، وقد برز هذا واضحاً فى كتابات الطهطاوى، وميخائيل شاروبيم، ومحمود فهمى، وإسماعيل سرهنك، وجورجى زيدان.

كما بدا المؤرخون يستفيدون من العلوم المساعدة لتفسير الواقع وفهمه، فاستعانوا بالوثائق والنميات والآثار والنقوش والكشوف الجغرافية وغيرها، وهى علوم قل من استعملها من السابقين، وقد ضمن الجبرتى كتابه الشهير «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» الكثير من وثائق الحكم الفرنسى لمصر، فضلاً عن وثائق المماليك والأتراك، كما كان يرجع إلى النقوش المرقومة على شواهد القبور، وسجلات الكتبة والمباشرين، كما فعل ذلك أيضًا على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية»، وكذلك سليم نقاش فى كتابه «مصر للمصريين»، وفيليب جلاد فى «قاموس الإدارة والقضاء».

ويلاحظ كذلك أن أساليب الكتابة قد تغيرت كثيرًا، فابتعدت تدريجيًا عن العناوين المسجوعة، والألفاظ والعبارات المثقلة بالمحسنات، حيث بدأ المؤرخون ينشئون بأسلوب سهل مرسل، ومع أواخر القرن التاسع عشر كادت لغتهم أن تخلو من السجع لتتميز بأسلوب جميل خالٍ من الركاكة والعجمة. أما موضوعات التاريخ فقد تغيرت هى الأخرى واتسعت مجالاتها وتنوعت، فبعد أن كان مؤرخو مصر الإسلامية يعنون بالتاريخ السياسى عناية فائقة، ولا يحفلون كثيرًا بالنواحى الحضارية الأخرى، ارتاد مؤرخو القرن التاسع عشر مجالات النشاط البشرى الحضارية جميعًا فى مؤلفاتهم، فأرخوا لنظم الأراضى والتعليم، وشئون الحكم والإدارة، كما أرخوا للرق ولمشاكل المجتمع، وللثورة العرابية، ولتاريخ التمدن على وجه العموم.

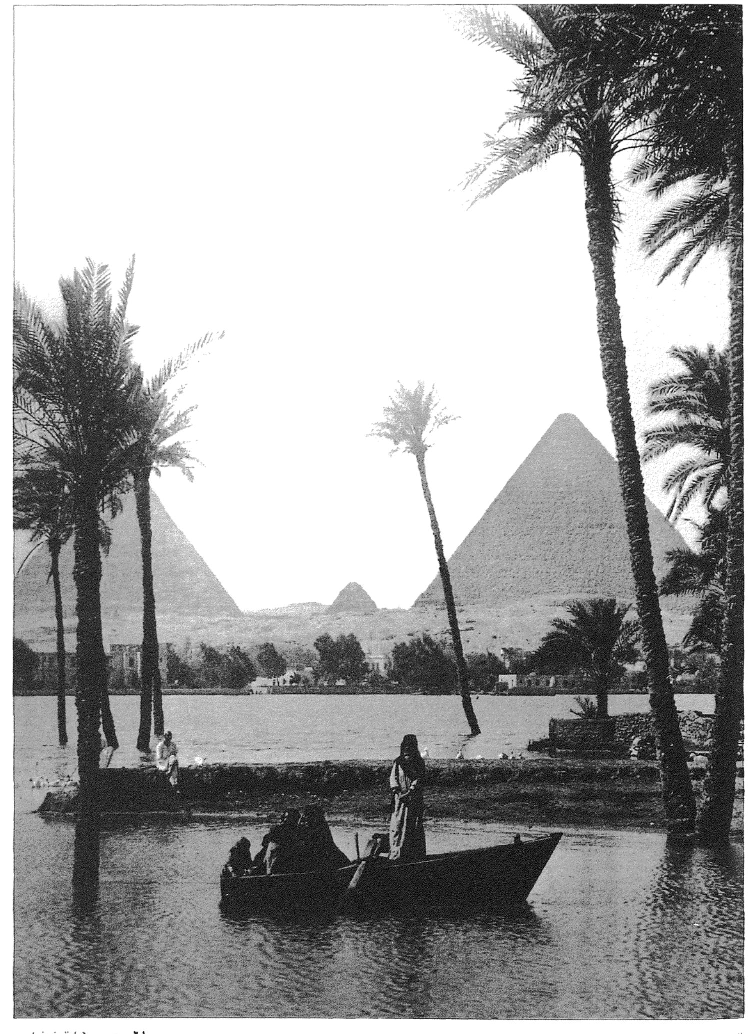
ومع ذلك التطور الذى حظيت به كتابة التاريخ من حيث مصادرها وأساليبها وموضوعاتها، نلاحظ أن ذلك كله قام على جهود أولئك الهواة الذين شغفوا بالتاريخ حبًا، فباستثناء جهود الجبرتى والطهطاوى فى مؤلفاتهم التاريخية، لم يظهر مؤرخون محترفون كرسوا حياتهم لدراسة التاريخ وتخصصوا فى كتابته والبحث فيه.

ولسنا نبالغ كثيرًا إن قلنا إن المدرسة التاريخية المصرية شرعت تتنقل تدريجيًا من تقاليد «الحوليات» إلى التاريخ العلمى، وإن ظل الاهتمام بالتسجيل الحولى قائمًا بدرجة أقل كثيرًا مما سبق، وقد أسهمت جهود المؤرخين فى بلورة وعى تاريخى، ساهم بدوره فى تكوين الوعى القومى العام، وتكوين الأيديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعى فى مصر «النهضة»، كما يذكر أنور عبدالملك، كما يلاحظ أن هذه الجهود مرت بمرحلتين واضحتين أولاهما مرحلة الجبرتى ومدرسته، والتى ينبغى النظر إلى كتاباتها فى إطار عصرها وفى دائرة قرائها المحدودة التى تتمثل فى كبار رجال الدولة والقادة، أما جمهور المثقفين فقد كان عليهم أن ينتظروا الطهطاوى الذى أطلعهم على الثقافة التاريخية وعلى الثقافة الحديثة فى شتى مجالاتها. وثانيتهما مرحلة الطهطاوى ومدرسته وحركة الكتابة التاريخية فى عصر الخديو إسماعيل، حين حدث الاعتراف بالتاريخ كعلم لأول مرة، وصار مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن، يدرسها معلمون مختصون، وبينما

اتخذ مؤلفنا «أمين سامى باشا» من النيل، فى سخائه وكرمه وفيضانه، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويمًا حوليًا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر



تقويم النيل
لواضعه: أمين سامى باشا
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ٣، ٢٠٠٩.



اهتم تلاميذ الطهطاوى بترجمة الكتب التاريخية على نحو ما هو معروف، فإن عصر إسماعيل شهد اهتماماً واضحاً بتأليف الكتب.. وبفضل جهود فريقين من مدرسة الطهطاوى، فريق الأزهريين وفريق مدرسة الألسن، وجد المثقفون المصريون والعرب بين أيديهم مجموعة من المؤلفات التاريخية تعالج مختلف العصور فى العالم وبطريقة علمية حديثة.

لقد ذكر الطهطاوى فى كتابه «أنوار توفيق الجليل...» عبارة لها مغزاها حين ذكر أن أعمال مؤرخى العصور القديمة يجب أن تمر عبر غربال النقد العقلى، حتى يستبعد منها ما يرى أنه من «محض الخرافات أو من اختراع الأباطيل.. والعجائب التخيلية وخوارق العادات»، وهكذا أصبح التسجيل التاريخى بفضل الطهطاوى ومدرسته، تأريخاً بالمعنى العلمى للكلمة، وذلك بفضل تحرى الدقة ونقد الأصول وإعمال العقل، وبفضل المنهج الحديث الذى استخدم.

وقد حظى النيل والتأريخ له، ولفيضانه وتحاريقه، باهتمام كتاب القرن التاسع عشر، فها هو المهندس محمود باشا الفلكى، أستاذ على مبارك وأمين سامى، والذى نشرت أبحاثه فى المجلات العلمية الأوروبية، والتى مزج فيها بين الدراسات التاريخية والدراسات العلمية الخالصة، جمع بيانات موثقة عن فيضان النيل وتحاريقه عن الفترة ما بين عامى (١٨٢٥ - ١٨٨٤) وضمنها فى كتاب كان مرجعاً لمهندسى الرى والنيل، كما أن تلميذه على مبارك قد ضمن الأجزاء الثلاثة الأخيرة من خططه، دراسات مستفيضة عن النيل وفيضانه ومقاييسه وترعه، كما يصدق نفس القول على كتاب له يحمل عنوان «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» الذى طبع بالقاهرة عام ١٨٧٢، وهو كتاب تتمثل أهميته فى دراسة تاريخ نهر النيل ونظم الرى ومشاريعه فى مصر. ثم جاء أمين سامى باشا، الذى كان تلميذاً للفلكى وعلى مبارك، ليضع لنا كتابه الوثائقى المهم «تقويم النيل» الذى لم يكن مجرد كتاب عن النيل وأحواله، وإنما عن تاريخ مصر والمصريين.

أمين سامى ومؤلفاته:

ومؤرخنا أمين سامى باشا (١٨٥٧ - ١٩٤١) هو ابن الشيخ محمد حسن البرادعى المصرى، الذى ينسب إلى «البرادعة» إحدى قرى قليوب بالدلتا المصرية، وكان أبوه وجده شيخين للقرية مما يعنى أنه نشأ فى أسرة ميسورة من أسر شيوخ القرى المصرية فى القرن التاسع عشر. وبالرغم من أنه ليس لدينا معلومات كافية عن نشأته وسنى تعليمه الأولى، إلا أنه من الواضح أنه تلقى تعليماً أولياً فى قريته، لم يلبث أن استكمله فى القاهرة، التى لا تبتعد كثيراً عن بلده، قبل أن يدخل مدرسة المهندسخانة، (التى كانت قد تأسست منذ عام ١٨٣٤) وذلك فى عهد نظارة محمود باشا الفلكى لها (١٨٧١ - ١٨٨٢) وفى هذه المدرسة تلقى أمين سامى تعليماً فنياً، أهله لحياة عملية انتظم خلالها فى سلك التعليم الفنى، فعين مدرساً بمدرسة المساحة فى بنى سويف وذلك فى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وكانت هذه المدرسة تؤهل الطلاب للدراسة بمدرسة المهندسخانة، وقد شغل أمين سامى وظيفته تلك نحو خمس سنوات، قدم فيها لطلابه مختصراً لهندسة إقليدس.

انتقل مؤلفنا بعد ذلك للعمل مفتشاً بنظارة المعارف حيث أظهر نشاطاً كبيراً فى ظل رئاسة المسيو دوريبه السويسرى، الذى يعد أحد الشخصيات الأوروبية المرموقة التى خدمت التعليم بمصر، وإليه يعزى تأسيس أول مدرسة للمكفوفين بمصر. وقد انتهى عهد الخديو إسماعيل (١٨٧٩) وأمين سامى فى وظيفته تلك. ونتيجة لنشاطه الجم وخبرته الواسعة وسمعته الطيبة. عهد إليه بإنشاء مدرسة ابتدائية بالمنصورة، فأسسها على أحدث طراز فى عصرها، وطورها بأن أضاف إليها فصولاً تجهيزية (ثانوية) وكان من أنجب تلاميذه فيها أحمد لطفى السيد - أستاذ الجيل فيما بعد - الذى روى عنه فى ذكرياته أنه كان غلاماً ذكياً ينزع إلى الفلسفة والتفكير مع حداثة سنه.

تتبع مؤلفنا «أمين سامى باشا» أحوال مصر، مقرناً ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق في تأليفه ما ينيف عن ربع قرن من الزمان

وفى مدرسة المنصورة قدم أمين سامى أسلوباً جديداً فى التربية والتعليم لتنشئة الطلاب، فكان يكلفهم بإعداد موضوعات معينة خلال الأسبوع ثم يحشد المعلمين وكبار الموظفين والنابهين ليتحدث إليهم الطلاب، كل فى موضوعه من الذاكرة حديثاً مرتجلاً. وقد زار الخديو توفيق هذه المدرسة عام ١٨٨٣ حيث اصطف التلاميذ لاستقباله وهم يلبسون ثياباً بيضاء كالتى يلبسها الجند بالثكنات، وقد أبدى الخديو إعجاباً شديداً ببناء المدرسة وتنظيمها ونظافتها وبنظام التعليم فيها، حتى إنه تولى بنفسه امتحان التلاميذ باللغة الفرنسية.

ويبدو أن أمين سامى عمل فترة فى دار المحفوظات المصرية منذ عام ١٨٨٠، انتقل بعدها للعمل مفتشاً بنظارة المعارف مرة أخرى، ومنها انتقل إلى وظيفة أكبر وأكثر أهمية عندما تولى مدرسة الناصرية (المبتديان) حيث مكث بوظيفته هذه نحو ربع قرن، بين عامى (١٨٨٥ - ١٩١٠) استطاع خلالها تأسيس مبنى عصرى للمدرسة بالمنيرة، حتى صارت مدرسة لأبناء الأعيان وصفوة المجتمع المصرى، باعتبارها أرقى مدرسة فى مصر حينئذ، وكانت أشبه بكليتى «هاو» و«إيتون» بإنجلترا حيث يربى أبناء العائلات والأسر تربية خاصة. وقد ذكر أمين سامى أن اللورد كرومر، المعتمد السياسى البريطانى فى مصر قد زار المدرسة وأثنى على نظامها ونظافتها وبرامجها الدراسية، كما زارها الخديو عباس حلمى مرتين.

وقد أضاف أمين سامى فى ذكرياته عن هذه المدرسة أنه ابتدع مخالطة المعلم لتلاميذه، والعناية بالرياضة، وإذكاء المنافسة بين الطلاب عن طريق الجوائز ولوحات الشرف وتنشئتهم على النهج الذى رسمه الدين الحنيف «وقد تهافت رجالات مصر وكبراؤها وأعيانها على المدرسة يضعون أبناءهم تحت رعايتى وإشرافى، وكانوا يفضلون إلحاقهم بالقسم الداخلى رغم سكناهم بالقاهرة..»، وقد تخرج من هذه المدرسة من كبار شخصيات مصر البارزين كل من مصطفى النحاس وعلى ماهر وأحمد ماهر وعلى الشمسى وزكى العرابى وحافظ رمضان وغيرهم.

ونتيجة للسمعة العلمية والإدارية التى حازها أمين سامى، عهد إليه فى نهاية القرن التاسع عشر بنظارة مدرسة دار العلوم أيضاً، وذلك فى عهد نظارة مصطفى فهمى باشا (١٨٩٥ - ١٩٠٨) الذى أطلق يده فى المدرسة ليعيد تنظيمها، حيث نجح فى مهمته نجاحاً لقى عليه ثناء الأستاذ الإمام محمد عبده، الذى كان رئيساً لهيئة امتحان الطلاب بها، وقد شهد له الإمام بأنه أحيا اللغة العربية فيها، وقد تخرج على يديه منها عدد من كبار الكتاب والعلماء والشعراء.

لقد كان شغوفاً بالعلم والتعليم طوال حياته، وقد ذكر الزركلى فى «الأعلام» أنه ألف كتاباً مدرسياً بعنوان «النفحات العباسية فى المبادئ الحسابية» المهم أن مؤلفنا بذل جهوداً كبيرة فى سبيل نشر التعليم، وإصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهدى الخديو توفيق وعباس حلمى، وكان من أنصار جعل التعليم الإلزامى فى مصر مجانياً وإجبارياً للقضاء على الأمية. وفى حديث نشر له بمجلة الهلال عام ١٩٣١ ذكر أنه يتمنى أن يعيش حتى يتعلم آخر أمى فى وطنه، وقد عبر عن اغتباطه لانتشار التعليم الإلزامى ثقة منه بأن تعليم الشعب هو أساس كل تقدم وفلاح، وكان يرى أن القضاء على الأمية وما يصحبه من تطور هو الخطوة الأساسية لمنافسة الشعوب الأخرى.

لقد كان ينظر إلى أهمية ازدياد المدارس الصناعية والزراعية نظرة خاصة، ويرتب على تقدمها والإقبال عليها، ارتقاء الصناعات الوطنية وتغير طرق الزراعة وارتقاء أساليبها، كما كان من أنصار تعليم البنات طوال حياته، وكان يدعو الشباب إلى العمل والنضال خارج دوائر الحكومة، لكى يقبضوا على زمام الشئون الحيوية كلها منافسين للأجانب. وكانت نظرته للجامعة المصرية على درجة كبيرة من الوعى، فهو ينتظر منها أن تكون معهداً للبحث الحر، يتلقى فيه الطلبة كيف يبحثون ويقومون بالتجارب، سعياً وراء الكشف والاختراع والابتكار فى العلم والأدب والتاريخ والفلسفة، ويرى أن الهدف من إرسال الطلبة فى بعثات علمية، ليس الحصول على الشهادات والدرجات العلمية، وإنما جلب العلوم والمعارف ونشرها بين الأمة.

وعموماً فإن المسئوليات التى تولاها فى شئون التعليم فضلاً عن نشأته الاجتماعية، قد هيأ له مكانة اجتماعية مرموقة، ومن ثم الاختلاط والتحرك داخل الدوائر الاجتماعية العالية فى مصر، فكان عضواً بالمجلس الأعلى للمعارف، كما عين عضواً بمجمع اللغة العربية، وكانت نشاطاته الاجتماعية والثقافية العامة مدعاة اختياره عضواً

فى مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٨، وحتى وفاته عام ١٩٤١.

ومع ذلك كله فإن وجهات نظره وآراءه السياسية لم تنعكس على كتاباته التاريخية، كما كان نادراً ما يفصح عن آرائه الخاصة ويعبر عن مشاعره بشأن أى موضوع يكتب عنه. وفى تقديرنا أنه لم يكن يعتبر نفسه رجل سياسة بمعناها المباشر، ولم يشتهر بذلك، ربما لأنه اختار أن يخدم بلاده بإخلاص وتفان شديدين من خلال وظائفه الإدارية والتعليمية، ومن خلال مؤلفاته العلمية والتاريخية. باختصار، لقد اختار أن يكون رجلا عملياً، معلماً وكاتباً، يكرس جل وقته لما يحبه ويقدر عليه، ومن داخل جهاز الدولة الحكومى، فلم نعرف أنه كان حزبياً أو معارضاً، رغم علو المد الوطنى وميلاد الموجة «الثانية» من الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال البريطانى، وميلاد الحركة الحزبية، ثم بلوغ الحركة الوطنية والسياسية ذروتها بثورة عام ١٩١٩، فقد شهد أمين سامى ذلك وهو فى ذروة نضجه، حيث استغرقه العمل فى التأليف خلال هذه السنوات الحيوية والخصبة من تاريخ الوطن.

أما عن مؤلفاته، فإنه باستثناء كتاباته المدرسية التى كتبها للطلاب، ولم تنشر خارج هذا السياق، فإن أول كتاب ألفه ونشره كان المجلد الأول من «تقويم النيل» الذى يتضمن مقدمة الكتاب (١٣٤ صفحة) ثم الجزء الأول منه الذى يتناول أوضاع النيل وتاريخ مصر من الفتح الإسلامى حتى الفتح العثمانى، وقد نشره عام ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م، ثم أعقبه بكتاب يحمل عنوان «التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥، وبيان تفصيلى لنشر التعليم الأولى والابتدائى بأنحاء الديار المصرية» وقد نشره عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م، مدفوعاً بأن عليه ديناً لمصر يجب أداؤه عند القدرة عليه، وبالرغم من أنه أراد أن يكتب عن التربية والتعليم منذ القرون الأولى وحتى عصره، إلا أنه ركز كتابه حول عامى ١٩١٤ و١٩١٥، مستعيناً بالوثائق، والإحصائيات التى تناولت أعداد التلاميذ والمدارس وخطط التعليم، مما يجعله مصدراً وثائقياً مهماً لمؤرخى التعليم فى مصر خلال هذه الفترة.

ثم شرع مؤلفنا بعد ذلك فى استكمال إعداد ونشر مشروعه الطموح «تقويم النيل»، فنشر عام ١٩٢٨ مجلده الثانى الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى نهاية عصر محمد على. ونتيجة لاتساع نطاق ومجال العمل لديه، لم يستطع أن يصدر المجلد الثالث، بأجزائه الثلاثة، فضلاً عن جزء خاص بالملاحق، إلا فى عام ١٩٣٦، وهى الأجزاء التى غطت عهود خلفاء محمد على، عباس باشا ومحمد سعيد والخديو إسماعيل.

وبعد أن أتم أمين سامى نشر مجلدات «تقويم النيل» بين عامى ١٩١٥ ـ ١٩٣٦، كانت لديه بقية من علم ووثائق عن النيل وعن التعليم فى مصر، لذلك صنفها فى كتاب آخر، كان آخر مؤلفاته، حيث توفى بعد نشره بثلاث سنوات، وكان تحت عنوان «مصر والنيل: من فجر التاريخ إلى الآن»، وقد نشرته دار الكتب المصرية عام ١٩٣٨، ويلاحظ أن الحديث فيه عن التعليم فى مصر من عصر محمد على وخلفائه، حتى عهد فاروق، اختلط بالحديث عن النيل ووفائه وفيضانه، كما امتلأ هذا الكتاب بالوثائق والإحصائيات التى لم يكن قد نشرها فى أعماله السابقة.

تقويم النيل: الهدف والأهمية

يقع هذا السفر الضخم فى مجلدات ستة اشتمل المجلد الأول منها على مقدمة طويلة، أوضح فيها أسس مشروعه الطموح وتحدث عن جهوده وأهدافه من هذا العمل، كما اشتمل على الجزء الأول الذى وضع له عنواناً فرعياً طويلاً إلى جانب العنوان الرئيسى «تقويم النيل» هو (وأسماء من تولوا مصر ومدة حكمهم عليها وملاحظات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة عن المدة المنحصرة بين السنة الأولى وسنة ١٣٣٣هـ ـ ٦٢٢ ـ ١٩١٥م) وكما أشرنا يتناول هذا الجزء الفترة التاريخية الممتدة من الفتح الإسلامى لمصر، وتعاقب حكام وولاة الدول الإسلامية عليها حتى نهاية حكم سلاطين المماليك، ليقف عند بداية دخول مصر تحت الحكم العثمانى.

ويلاحظ أن المؤلف وضع تقويماً للنيل من حيث تواريخ تحاريقه وفيضاناته، بتسلسل زمنى فى الصفحات اليمنى، وما يقابلها من الولاة والحكام وأهم أحداث عهودهم فى الصفحات اليسرى، ملتزماً هذه القاعدة فى الجزء كله، كما يلاحظ أنه يذكر الكثير من مصادره فى نهاية العديد من فقرات كتابته، فيشير بين قوسين إما إلى اسم المصدر أو اسم المؤلف، دون استكمال بقية معلومات المصادر.

أما المجلد الثانى فقد استكمل به حلقات تاريخ مصر فى الفترة التالية أى منذ بداية الحكم العثمانى مروراً بالغزو الفرنسى، ثم عودة مصر إلى حكم الدولة العثمانية، وولاية محمد على باشا عليها، لينتهى الجزء بوفاة إبراهيم باشا عام ١٨٤٨. وهناك عدد من الملاحظات بشأن هذا الجزء أولها أن المؤلف مر سريعاً على فترة الحكم العثمانى لينتقل إلى عصر محمد على الذى استغرق أكثر من أربعمائة صفحة (الجزء كله ٦٢١ صفحة) وقد ذكر أنه أراد توضيح أعمال «ولاة الدولة العثمانية من خير وشر، وقوة وضعف، وما كان من نفوذ الأمراء المصريين. يقصد المماليك. الذين صيروا نفوذ الولاة معدوماً فى أغلب الأحيان، حتى تسبب عن استمرار الخلافات بينهم تسهيل الاحتلال الفرنسى». وقد أضاف أنه اجتاز القرون التى تخص هؤلاء مكتفياً بذكر أهم حوادثهم، ليصل إلى بغيته، أى أن عصر محمد على باشا الذى يهم الناس معرفة حوادثه مفصلة لأهميتها ولاتصال تاريخها بها اتصالاً تاماً.

وثانيها أنه تخلى عن التقليد الذى اتبعه فى الجزء الأول المتعلق بتقويم النيل وأحواله، فعرض بشكل أساسى للأحداث التاريخية، وجاء حديثه عن النيل فى سياقها، حسبما توفرت مادة تاريخية له أو حسب تعبيره «دون ـ ما تيسر له العثور عليه من أمر فيضان النيل وتحاريقه فى المدة من ١٥١٥ ـ ١٨٤٨». وأضاف أن هناك سنوات خلت من معلومات عن النيل (حصرها فى جدول) مبرراً ذلك باضطراب الأحوال وباكتفاء المؤرخين بذكر وفاء النيل والاحتفال به، وقد أبدى أسفه لخلو المدة بين عامى ١٨٠١ ـ ١٨٢٤ من بيان نهاية الفيضان ونهاية التحاريق، وفسر ذلك بانهماك الوالى فى سياسة الإنشاء والتجديد، وأضاف أنه بذل جهده فى الحصول على معلومات عن النيل خلال هذه الفترة واتصل بأسر كبار المهندسين، الذين ذكرهم بالاسم، ممن تولوا الإشراف على الأعمال الهندسية فى عهد محمد على، ووعد بأنه سيراجع الدفاتر الموجودة فى مخازن خلف القلعة مرة أخرى.

وثالثها: أن المؤلف، إلى جانب اهتمامه بسير الحكام وتطور الأوضاع السياسية والإدارية،



أبدى اهتماماً كبيراً بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد تحدث عن نظم ولوائح ترتيب الأراضى والأطيان، وإنشاء الفابريقات والصناعات، والمدارس وشئون التعليم، وتسعيرة الأصناف والبضائع والعملة، وإنشاء المستشفيات، وتنظيم الجيش وتحديثه، وحتى تسمية الشوارع وتنمير البيوت وتعداد أهالى القطر، وقد استقى معلوماته من نصوص الوثائق والأوامر والمراسيم والتقارير التى حصل عليها من الدفترخانة المصرية (دار المحفوظات) ومن جرنال الوقائع المصرية، ومن مصلحة الرسم بالمساحة العمومية، ومن نظارة الأشغال، فضلاً عن مؤلفات العصر وكتبه.

أما المجلد الثالث الذى تضخم فى الواقع، حتى جعله المؤلف ثلاثة مجلدات (الثالث والرابع والخامس) بثلاثة أجزاء، فتناول الجزء الأول منه عصرى عباس باشا ومحمد سعيد باشا (١٨٤٨ - ١٨٦٣) بينما انفرد عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) بالجزءين الثانى والثالث بسبب وفرة المادة العلمية. ويلاحظ أن مؤلفنا فى هذا المجلد بأجزائه الثلاثة، تخلى أيضاً عن تقليده القديم الذى التزمه فى المجلد الأول، بوضع تسجيل لتقويم النيل فى الصفحات اليمنى، وإن ظل ملتزماً بالتسلسل الزمنى «الحولى» فى عرض الأحداث الكبرى. ويعد هذا المجلد على درجة كبيرة من الأهمية لندرة المادة الوثائقية المنشورة عن عصرى عباس الأول وسعيد باشا، خاصة أنه تناول موضوعات مهمة مثل إنشاء السكك الحديدية فى مصر، وتأسيس القناطر الخيرية، وأوضاع الحكم المصرى فى السودان، وإنشاء وترتيب المجالس والدواوين. كما قدم لنا المؤلف فى عصر إسماعيل معلومات ووثائق عن مختلف أوضاع مصر الداخلية والخارجية، خاصة ما يتصل بعلاقات مصر بالباب العالى، وتأسيس ونشاط مجلس شورى النواب، والمحاكم المختلطة، وتطور ميزانية مصر... إلخ.

وأخيراً أصدر أمين سامى المجلد السادس كملحق وثائقى يحمل عنوان «ملحق تقويم النيل عن الجسور والقناطر والكبارى والخزانات على النيل وفروعه بمصر والسودان، من فجر التاريخ إلى الآن» ضمنه ما استطاع من وثائق وخرائط وجداول وإحصائيات ورسوم توضيحية، استكمل بها موضوعات المجلدات السابقة.

وإذا تحدثنا عن أهداف أمين سامى باشا من وضع هذا العمل الكبير، فمن الواضح أنه كان مدفوعاً إليه بشعور الالتزام بخدمة العلم والتاريخ وبالرغبة فى خدمة الوطن، كما قصد منه تلبية احتياجات العلماء والمؤرخين والمهندسين، وحسب تعبيره فإنه يقدم هذا العمل «للقراء والباحثين. ولم أرد بذلك إلا القيام بواجب العلم والتاريخ وخدمة الوطن العزيز». وقد حدد مؤلفنا ثلاثة أهداف أو مآرب لوضعه هذا العمل الكبير، أولها: أنه أراد أن يضع تقويماً للنيل المبارك، يتضمن فترات تحاريقه وفيضانه كل عام منذ بداية التاريخ الهجرى حتى عام ١٣٣٢هـ/ ٦٢٢ - ١٩١٤م معتمداً فى ذلك على ما كتبه مؤرخو مصر، الذين سجلوا حالة النيل فى حولياتهم كل سنة هجرية. وثانيها: أن يقرن ذلك بعرض تاريخى للوقائع والأحداث التى مرت بمصر خلال نفس الفترة، وثالثها: أن يوضح النتائج التى ترتبت على حالة النيل وتأثيرها على الحوادث التى حلت بمصر وسكانها، من رخاء وشدة عبر التاريخ. ورغم هذا الجهد الكبير واتساع العمل كلما اقترب مؤلفنا من السنوات التى عاصرها، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فإن القدر لم يمهله لإنجاز عمله كله، ومن هنا توقف به الجهد عند نهاية عصر الخديو إسماعيل (١٨٧٩).

وقد اقتضى منه تحقيق هدفه الأول المتعلق بوضع تقويم للنيل أن يرجع إلى ما سجله المؤرخون، ولما كان هؤلاء قد سجلوا معلوماتهم بالسنوات الهجرية، فقد رأى أمين سامى أن يقارنها ويطابقها على السنوات الميلادية، ليزيد الصورة وضوحاً ودقة، فتحرى الاختلاف بين التقويمين الهجرى (القمرى) والميلادى (الشمسى)، وأثبت ما يوافق غرة المحرم من كل عام بما يوافقه من التاريخ الميلادى، ليستنتج أن كل ٣٤ سنة هجرية تعادل ٣٣ سنة ميلادية، وعندما اطلع على مذكرات ومستخرجات من الكتب المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، والتى نشرها المجمع العلمى الفرنسى عام ١٩١٠، باعتبارها تشتمل على تحاريق النيل وفيضانه بين عامى (٢٠ - ٨٥٥هـ) حيث لاحظ أيضاً نفس الفارق بين التقويمين، مما أكد لديه ملاحظته السابقة.

مصادر الكتب ومنهج المؤلف:

إن قيمة أى عمل علمى تُستمد من أهمية مصادره ومنهج وأسلوب الكاتب فى التعامل مع المعلومات والحقائق الواردة فى هذه المصادر، ونقدها نقداً تاريخياً لاستخراج الحقائق الصحيحة منها، وتوظيفها لبناء معرفة تاريخية علمية. وقد كشف لنا أمين سامى عن مقدرة عالية وعن تمكن ملحوظ فى الاستفادة من المصادر على نحو علمى، وربما كان هو أول مؤرخى مصر فى القرن العشرين الذين استخدموا الوثائق التاريخية على نطاق واسع، كما استطاع أن يخضع الكثير من هذه المصادر للنقد التاريخى، من خلال مقارنة الروايات والتحقيق والتدقيق فيما ورد سعياً وراء الحقيقة، ورغم استخدامه للشكل الحولى، إلا أن مضمون عمله جاء مختلفاً عمن سبقوه.

وسنضرب مثلاً يوضح هذه المسألة، فهو عند استعانته بجدول أعده الكاتب الفرنسى «مسيو كاترمير» ذكر أنه استقى معلوماته من كتاب أبى المحاسن «النجوم الزاهرة»، تشكك مؤلفنا فى الأرقام التى وردت بالجدول وفى التواريخ، فشد الرحال إلى باريس عام ١٩٠٣ ليطلع على مخطوط أبى المحاسن، وعندما قارنها بما ورد فى الجدول وجد أن المعلومات غير مطابقة للأصل، واكتشف أنها نقلت عن نسخ حدثت بها أخطاء، لذلك أورد أمين سامى المعلومات والأرقام الدقيقة عن نسخة المخطوط الأصلية، مصححاً بذلك ما ورد بالجدول الفرنسى، وأضاف أن «ظفره بذلك شجعه على مزيد من البحث والتنقيب فى مؤلفات مثلها تعرضت لذكر تحاريق النيل وفيضانه».

ومن السهل ملاحظة أن أمين سامى استعان بأقصى ما استطاع أن يصل إليه من مصادر عربية وأوروبية، أشار إليها فى سياق موضوعاته، وأنه سعى إلى مظانها جميعاً، واستفاد منها مقارناً ومحللاً، ولم يكن مجرد ناقل، بل كان يثبت ملاحظاته وتفسيراته وتعليقاته دائماً، وكان عادة ما يستخدم عبارة «ولى على ذلك ملاحظات». ومن أشهر مصادره العربية ذكر أنه رجع إلى كتابين لأبى بكر ابن عبدالله بن أيبك هما «درر التيجان، وكنز الدرر وجامع الغرر» بيد أنه لم يأخذ المعلومات الواردة بهما بشكل مسلم به، وإنما يبدى عليها الملاحظات ويدقق فى الاختلافات الواردة بها عن غيرها، وكان ذلك حسب قوله «من أقوى البواعث لى على دقة مراجعة كل كتاب نوه بأى شىء عن أمر النيل» ككتابات ابن الحكم والمقريزى والمسعودى وابن تغرى بردى، مما يظهر فى نهايات الكثير من اقتباساته.

وفى معرض حديثه عن مصادره كذلك ذكر أنه استفاد من كتاب عبداللطيف البغدادى «الإفادة والاعتبار» وأنه عندما قرأ كتاب ابن إياس «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وجد فيه زيادة عن كتابه «النجوم الزاهرة» كما قارن المعلومات التى استقاها من كتاب أبى السرور البكرى «قطف الأزهار» بغيرها من المصادر للتحقق والتثبت من صحة ودقة هذه المعلومات.

وفيما يتعلق بالمصادر الحديثة، فيلاحظ أنه استفاد بكشف فيضان النيل (١٠٥٠ - ١٢١٥هـ) الذى أعده المسيو لوبير، أحد رجال البعثة العلمية الفرنسية فى مصر، وقد أخذه عن عدد من مشاهير الكتاب العرب، فاقتضت أمانته أن يذكر أنه «غير واثق من دقته». كما استعان بمحررات أستاذه محمود باشا الفلكى بين عامى (١٢٤١ - ١٣٠١هـ) أما ما يتصل بتحاريق النيل وفيضانه عن الفترة بين عامى (١٣٠٢ - ١٣٣٢هـ) فقد استقى معلوماته من صحيفة الوقائع المصرية، طبقاً لما سجلته وزارة الأشغال العمومية. ويستفاد من ذلك كله أن مؤلفنا استقى معلوماته من مصادرها الأصلية طبقاً لطبيعة عصرها، سواء كانت مخطوطات أو مؤلفات أو تقارير ومحررات رسمية، سواء وجدت فى القاهرة، بدار المحفوظات ومصلحة المساحة ووزارة الأشغال، أو فى العواصم الأوروبية كباريس واستانبول وغيرها.

أما عن المعلومات التاريخية أو «الشذرات التاريخية». كما كان يسميها. من حيث أهميتها والمنهج الذى اتبعه فى عرضها، فقد كشف أمين سامى عن وعى كبير بمناهج المؤرخين وطرائقهم، من قدماء ومحدثين، وربط بين ذلك وبين أهمية المعرفة التاريخية على نحو مهم، فذكر أنه لم يسلك فى عرضه التاريخى الخطة التى اعتاد كل فريق من المؤرخين اتباعها، وقد صنف هؤلاء إلى ثلاثة فرق: فريق يتبع أسلوب تراجم الأعيان من

مولدهم حتى وفاتهم «من غير تعرض لترتيب الدول» وفريق يروى تاريخ الدول على سبيل الحكاية والقصص «من غير نظر إلى ترتيب سلسلة الحوادث التى يقتضى بعضها بعضًا. وهذا لا ثمرة له فى المقصود من التاريخ»، ولعله يعنى هنا من غير النظر إلى الوقائع ومسبباتها ونتائجها، أما الفريق الثالث فأنصاره يذكرون تاريخ الدول أيضًا، لكن مع ترتيب سلسلة الحوادث وأن بعضها يقتضى بعضًا، وذلك لاعتبارهم أن التاريخ هو تبيان حوادث الأيام، التى أهمها سلسلة حوادث الأعمال الإنسانية الاختيارية، وما لكل من سبب وغاية، من جهة تأثيرها فى الاجتماع المدنى، تقوية أو إضعافًا، وذلك بهدف تربية العقول وتعويدها الحكم على الحوادث، سواء بالتحسين أو التقبيح، سعيًا وراء الحقيقة وإعراضًا عن الظواهر باعتبار ما لها من التأثير».

ونتيجة لوعيه التاريخى وفهمه لطبيعة علم التاريخ، فإنه رغم تأكيده على أهمية الفريق الثالث، الذى يهتم بالبحث عن علل الأحداث والوقائع التاريخية، وينظر فى نتائجها، ويستهدف من التأريخ لها تنمية ملكة النقد وتكوين الآراء وإصدار الأحكام استناداً إلى العقل، فإن مؤلفنا مزج بين أغراض كل فريق من الفرق الثلاثة فى اختيار ما أراد تدوينه من الأحداث، فأعار العصور التاريخية ما يناسب أهميتها، ورأى أن يسرع فى اجتياز القرون الأولى، ليصل إلى القرون الأخيرة، التى يرى أنها تهمنا مباشرة، أى ليصل بنا إلى «الأحوال المدهشة التى انتشل فيها ساكن الجنان محمد على باشا، بحسب تصرفه، مصر من وهدة الانحطاط إلى الدرجات العالية. مقدماً الرجال والأحداث بصورة تشحذ القدرة على التصور وتنمى الوعى والوجدان».

وقد ذكر أمين سامى أنه اعتمد فيما كتبه على ثقات المؤرخين «وما أنا بالنسبة لهم إلا ناقل» «أمين». وإن كنا نعتقد أنه غمط نفسه حقها فى الجملة الأخيرة التى أراد بها الإشارة، فى تورية بلاغية، إلى أمانته فى النقل وإلى اسمه، لأنه لم يكن مجرد ناقل، وإنما كان باحثًا مدققًا وناقداً فى كثير من الأحيان. ولتأكيد أمانته فى استخدام المصادر، أشار إلى أن المحررات الرسمية التى جمعها من سجلات الحكومة، والتى وردت فى الجزء الثالث تحت عنوان (إيرادات) كانت مدونة فى الأصل باللغة التركية وأنه ترجمها إلى العربية، أما المحررات التى نقلها عن نفس السجلات تحت عنوان (أوامر عالية أو أوامر كريمة) فقد دونها كما هى «محافظة على أمانة النقل وقياماً بحق التاريخ فى نقل الأشياء بصورها الحقيقية، وعدم تشويهها بأى تغيير، حتى يرى القارئ بعينه ما كان عليه الأمر على حقيقته. ومن أجل ذلك ترى فيها أغلاطًا لغوية وصرفية ونحوية وإملائية وأساليب ركيكة. فلينتبه القارئ وليلاحظ أن أكثر ما كان ذلك وأشده وقوعًا فى عهدى عباس وسعيد، أيام طمست معالم التعليم وكاد يقضى عليه».

ويبدو أن مؤلفنا على امتداد سنوات تأليفه للكتاب، كان يتلقى أسئلة تتعلق بالنيل وشئونه من قبل القراء، بعد أن نشر الجزء الأول عام ١٩١٥، وقد اعتذر لهم عن إبطائه فى الإجابة عن بعض ما أرسلوه إليه، معللاً ذلك بأنه لا يريد أن يجازف بالإجابة دون تحرى المسائل أشد التحرى، ولا يجيب حتى يتأكد ويتثبت بأقصى ما فى وسعه «كما تقتضى بذلك أمانة العلم وكرامة النفس» حتى لقد كان ذلك يكلفه السفر ومراجعة المصادر فى مختلف المكتبات الأوروبية «ليطمئن إلى أن كل ما أجاب به لم يكن إلا بعد التحرى العظيم والتثبت الشديد».

وأخيراً، يمكن القول إن أمين سامى باشا كان متنبهًا لتطور منهج البحث فى التاريخ، بفضل ثقافته الحديثة، وما بداخلها من مؤثرات أوروبية، فضلاً عن معرفته بتراث ثقافته العربية، فلم يأت عمله مجرد سرد للوقائع والأسماء والتواريخ، وإنما جعل يغوص فيما تحت الظواهر التاريخية لإدراك أبعادها مع تقديم تحليلات وتفسيرات لكثير من الوقائع، بأسلوب سهل متميز تتدفق فيه الأحداث والوقائع والحقائق عبر سياقها الزمنى فى تتابع منتظم، وبلغة عصرية مباشرة خالية من السجع والتزيد.

لقد تضمنت المجلدات التى تناولت عصر محمد على وخلفائه، ثروة ضخمة من الوثائق والتقارير الرسمية والفرمانات والأوامر العالية، التى أجاد مؤلفنا ربطها فى تطورها الزمنى، مخلفًا لنا عملاً موسوعيًا فريداً، على درجة كبيرة من الأهمية لا تتوفر بسهولة فى مرجع آخر، ومساهمًا بذلك فى بناء الإرث القومى المصرى. كما تميز هذا العمل بشمولية واضحة جعلته لا غنى عنه لأى مثقف أو باحث أو مؤرخ، لذلك ضمنت له أبعاده الموسوعية الخلود والبقاء، وربما كانت القيمة الأعلى والأهم لذلك السفر الجليل، ليس باعتباره «تاريخيًا» فى حد ذاته، وإنما باعتباره «مصدراً» للكتابة التاريخية، والمصدر بطبيعة الحال أكثر أهمية وبقاء من التاريخ ذاته.

ولله الحمد من قبل ومن بعد. ■

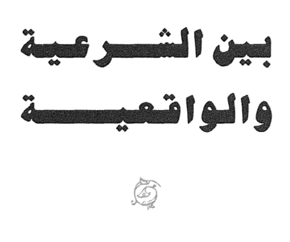


تقرير جولدستون
(٦)

وقد بحثت البعثة أيضًا الاحتياطات التى اتخذتها القوات المسلحة الإسرائيلية فى سياق ثلاث هجمات محددة قامت بها. ففى ١٥ كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٩، تعرض مجمع المكاتب الميدانى لوكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين فى الشرق الأدنى (الأونروا) فى مدينة غزة للقصف بالذخائر العالية التفجير وذخائر الفوسفور الأبيض. وتلاحظ البعثة أن الهجوم كان خطيرًا إلى أبعد حد، بالنظر إلى أن هذا المجمع كان يتيح المأوى لما بين ٦٠٠ و٧٠٠ شخص من المدنيين، وكان يتضمن مستودعًا ضخمًا للوقود. واستمرت القوات المسلحة الإسرائيلية فى هجومها على امتداد ساعات عديدة على الرغم من أنه جرى تنبيهها بشكل كامل إلى الأخطار التى أحدثتها. وتخلص البعثة إلى أن القوات المسلحة الإسرائيلية قد انتهكت ما يتطلبه القانون الدولى العرفى من اتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة فى اختيار وسائل الهجوم وأسلوبه بقصد تجنب - وعلى أية حال التقليل إلى أدنى حد من - الخسائر العرضية فى أرواح المدنيين، وإصابة المدنيين وإلحاق الضرر بالأعيان المدنية.

وبحثت البعثة كذلك حادثًا استُهدف فيه أحد المساجد بقذيفة أثناء صلاة المغرب، مما أسفر عن موت ١٥ شخصًا كما بحثت هجومًا استُخدمت فيه ذخائر سهمية ضد حشد أسرى ومعهم جيران فى خيمة عزاء، مما أدى إلى قتل خمسة أشخاص. وترى البعثة أن كلا الهجومين يشكلان اعتداءات متعمدة على سكان مدنيين وأهداف مدنية.





بين الشرعية والواقعية

محمد عامر

■■ كما أن القوانين قد تكون غير دستورية، فإن القرارات الدولية قد تكون غير شرعية. ويكون القانون غير دستورى إذا تعارض مع الدستور، فما المقصود بعدم شرعية قرار دولى؟ إذ يتعارض القرار مع حقوق الإنسان الأساسية، فردية كانت أو جماعية، مثل تلك التى ذكرها ميثاق الأمم المتحدة بقوله فى ديباجته «نؤكد من جديد إيماننا بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الفرد وأهميته، وبالحقوق المتساوية للرجال والنساء، وللأمم كبيرها وصغيرها».. وتلك التى ذكرها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بقوله فى ديباجته «لما كان الإقرار بالكرامة الأصيلة والحقوق المتساوية والثابتة لكل أبناء الأسرة البشرية هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم».. ويولد الإنسان مكتسب هذه الحقوق، إذ يقول الإعلان فى مادته الأولى «يولد كل الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق، متمتعين بالعقل والضمير، ويجب أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء».

غير أنى - لتقليل فرص الاختلاف - سأتبنى هنا مفهوماً أكثر تحديداً لعدم الشرعية: يكون القرار الصادر من جهة ما غير شرعى، إذا كان متعارضاً مع ميثاقها. وعلى هذا الأساس سأناقش ما يثار منذ نجاح حماس فى انتخابات ٢٠٠٦م، وازداد التركيز عليه منذ عدوان الكيان الصهيونى على غزة فى ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩م: الاعتراف بقرارات «الشرعية الدولية». والمقصود الاعتراف بتقسيم فلسطين، والتخلى عن تحرير كامل التراب الفلسطينى، وأيضاً التخلى عن المقاومة المسلحة كوسيلة لإنجاز التحرير.

فى مقدمته المعنونة «الأمم المتحدة وإدانة الصهيونية» لكتاب «الصهيونية والعنصرية» الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧٧م، يقول د.مفيد شهاب الدين أستاذ القانون الدولى العام (ص ١٤) «وقد جاءت وثيقة الانتداب تكريساً للنظرة العنصرية إلى الشعب العربى الفلسطينى، فقد تضمنت فى صلبها نص وعد بلفور وأضافت التزاماً على بريطانيا بأن تهيئ البلاد بما يُمكن من تنفيذ ذلك الوعد».

والمقصود انتداب عصبة الأمم بريطانيا وصية على فلسطين (عام ١٩٢٢م) إعمالاً للمادة ٢٢ من ميثاق العصبة، كما تقول وثيقة الانتداب. وتنص هذه المادة على أن الشعوب الموضوعة تحت الانتداب «ينطبق عليها المبدأ القائل بأن رفاهية هذه الشعوب وتقدمها يعد وديعة مقدسة فى عنق المدنية» وأن «أحسن وسيلة لتنفيذ هذا المبدأ عملياً، هى أن يعهد بالوصاية على هذه الشعوب للأمم المتقدمة».

ولما كان قرار الانتداب متعارضاً مع هذا المبدأ، فإنه غير شرعى، هو وكل ما يترتب عليه من آثار متعارضة مع رفاهية وتقدم شعب فلسطين.

وهذا التعارض ليس صدفة، بل هو نية مبيتة، كما أفصح عن هذا بلفور نفسه، صاحب الوعد المعروف باسمه، والذى كان قد وقعه نيابة عن حكومة صاحب الجلالة البريطانى والذى ينص على «تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين».

بعد هذا بربع قرن شكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة (عام ١٩٤٧م) لجنة لبحث موضوع فلسطين. وجاء فى تقرير اللجنة الذى قدم فى نفس العام «فيما يتعلق بمبدأ تقرير المصير فإنه، رغم الاعتراف الدولى بهذا المبدأ فى نهاية الحرب العالمية الأولى، ورغم أنه تم الالتزام به فى الأقاليم العربية الأخرى، لم يتم، عند وضع صكوك الانتداب من الفئة «أ»، تطبيق ذلك المبدأ على فلسطين. ويرجع ذلك بوضوح إلى النية فى تيسير إنشاء الوطن القومى اليهودى هناك. ومن الجائز جداً، فى الواقع، القول إن الوطن القومى اليهودى والانتداب الفريد من نوعه على فلسطين يتعارضان مع ذلك المبدأ».

وقد تبنت الأمم المتحدة حق الشعوب فى تقرير المصير، عندما جعلته أحد مقاصدها، التى حددتها المادة الأولى من ميثاقها. إذ إن الفقرة الثانية من هذه المادة تنص على «تنمية العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة فى الحقوق، وأن يكون للشعوب تقرير مصائرها».. ومن ثم كان حرياً بالأمم المتحدة أن تتخذ ما يلزم لإعمال حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره. لكنها بدلاً من ذلك شكلت اللجنة سالفة الذكر، سائرة بهذا على درب عصبة الأمم، بما فيه من تناقض وسوء نية، كما قال بلفور، وكما أشارت اللجنة نفسها.

رغم ما جاء (عاليه) فى تقرير اللجنة، فقد اقترحت أغلبيتها تقسيم فلسطين. وهذا ما أخذت به الجمعية العامة للأمم المتحدة فى قرارها رقم ١٨١ (د ٢) الصادر فى ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧م، مهدرة بهذا حق شعب فلسطين فى تقرير مصيره، ومناقضة ميثاقها الذى يكفل هذا الحق. ولذا فقد ولد هذا القرار منعدم الشرعية.

وعلى النقيض من الممارسات والقرارات الدولية غير الشرعية سالفة الذكر، كان من ثمار حرب أكتوبر المجيدة أن أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات عديدة بشأن فلسطين متوافقة مع الشرعية، نتوقف عند ثلاث منها:

(١) القرار رقم ٣٠٨٩ (د ٢٨) الصادر فى ٧ / ١٢ / ١٩٧٣م الذى تؤكد فيه الأمم المتحدة «أن لشعب فلسطين الحق فى حقوق متساوية، وفى حق تقرير المصير وفقاً لميثاق الأمم المتحدة» وتعرب فيه عن قلقها الشديد لأن إسرائيل قد حرمت شعب فلسطين من التمتع بحقوقه الثابتة وممارسة حقه فى تقرير المصير.

يلاحظ هنا عدم الإشارة إلى قرار التقسيم، أو إلى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (الصادر فى ٢٢ / ١١ / ١٩٦٧م)، والتأكيد على أن حق تقرير المصير إنما هو وفق ميثاق الأمم المتحدة، الذى يطلق هذا الحق لجميع الشعوب على كامل ترابها، وبالتالى فهو يطلقه لشعب فلسطين على كامل ترابه، إذ إن لهذا الشعب حقوقاً متساوية مع غيره من الشعوب بنص الميثاق.

بناء على هذا، وعلى ما سبق، فإن تحرير كامل التراب الفلسطينى هو الهدف الذى تمليه الشرعية الدولية، وفى أى انتقاص منه إهدار لهذه الشرعية.

(٢) القرار رقم ٣٢٣٦ (د ٢٩) الصادر فى ٢٢ / ١١ / ١٩٧٤م والذى تعترف فيه الأمم المتحدة «بحق الشعب الفلسطينى فى استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه».

ولما كان من مبادئ الأمم المتحدة (م ٢ - ف ٤) أن «يمتنع الأعضاء جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد بالقوة، أو استخدامها، ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة». ولما كان حق تقرير المصير أحد مقاصد الأمم المتحدة (م ١ - ف ٢) فإن استخدام القوة لحرمان شعب فلسطين من إنجاز هذا الحق أمر غير مشروع. أما استخدام هذا الشعب العظيم، وأنصار الخير والعدل والسلام، القوة لإحقاق هذا الحق فهو أمر مشروع، قياساً على المادة ٥١ م الميثاق التى تنص على أنه «ليس فى هذا الميثاق ما ينتقص من الحق الطبيعى فى الدفاع الفردى أو الجماعى عن النفس إذا وقع عدوان مسلح على عضو فى الأمم المتحدة»، وإعمالاً للقرار سالف الذكر ولقرار الجمعية العامة رقم ٢٧٨٧ (د ٢٦) الصادر فى ٦ / ١٢ / ١٩٧١م الذى يؤكد على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل تقرير المصير والتحرر من الاستعمار والتسلط والاستعباد الأجنبى.. وعلى الخصوص شعوب زمبابوى و... وكذلك الشعب الفلسطينى، بكل الوسائل المتوفرة التى تنسجم مع ميثاق الأمم المتحدة»، غيرها من القرارات التى تؤكد حق الشعوب فى تقرير المصير وحقها فى الكفاح المسلح (راجع مقال د. أحمد فتحى سرور بأهرام الأحد ٦ / ٨ / ٢٠٠٦م، ص ١٠).

(٣) القرار رقم ٣٣٧٩ (د ٣٠) الصادر فى ١٠ / ١١ / ١٩٧٥م الذى يخلص إلى أن الجمعية العامة «تقرر أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية التمييز العنصرى». صدر هذا القرار تحت عنوان «القضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى»، وتصدرته حيثيات مفصلة ترجع إلى قرارات سابقة للأمم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية تقول بأن «أى مذهب يقوم على التفرقة العنصرية.. خاطئ علمياً ومشجوب أدبياً وخطر اجتماعياً»، وتدين «التحالف الآثم بين العنصرية بجنوب أفريقيا وبين

الصهيونية والعنصرية
د. مفيد شهاب الدين
معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧٧

الصهيونية»، كما تدين «الصهيونية بأقصى شدة بوصفها تهديداً للسلم والأمن العالميين» وتطلب من «جميع البلدان مقاومة هذه الأيديولوجية العنصرية والإمبريالية»، وتعلن أن «التعاون والسلم الدوليين يتطلبان تحقيق التحرير.. وإزالة الاستعمار.. والصهيونية، والفصل العنصرى، والتمييز العنصرى بجميع أشكاله».

ويرى د. مفيد شهاب الدين فى مقدمته للكتاب سالف الذكر (ص ١٠) أن هذا القرار الكاشف عن حقيقة الصهيونية «أهم القرارات التى أصدرتها منظمة الأمم بخصوص القضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى بأكمله». ويضيف (ص ٢٤) أن بيان المدلول الحقيقى لهذا القرار «واتخاذه أساساً لطرح شرعية الصهيونية والكيان الإسرائيلى.. يتطلب جهداً فكرياً دؤوباً حتى تتهيأ الأرضية المناسبة لحركة التحرير العربى لخوض الصراع المصرى ضد الصهيونية»..

وبدلاً من بذل الجهد الفكرى الدؤوب، وخوض الصراع المصيرى ضد الصهيونية، كانت زيارة القدس واتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية. ورداً على ذلك قامت جبهة الصمود والتصدى، التى لم تصمد ولم تتصد. ثم انشغلت العراق بحربها مع إيران لنحو عقد من الزمان، قامت بعدها بـ «تحرير» الكويت بدلاً من تحرير فلسطين، الأمر الذى كان من تداعياته زيادة خطيرة فى النفوذ والقواعد الأمريكية فى الخليج.. ثم كان مؤتمر مدريد واتفاقية أوسلو والمعاهدة الأردنية الإسرائيلية (وادى عربة).. مما قلب الأمور رأساً على عقب، وأدخلنا فى مرحلة جديدة شعارها: «الواقعية».

ولا مانع من أن تعمل «الواقعية» على تزييف الواقع، فتضفى على الكيان الصهيونى العنصرى الغاصب شرعية زائفة: دولية وعربية، وحتى فلسطينية. وغداة مؤتمر مدريد، وتحت ضغوط أمريكية، نكصت الجمعية العامة للأمم المتحدة على عقبيها، وأصدرت قرارها رقم ٨٦ / ٤٦ فى ١٦ / ١٢ / ١٩٩١م الذى ينص على أن «الجمعية العامة تقرر إلغاء الحكم الوارد فى قرارها ٣٣٧٩ (د ٣٠) المؤرخ فى ١٠ / ١١ / ١٩٧٥م».

ورغم أن هذا القرار يلغى الحكم الكاشف عن عنصرية الصهيونية، دون أن يلغى حيثياته، فهو يشكل نكسة خطيرة للعدل والسلام وحقوق الإنسان. والمأساة أنه صدر تحت عنوان «القضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى»، لتضيف به الأمم المتحدة قراراً جديداً إلى قراراتها غير الشرعية.

وكما لم يَرْق فكرنا الاستراتيجى إلى تحديات مهمة التحرير، فقد فشل فى التنبؤ بمرحلة «الواقعية» أو التمهيد لها، أو حتى مواكبتها وترشيدها وتأصيلها، أو معارضتها وتقديم بدائل لها، رغم مرور نحو ثلث قرن عليها.

ولذا فليس بغريب أن يخبو الحديث عن «السلام» ليحل محله الحديث عن «عملية السلام»، وبدوره يخبو هذا الحديث ليحل محله الحديث عن التهدئة.. ويطول بنا انتظار أن تجود علينا أمريكا بحل الدولتين، رغم أننا نعلم أن أمريكا ترومان (ديمقراطى) قد لعبت دوراً محورياً فى اغتصاب فلسطين وإقامة إسرائيل (١٩٤٧-١٩٤٨م)، وأمريكا جونسون (ديمقراطى) هى التى حالت دون أن يصدر مجلس الأمن قراراً بعودة قوات العدوان إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م، وأمريكا نيكسون (جمهورى) هى التى استنفرت أسلحتها النووية (١٩٧٣م) لتضمن حصار جيش العدوان الإسرائيلى مدينة السويس (لكن المقاومة الشعبية الباسلة منعته من اقتحامها). ولو كانت أمريكا راغبة فى انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة عام ٦٧، ما أرسلت ميتشل ولا غيره، بل لأنجزت هذا الأمر فى أسابيع، أو حتى أيام، كما فعلت بشأن انسحاب سوريا من لبنان (٢٠٠٦م).

رغم صمود الشعب الفلسطينى فى غزة، فقد كشف العدوان الإسرائيلى عليها (ديسمبر ٢٠٠٨ / يناير ٢٠٠٩م) ضعفنا جميعاً: دولاً ومنظمات إقليمية، وتنظيمات شعبية و...، وما المعارك الصبيانية الجارية حالياً بين المعتدلين والممانعين والمعارضين والموالين و... إلا أحد المظاهر المؤسفة لهذا الضعف الشديد، ولن تزيده إلا تفاقماً.

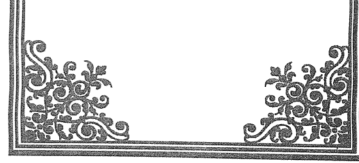
إننا جميعاً أمام معضلة مزمنة خطيرة، فنهضتنا مجهضة منذ أن بدأنا السعى إليها مع محمد على منذ قرنين من الزمان. وبدءاً من أربعينيات القرن الماضى فإن الصراع ضد الصهيونية ومن هم وراءها هو أهم العوامل الخارجية لهذا الإجهاض. أما على الصعيد الداخلى فإن أحد أهم عوامل الإجهاض هو غياب الفكر الاستراتيجى الذى يضرب فى أعماق التاريخ ويستوعب تعقيدات الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل، فبدونه ستظل حركتنا خبط عشواء. فهل لنا أن نأمل فى أن يركز مفكرونا ومؤسساتنا البحثية على هذه المعضلة، فيقلبونها على مختلف أوجهها، ويتعاملون مع مختلف أبعادها وتفاعلاتها، ويقدمون مختلف الاجتهادات لحلها، بكل ما يحتاجه هذا من صبر وعمق وجرأة؟



تقرير جولدستون
(٧)

وتخلص البعثة أيضًا إلى أن القوات المسلحة الإسرائيلية قد قامت فى اليوم نفسه على نحو مباشر ومتعمد بمهاجمة مستشفى القدس فى مدينة غزة ومستودع سيارات الإسعاف المجاور بقذائف الفوسفور الأبيض. وتسبب الهجوم فى نشوب حرائق استغرقت عملية إطفائها يومًا كاملاً وأوقع الذعر فى نفوس المرضى والجرحى الذين تعين إجلاؤهم. وقد وجدت البعثة أنه لم يصدر فى أى وقت تحذير بوقوع هجوم وشيك. وترفض البعثة الادعاء القائل بأن نيرانًا قد وُجهت إلى القوات المسلحة الإسرائيلية من داخل المستشفى. وهى تستند فى ذلك إلى تحرياتها هى.

وتخلص البعثة، استنادًا إلى الوقائع المتحقق منها فى جميع هذه الحالات المذكورة أعلاه، إلى أن سلوك القوات المسلحة الإسرائيلية يشكل خرقًا خطيرًا لاتفاقية جنيف الرابعة من حيث القتل العمد والتسبب عمدًا فى إحداث معاناة كبيرة للأشخاص المحميين وعلى ذلك فإنه يُنشئ المسؤولية الجنائية الفردية. وهى تخلص أيضًا إلى أن الاستهداف المباشر والقتل التعسفى للمدنيين الفلسطينيين يشكل انتهاكًا للحق فى الحياة.



"تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات."

قصة حياة

إبراهيم عبد القادر المازنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٤٠ صفحة



يختار لنا المازنى فى هذا الكتاب بعضًا من المشاهد التى مر بها فى طفولته وشبابه وكهولته، ويرويها بأسلوبه الرشيق، ولغته الثرية، والخبرة العميقة بالحياة، التى ينقلها هنا كعصارة لتجربة واسعة وحياة حافلة.

إبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ - ١٩٤٩)

واحد من الآباء المؤسسين للكتابة العربية الحديثة: شعرًا ورواية وصحافة ونقدًا وترجمة. أسس مع العقاد وعبد الرحمن شكرى «جماعة الديوان» الأدبية للدفاع عن المعاصرة فى مواجهة الأدب الكلاسيكى. ونشر مقالاته الممتعة بسخريتها اللاذعة على صفحات أهم جرائد عصره. عمل رئيسًا لتحرير أكثر من جريدة، كما انتخب وكيلا لمجلس نقابة الصحفيين، وعضوًا بمجمع اللغة العربية.

العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة - الكتاب الثانى

إشراف: الدكتور محمد عابد الجابرى
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٩٢ صفحة



يضم كتاب «العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة»، مجموعة من المقالات التى نشرت فى مجلة «فكر ونقد»، والتى تمثل بمجملها الكتاب الثانى من سلسلة فكر ونقد التى تصدر بإشراف الدكتور محمد عابد الجابرى وبالتعاون مع الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

الهدف من هذه المقالات هو البحث فيما يشهده العالم اليوم من تحولات جذرية على مختلف الأصعدة، العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتى باتت أشبه بالتحولات الحاصلة فى أوروبا والعالم أجمع.

فالاكتشافات العلمية التى غزت القرن الماضى منها: نظرية النسبية، القنبلة الذرية، غزو الفضاء.. فتحت آفاقًا جديدة وكانت امتدادًا من جهة وتعميقًا من جهة ثانية لكل التحولات الحاصلة. كما لا ننسى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التى تراوحت بين انتصارات وهزائم وفتوحات، كلها كان لها الأثر الكبير فى تعبئة النفوس فكريًا واجتماعيًا وقوميًا.

من هنا، تتميز مقالات هذا الكتاب بتناولها أدق التفاصيل حول طبيعة تلك التطورات وأثر التحولات فى الشأن الإنسانى، كما تتميز الدراسات المطروحة، بطريقة معالجتها للموضوع متناولة عدة موضوعات منها: الشأن الإنسانى فى عصر العولمة، العولمة ومسألة الهوية الثقافية، خطاب العولمة الهيمنى، الثقافة، مقاربة رفض العولمة الاقتصادية، التعليم وتحديات العولمة، الترجمة، الليبرالية الجديدة، الوضع اللغوى فى المغرب، الديمقراطية المعولمة.. وغيرها من الموضوعات والدراسات التى كتبها خيرة المفكرين والتى تستحق الاهتمام.

يهدف هذا الكتاب إلى رسم إطار عام للتحولات والتطورات الجذرية الحاصلة فى عالمنا اليوم، والتى باتت تؤثر فى الشأن الإنسانى، الذى لم يعد يوضع، بحسب الدكتور الجابرى، فوق كل شأن آخر وذلك بسبب ما يتعرض له فى مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية.

يرى الدكتور الجابرى أن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، حيث حل شعار «الخوصصة» محل شعار «التأميم»، وحل شعار «العولمة» محل شعار «الأممية البروليتارية»، كما ارتفعت الأصوات التى تنادى بـ «الليبرالية» باعتبارها هى الحل.

فهذا الكتاب يقدم تفاصيل دقيقة حول موضوع تلك التحولات، وآثارها السلبية والإيجابية على الوضع العربى بخاصة، وذلك من خلال مجموعة من المقالات والدراسات التى سبق نشرها فى مجلة «فكر ونقد»، والتى أشرف الدكتور الجابرى على إعادة تجميعها لتكون ضمن الكتاب الثانى من سلسلة «فكر ونقد».

والدكتور محمد عابد الجابرى ولد فى المغرب عام ١٩٣٦ وحصل على دكتوراه الدولة فى الفلسفة عام ١٩٧٠ من كلية الآداب بالرباط، له عدة مؤلفات، منها: مدخل إلى القرآن الكريم (٢٠٠٦)، فى غمار السياسة: فكرًا وممارسة (٢٠٠٩)، الإسلام والغرب (الأنا والآخر) (مشرف) (٢٠٠٩).

■

تجربة توفيق صايغ الشعرية

سامى مهدى
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩ ، ٢٦٠ صفحة



توفيق صايغ شاعر طليعى ومجدد، كان له أثر كبير فى تطور الشعر العربى الحديث. عمل أستاذًا محاضرًا فى النقد والشعر فى العديد من جامعات بريطانيا وأمريكا. أصدر فى بيروت مجلة «حوار» الرائدة ورأس تحريرها. تولت «شركة رياض الريس للكتب والنشر» إصدار جميع أعماله الأدبية والشعرية فى «المجموعة الكاملة».

هذا الكتاب يتيح للقارئ معرفة توفيق صايغ والاطلاع على أعماله من منظور نقدى علمى، إن من حيث فكر صايغ وموضوعاته التى تناولها أو من حيث أسلوبه الشعرى المجدد بأغراضه ولغته وأدواته وصولاً إلى نظامه الإيقاعى.

يحتوى الكتاب على عشرات الفصول وضعها المؤلف فى خمسة أقسام رئيسية، وخاتمة: ١ - شعر صايغ ونقاده. ٢ - مشروع صايغ الشعرى: مرجعياته وموجهاته. ٣ - تجربة صايغ اللغوية. ٤ - صايغ والبحث عن نظام إيقاعى بديل. ٥ - شعر التجربة الدينية الإنجليزى وتأثيره فى شعر صايغ.

■

أجمل قصة عن اللغة

باسكال بيك ولوران ساغار وجيسلان دوهان وسيسيل ليستيان
ترجمة: ريتا خاطر
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩ ، ٢٣١ صفحة

كل كائن بشرى يُبصر النور وهو يملك استعداداً للتكلم، ولكن ينبغى، مع ذلك، تلقينه فعل هذا الأمر، فأى تكييف أنجزه التطور، أفضى ذات يوم من أيام العهود السحيقة إلى بروز اللغة؟ وكيف كان أسلافنا يعبرون؟ هل كان ثمة لغة وحيدة كونية فيما مضى؟ ولمَ تنوعت اللغات، فيما بعد، على سطح المعمورة؟

إن اللغز المحير هو فى معرفة كيفية تعلّم كل طفل بشرى الكلام من جديد: كيف يتعرف إلى الكلمات، وما الذى يحصل فى دماغه؟ إن الاكتشافات المذهلة التى أنجزها الأنثروبولوجيون والألسنيون وغيرهم تسمح لنا اليوم بتعقب مسارب اللغة، منذ الأحافيز الأولى. وهنا، فى هذا الكتاب، يتعاون ثلاثة باحثين ليرووا لنا، بكلام بسيط، إحدى أجمل قصص البشرية وأكثرها فرادة، بلا أدنى شك.

■

محمود درويش.. عصى على النسيان

ميشال سعادة
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٤٠ صفحة



تكريمًا للشاعر الكبير محمود درويش، وفاء له فى ذكرى وفاته الأولى، أصدرت شركة «رياض الريس للكتب والنشر» كتابًا جديدًا بعنوان «محمود درويش - عصى على النسيان»

للباحث والأستاذ الجامعي ميشال سعادة. بعد المقدمة آخر نص كتبه محمود درويش (عن المنفى) بعنوان «صرت لاجئًا فى بلادى وخارجها» ثم تأتى سيرة الشاعر ووصيته. يلى ذلك مختارات مما كُتب عنه من مقالات وقصائد رثائية ودراسات وأبحاث، بالإضافة إلى قسم مخصص لأهم اللقاءات والحوارات التى أجريت معه وعنه وما أقيم من ندوات.

وفى القسم الأخير قائمة مفصلة بما كُتب عن الشاعر تتضمن عناوين الموضوعات وكتّابها وأسماء الصحف والمجلات التى أصدرتها وتواريخ صدورها. مما يضيف إلى الكتاب صفة المرجع التوثيقى للدارسين والباحثين وذواقة الشعر ومحبى محمود درويش.

■

أوراق فى التاريخ والحضارة: أوراق فى التأريخ العربى الإسلامى

عبدالعزيز الدورى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٣٠ صفحة



يتضمن هذا الكتاب عشرة بحوث، تضىء جوانب أساسية فى التاريخ العربى - الإسلامى: اجتماعية، واقتصادية، وإدارية، وفكرية، إضافة إلى الإطار السياسى.

فى البحوث الثلاثة عن التاريخ العباسى، يتناول المؤلف موضوع الدعوة العباسية، مستندًا فيما قدمه لهذا الموضوع، إلى مخطوط أخبار العباس وولده، فكشف عن نقاط غامضة فى الدعوة. وأفرد بحثًا لموضوع الآراء فى الدعوة، بما فى ذلك فكرة المهدى آنئذ، معتمداً على معلومات خارج الرواية التاريخية، كالنقود والآثار. ويضاف إلى هذا بحث شامل عن بغداد، منذ نشأتها حتى القرن الثالث الهجرى.

وفى بحثه «الجزيرة العربية فى عصر الخلفاء الراشدين» حديث عن تاريخ الأمة، ولاسيما مصادر هذا التاريخ، وما تميزت به هذه المرحلة من إنجازات نوعية على صعيد مؤسسة الخلافة ونجاح حروب الردة والفتوح، وترسيم أصول النُظُم والضرائب.

ويقدم المؤلف صورة شاملة ومتصلة للأحداث التاريخية عبر بحثه «اليهود فى المجتمع الإسلامى عبر التاريخ» كاشفًا ما لقى اليهود من حرية ورخاء فى ظل عدالة المسلمين.

أما بحثاه عن القدس فجاءا من منطلق القول بتعدد جوانب اهتمامات الدكتور الدورى فى إطار التاريخ الإسلامى. وكذلك الأمر فى بحثيه: «مدخل إلى تاريخ الأمة العربية» و«التكوين التاريخى للأمة العربية» فهو إلى جانب ما قام به من تغطية لفترات التحولات الكبرى فى تاريخ الأمة، يشدد على مفاهيم تراثية أساسية، ليجعلها منطلقًا فى دراسة مفاهيم الأمة الواحدة، واللغة الواحدة، والفضائل الموروثة، إرادة تحديد هوية الأمة، ورصد بدايات الوعى لديها.

إن هذه البحوث العشرة، بما تضمنته، تشكل إضافة نوعية، سواء فى الفكر أو فى المنهج، ولعل ذلك أساس فى الكتابة التاريخية.

■

المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية فى بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ - ١٩١٨)

فدوى أحمد محمد نصيرات

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٨٠ صفحة



يهدف هذا الكتاب إلى الكشف عن الدور التاريخى الذى قام به المسيحيون العرب فى التبشير بالأفكار القومية وتفعيلها فى سياق الحياة العربية، لاسيما بعد أن كشفت القومية التركية عن وجهها الحقيقى من خلال نزعتها الطورانية المتطرفة.

وتكمن أهمية هذه الدراسة فى أنها تناولت دور المسيحيين العرب فى بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ - ١٩١٨) فى نشأة الفكر القومى العربى، وذلك فى ضوء معطيات الصحف والمجلات التى أسسها أو ساهم فى تأسيسها المسيحيون العرب، بالإضافة إلى المذكرات والأدبيات والأرشيف، مما احتفظت به الجمعيات، على وجه الخصوص، فضلاً عن الكتابة المعاصرة التى تبلورت فى سياق البحث

حفـــر الــــــذات

كتاب «حفر الذات»
دراسات أدبية
إخلاص عطا الله
الهيئة المصرية العامة للكتاب

سيجد القارئ بين دفتى هذا الكتاب ثقافة ما قد تكون معلوماتية، وقد تكون خبرة حياتية إنسانية، مما يعتمل فى مكونات النفس ويحرك فى داخلنا شيئًا ما قد يدفعنا إلى تفكير أو سلوك ما.

تقول الكاتبة فى مقدمة «حفر الذات»: «أعرف نفسك بنفسك». هكذا كان سقراط يردد دائمًا على تلاميذه فى حجرات الدرس وعلى سامعيه فى الأسواق وفى الشوارع.. بل طالما وجه هذه الحكمة مراراً إلى نفسه علّه يصل إلى الحقيقة هو والآخرون.. وعلى الرغم من أن معرفة الحقيقة على إطلاقها أمر عسير، بل عديم المنال على البشر، إلا أن الغوص فى النفس وكشف مستوراتها ومكنوناتها فيما يسمى «المونولوج الداخلى» قد يقف بنا فى لحظة بعينها على شىء من الحقيقة.

على أن سقراط بترديده هذه الحكمة «اعرف نفسك بنفسك» لم يبتدع شيئًا جديداً.. وليس فقط لأنه قرأها من قبل على جدران معبد ديفلى بأثينا. بل أيضًا لأنها وثيقة الصلة بالإنسان الأول. آدم. الذى كانت شهوة نفسه فى البداية «المعرفة» والتى تجسدت فى لهفته على شجرة معرفة الخير والشر، تلك الشجرة المحرمة ضاربًا بالوصية الإلهية عرض الحائط اعتقاداً منه أن هذه الشجرة تمثل الطريق الأمثل للمعرفة.. وبذلك سبقت شهوة الإنسان للمعرفة شهوة الجسد وغيرها من غرائز الطبيعة الإنسانية.. ودفع آدم والبشرية كلها من بعده ثمن هذه الشهوة بالخروج من جنة عدن إلى حياة الأرض بكل ما فيها من شقاء.

وتضيف الكاتبة: المعرفة على ما يصاحبها من عناء البحث وعلى ما تولده فى أحيان كثيرة من شقاء. هى أيضًا تمثل قيدًا. كما يذكر الفيلسوف الأمريكى «هربرت ماركيوز» أحد فلاسفة القرن العشرين فى كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد). إلا أنه قيد حديدى يروق للمرء فى كل زمان ومكان (كل وفق طبيعته) أن ينسجه بيديه.. وفى هذا وذاك تعد المعرفة بمثابة الرهان على وجودنا الحقيقى فى العالم غير قانعين بالبعد المادى من مأكل وملبس.. ولكن ما المعرفة؟

تجيب: ليس هناك اتفاق على تعريفها، لكنها. فى رأيى. تشمل الحقائق والقصص والعلوم والتاريخ والثقافة والتقنيات والعلوم الإنسانية والدين والفن والأدب والأيديولوجيا، وهى بذلك تشمل كل نشاط يقوم به العقل الإنسانى.

من هنا فحاجتنا للمعرفة حاجة ملحة فى كل عصر، وهنا يحضرنى ما قاله الدكتور طه حسين عن عاهة فقد البصر وما تركته من أثر نفسى بالغ الأسى: «جعلتنى أستكشف خصلة أخرى أرى أنها صحبتنى منذ الصبا، هى الظمأ الشديد إلى المعرفة، الظمأ الذى لا يطفئه اكتساب العلم، وإنما يزيده قوة وشدة والتهابًا، فأنا لا أحصل نصيبًا مع المعرفة إلا أغرانى بأن أحصل شيئًا آخر أبعد منه مدى وأشد عمقًا....».

والسؤال: كيف نصل إلى المعرفة؟

إن هذا يقودنا إلى ما يسمى بـ (عملية الاتصال الإنسانى) والاتصال «Communication» كلمة مشتقة من كلمة «Communis» اللاتينية ومعناها الشىء المشترك، والاتصال «علم التفاعل بين الأفراد» يتضمن كل الوسائل الخاصة بنشر المعرفة والأفكار والاتجاهات.

وإذا كان الأمر هكذا.. فما أدوات ذلك العالم الرحب «عالم المعرفة»؟

تتعدد أدوات المعرفة فى عصرنا الحالى ما بين الثقافة المكتوبة والثقافة الإلكترونية المسموعة، وإذا كان العصر يحدد أولويات هذه الأدوات وفق متطلبات المجتمع واحتياجاته.. فإن الثقافة المكتوبة ليست فقط من أهم وأقدم أدوات المعرفة فحسب بل تظل الأداة المعرفية الأكثر إنسانية والأقدر تواصلاً، حيث يبقى أنيسًا للبشر فى حياتهم اليومية، أينما ووقت ما يسافرون ويجيئون، معززًا لقيمته الثقافية.

عن أفق جديد للحياة العربية فى تلك الفترة العاصفة بالأحداث والتحولات الجوهرية العميقة فى بنية المجتمع ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

وقد تشكل الكتاب من أربعة فصول؛ فتضمن الفصل الأول أوضاع المسيحيين العرب فى ظل الحكم العثمانى، وتنامى النشاط التبشيرى فى بلاد الشام ومصر، مع رصد لأبرز تجليات النهضة الفكرية فى إطار فترة الدراسة. وخصص الفصل الثانى للحديث عن التيارات القومية لدى المسيحيين العرب، بدءًا بالتيار العروبى، ثم التيار العروبى العلمانى، ثم التيار العروبى الاشتراكى. واشتمل الفصل الثالث على عرض لأهم الجمعيات والتنظيمات السياسية العلنية والسرية، تلك التى أسسها أو شارك فيها المسيحيون العرب: كما تم إبراز دورهم فى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس ١٩١٣. أما الفصل الرابع فقد خصص للكشف عن دور المسيحيين العرب فى الثورة العربية الكبرى، والانخراط الفعلى فى مجرياتها، حيث تم رصد مظاهر هذه المشاركة، ولاسيما فى الأدبيات الثقافية.

■

شؤون عربية

مجلة فصلية تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

العدد ١٣٩ خريف ٢٠٠٩م



فى إشارة إلى محتويات العدد يكتب رئيس التحرير فى افتتاحيته: «التطورات السريعة والمتلاحقة التى تشهدها ساحة المنطقة، سواء فى اتجاه إجراء انتخابات، أو انسحاب قوات، أو محاولات دفع جهود المصالحة، أو تهدئة الأوضاع فى بعض القضايا المثارة، وذلك وسط جو عام تسوده رغبة أمريكية فى الحوار والانفتاح، لا تلقى الاهتمام الكافى أو رد الفعل المناسب من السياسات العربية التى يعزف معظمها عن التورط فى قضايا المنطقة، وتحرص بنفس القدر على الحفاظ على الأوضاع الراهنة، والتوازنات القائمة، وهو الأمر الذى تشاركها فيه معظم قوى المعارضة العربية التى تخشى بدورها من اتجاهات التغيير خوفًا من تأثيرها على مواقعها السياسية. ومن هنا كان حرص الطرفين على تحييد نتائج الانتخابات، وتعطيل مفاعيل الانسحابات، والدفع فى مسار تأجيل إتمام المصالحات. هذا فضلاً عن الاتجاه العربى العام لترك القضية الفلسطينية لعناية الإدارة الأمريكية، وانتظار إعلان خطتها لدفع عملية السلام دون محاولة التقدم بمقترحات لدعم وجهة النظر العربية، أو للتأثير فى التقديرات الأمريكية أو موازنة الضغوط الإسرائيلية، وهو الأمر الذى يوضح أن حالة الجمود التى تسيطر على الأوضاع العربية بفعل السياسات الرسمية وممارسات قوى المعارضة، أصبحت تمثل الاتجاه الغالب فى المشهد العربى الراهن، حيث تحرص معظم الأطراف على احتواء نتائج أية تطورات أو مستجدات على الساحة بما يضمن إبقاء نفس السياسات تراوح مكانها، والحفاظ على نفس الأوضاع عصية على التغيير».

■

المجلة العربية للعلوم السياسية

مجلة دورية محكمة

تصدر عن الجمعية العربية للعلوم السياسية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية

العدد ٢٤ خريف ٢٠٠٩م



يتضمن العدد افتتاحية للدكتور عدنان السيد حسين: «الولاء الوطنى والولاءات الفرعية».

وملف بعنوان: قضايا دولية، يتضمن ثلاثة بحوث:

- «الفشل العلمى الأمريكى فى العراق وفشل استراتيجيات تحويل الصراع»، لأحمد جميل عزم.
- «إضاءات على تراجع اليسار العربى وصعود اليسار الأمريكى اللاتينى» لجميل مصعب محمود.
- «الاستمرار والتغير فى السياسة الروسية تجاه العراق (فى فترة ما بعد الاحتلال الأمريكى)»، لنورهان الشيخ.

أما الدراسات فهى:

- الخليج العربى: الأصول التاريخية للقيادة المركزية الوسطى: دراسة فى الاستعمار الجديد (١٩٤٥-٢٠٠٣) لفتحى العفيفى.
- وظائف النخبة المحلية فى النسق السياسى المغربى لسلمان بونعمان.
- الكم والكيف فى مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية عامة، والسياسة خاصة (قراءة فى الجدل بين دارسى المتغيرات والحالات وما غاب عنهم من مشكلات بناء المفاهيم) لأحمد على سالم.

وفى باب آراء: «التجمع اليمنى للإصلاح بين البرنامج السياسى وشعار الإسلام هو الحل» لعادل مجاهد الشرجبى.

وفى باب كتب، مراجعات للكتب الآتية:

- «الاجتهاد بين أسر الماضى وآفاق المستقبل» (محمد حسين فضل الله): أعدها عفيف عثمان.
- «مستقبل السياسة الأثيوبية فى منطقة القرن الأفريقى» (طارق عبدالله ثابت الحروى): أعدها طلال عبده الجندى.

وفى باب نشاطات: تقرير عن ندوة المائدة المستديرة «العرب وتحديات الحاضر والمستقبل» الزاوية - ليبيا، ٢٤ - ٢٥ يوليو ٢٠٠٩، أعده أحمد حلوانى.

بالإضافة إلى «يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوغرافيا مختارة».

■

المستقبل العربى

العدد ٣٦٨ أكتوبر ٢٠٠٩

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد خمسة بحوث، هى:

١ - المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية فى بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ - ١٩١٨) لفدوى أحمد محمود نصيرات.

٢ - تطور العلاقة بين الدين والسياسة فى أوروبا: دراسة حالة الأحزاب الديمقراطية المسيحية: إيطاليا وألمانيا نموذجًا، لسالى خليفة إسحق.

٣ - الكويت.. إلى أين؟ التحديات ومستقبل النموذج الديمقراطى، لعبدالله الشايجى.

٤ - اللغة الفرنسية فى المغرب العربى: غنيمة حرب أم استلاب هوية؟ لمحمود الذوادى.

٥ - وفيات الأطفال فى العراق: أرقام ودلائل (محافظة نينوى أنموذجًا) لفراس البياتى.

كما تضمن العدد أيضًا حلقة نقاشية بعنوان: السعودية.. إلى أين؟ تضمنت: ورقة العمل بعنوان: مشروع تحديث الحكم السعودى. أعدتها الدكتورة مضاوى الرشيد.

وفى باب ترجمات مهمة، بحثان:

- الحرب الأمريكية على العراق: تدمير حضارة، لجيمس بيتراس.
- الحريات فى دائرة الخطر.. هل تعود الدولة البوليسية إلى العراق؟ من الإيكونومست.

أما فى باب آراء ومناقشات، فقد كتب فريحة محمد كريم، عن الجامعة الخاصة (الأهلية) والإشكالية المنهجية فى التكوين والتوجيه.

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

- «الأعمال الكاملة للدكتور نبيه أمين فارس»، أعد المراجعة رياض زكى قاسم.
- «حقوق الإنسان فى الوطن العربى: تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩»، أعد المراجعة السيد يسين.
- «أزمة العولمة وانهيار الرأسمالية» (السيد يسين)، أعد المراجعة فيصل دراج.
- إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى، والكتب العربية هى: أزمة الوعى الأوروبى، خطاب فى أصل التفاوت وفى أسسه بين البشر، معركة إضعاف حزب الله، الاحتلال الأمريكى للعراق وأبعاد الفيدرالية الكردية، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة فى السودان، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية فى بلاد الشام ومصر، التقرير الاستراتيجى اليمنى ٢٠٠٨، مدينة القدس: السكان والأرض، اليسار العربى: رؤيا النهوض الكبير، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة

وتضمن باب «مؤتمرات» تقريرين، عن:

- ندوة مشروع «التيار المتوسط» وأثره فى المصالح العربية. المنتدى الثقافى العراقى، دمشق ١١-١٢ يناير ٢٠٠٩ لمحمد عبدالشفيع عيسى.
- ندوة «العلاقات الأمريكية - الروسية والبحث عن توازن جديد» الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٢ أبريل ٢٠٠٩ لمى مضر الأمارة.

هذا بالإضافة إلى موجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

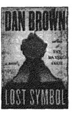
■

The Lost Symbol

الرمز المفقود

By Dan Brown

Doubleday Books press 2009-528 p.



دعونا نبدأ بالسؤال الذى يسأله كل محبى دان براون: هل «الرمز المفقود» على نفس مستوى «شفرة دافنشى»؟ ببساطة، نعم. دان براون بارع فى فن مزج القلق المشوق مع الألغاز العشوائية. والرمز المفقود مزيج ساحر بينهم. تبدأ الرواية بطقوس قديمة وجماعة غامضة وبالتأكيد، لغز محير. يعرف القارئ أنه فى منطقة دان براون عندما يكتشف لغز داخل لغز كما فى نهاية الفصل الأول. الكشف عن أحداث الرواية سوف يضيع متعة قراءتها لذلك لن تجد أثرا لمفسدى المتعة هنا. يكفى أن نقول أن الرمز المفقود مثل العديد من السلاسل التى لديها طابع متكرر فيظهر بها، مرة أخرى، دكتور جامعة هارفارد المرموق روبرت لانجدون حيث يجد نفسه فى مأزق يتطلب معرفته الواسعة بعلم الرموز وتفسيرها وقدراته المميزة فى التخلص من المتاعب. وتدور أحداث الرواية فى الولايات المتحدة الأمريكية على خلاف روايات روبرت لانجدون ولكن قلم براون بارع فى تصوير مدينة واشنطن بنفس سحر وجمال باريس ودولة الفاتيكان. وكما فى جميع روايات براون فإن الأحداث سريعة متلاحقة وسلسلة لانهائية من الألغاز المكتشفة ستجعلك تشعر وكأنك تقضى كل نهارك مع ألغاز ورموز روبرت لانجدون.

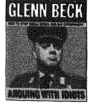
■

Arguing with Idiots: How to Stop Small Minds and Big Government

المجادلة مع الحمقى: كيف توقف العقول التافهة والحكومات الكبيرة

By Glenn Beck

Threshold Editions press 2009-336 P.



انه كتاب مضحك، مرعب، حقيقى. كثيرا ما يحدث لنا جميعا، تنكب على عملك الخاص عندما يظهر أحمق ليخبرك بأن الأسلحة شر، أن سيارة تويوتا فى وسعها أن تنقذ الكوكب، أو أن على الأغنياء، أخيرا، دفع حصتهم من الضرائب.

ابتعد فورا! وفكر فى نفسك. ولكنهم يزدادون بغضا يوما بعد يوم. يزداد معدل ضربات قلبك، هل بدأت فى التعرق، لا يمكنك الابتعاد؟ إذن فأملك الوحيد فى هذا الكتاب.

تصنف جريدة نيو يورك تايمز فى قائمة البيست سيللر الكاتب جلين بيك مؤلف صاحب «كتاب مزعج» و«المنطق السليم» فى المرتبة الأولى. فهو لديه خلطة سرية لكسب المجادلات ضد أصحاب الأفواه الكبيرة ولكن بعقول صغيرة وهذا الكتاب ملىء بهم. لا يمكننا التعرف على الحمقى من خلال سجلات التصويت، ولكن يمكننا إيجادهم بالبحث عن الشخصيات التى تختبئ وراء الآراء الجاهزة التى يسمعونها من الآخرين بدون رؤية فردية، والتى تؤمن بأن الشعارات الكبيرة بديل عن الحس السليم. إذن، إذا وجدت شخصا مناسب لهذه اللائحة، فإن «المجادلة مع الحمقى» سوف يساعدك فى إسكاتهم بالسلاح الجوهرى: الحقيقة.

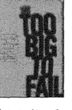
■

Too Big to Fail The Inside Story of How Wall Street and Washington Fought to Save the Financial System—-and Themselves

أكبر من الفشل القصة الداخلية عن كفاح وول ستريت وواشنطن للبقاء ولحفظ النظام المالى

By Andrew Ross Sorkin

Viking Adult press 2009- 624 P.



عرف اندرو روس سوركين الحقيقة الأولى وراء الكواليس، واصفا دقيقة بدقيقة كم الأزمة المالية الضخمة منذ الهبوط الهائل الذى تطور فى عقب التسونامى العالمى. من داخل المكتب الذى يقع فى زاوية منشأة «أخوان ليمان» مرورا بالاجتماعات السرية فى كوريا الجنوبية حتى أحاديث الطرقات فى واشنطن، «أكبر من الفشل» كتاب دقيق عن رجال ونساء فعالين فى الشئون المالية والسياسية المتصارعة بين النجاح والفشل، الغرور والطمع وبشكل جوهرى مصير العالم الاقتصادى.

خلال المبادرة التى ليس لها مثيل فى الاقتراب من أجواء هذه البنوك والمؤسسات، فإن هذا الكتاب يعيد تقديم كل الدراما والاضطراب العظيم ويكشف عن تفاصيل لم يقترب منها احد من قبل كما انه يوضح كيف يتم اتخاذ القرارات فى وول ستريت عبر العقد الماضى كله. فهذه القصة ليست فقط مجرد نظرة للبنوك على أنها «أكبر من الفشل» ولكنها تصور الحياة الحقيقية المثيرة وتلقى ظلالا على أسماء جريئة واثقة من أنها دوما اكبر من الفشل.

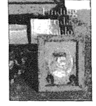
■

Finding Frida Kahlo

اكتشاف فريدا كاهلو

By Barbara Levine

Princeton Architectural Press 2009- 256 p.



يقدم هذا الكتاب لأول مرة الأرشيف الرائع التائه لواحدة من أكثر فنانى القرن العشرين وقارا. مختبئا من النشر لأكثر من نصف قرن. هذا الكتاب الفنى ملىء بتفاصيل ساحرة عن حياة فريدا العاطفية وعن أصدقائها وأعمالها فى فترة تمتد لأكثر من ثلاثة عقود، بداية من عشرينيات القرن الماضى فى فترة مراهقتها حتى وفاتها عام ١٩٥٤. حياة مليئة بالرغبات المتوهجة والغضب الجامح والحس الفكاهى العنيف. «اكتشاف فريدا كاهلو» نظرة نادرة إلى وجود متوهج بالحياة والاضطراب: مذكرات حية مدونة لقاءها الجنسى العابر مع امرأة تدعى دوروتى، صندوق مزخرف يحتوى على احد عشر طائرا طنانا محشوا مخبأ أسفلهم خطاب تندب حظها به حينما اكتشفت أن زوجها دياجو ريفيرا قام بتشريح هذه المخلوقات الجميلة ليستخلص منها عقارا مثيرا للشهوة الجنسية. وكتاب فرنسى طبى يصف الألم الذى كانت تعانى منه اثر بتر قدمها اليمنى رسمت فريدا فوق أوراقه شكلا توضيحيا لتقنية عملية البتر وخطاب لأحد أصدقائها تصف فيه مدى وحدتها وطلبها لثمار جوز الهند. لم تكتب فريدا أى سيرة ذاتية. ولكنها تركت وراءها الكثير من المواد الإنسانية المعقدة.

■

The Venus Fixers: The Remarkable Story of the Allied Soldiers Who Saved Italy's Art During World War II

المحافظون على الجمال: قصة حفظ قوات الحلفاء الرائعة لتاريخ ايطاليا الفنى أثناء الحرب العالمية الثانية

By Ilaria Dagnini Brey

Farrar. Straus and Giroux press 2009- 320 p.



لقد كانوا مجموعة من شخصيات مختلفة. جنود الحلفاء الملقبون «بالمحافظين على الجمال» الذين آمنوا بأن حفظ ثقافة ايطاليا من القنابل وقذائف النازى والأب الروحى للجستابو هيرمان جورينج ومن الجنود المهملين عنصر أساسى فى جهود الحرب.

فى البداية كان الإيطاليون هم أول من حاولوا إيجاد مأوى للفن، ولكن بعد ذلك تسربت الحماسة لكل الجنود الذين قاموا بفرز المنطقة للبحث عن الأعمال الفنية بعد أن قام الجيش بتأمينها. فى واحدة من الحكايات المروعة تصف برى كيف استطاعت مجموعة «المحافظون على الجمال» من إنقاذ مجموعة مخطوطات نادرة من تجريفها وسحقها فى نهر أرنو. عادة كانوا هؤلاء المخربون على خلاف مع جيوشهم. فى كتابها الأول، كانت الصحفية والمترجمة بيرى ماهرة وراغبة فى جلب جنودها للحياة على الورق بالنظر إلى مجموعة فريدة من نوعها ومدى تميز المهمة التى اعتبروها واجبا عليهم. كما أن الكتاب يوضح عن ماذا كان الحلفاء يدافعون فى ايطاليا، انه تاريخهم وأعمالهم الفنية التى مازالت تلهمنا حتى اليوم.

■

تغريدة البجعة

By Mekkawi Said

Translation by Adam Talib

American University in Cairo

P. ٣٠٤ -press 2010



تغوص الرواية فى مشاكل المجتمع

المصرى وتمر على أحداث قد نكون قرأناها فى الصحف، ولكننا هنا أمام نوع من التأريخ الوجدانى للحدث. مصطفى، طالب راديكالى سابق، يحكى قصصا عن الأطفال القاهريين الذين يتخذون الشارع بيوتا لهم، مصطفى مضطر إلى الاعتماد على مساعدة صديقته الأمريكية التى لا يستطيع أن يثق بها. وهناك صديقه أحمد الحلو الذى انتقل من أقصى اليسار الثورى إلى أقصى يمين الفكر الوهابى فى غضون سنوات قليلة.

من بين تحولات فى مجتمع يغلفه الفساد يرى مصطفى القاهرة تتداعى من حوله. الرجال والنساء يبحثون عن من يستحق مشاعرهم وعن من يجعل تضحياتهم لبلد لم تعد تستحق ولاءهم ثمينة وذات قيمة.

ولد مكاوى سعيد فى القاهرة عام ١٩٥٥. ظهرت أول مجموعة قصصية له عام ١٩٨١ ومنذ ذلك الحين أصدر أربع مجموعات أخرى. فازت روايته الأولى بجائزة سعاد الصباح للإبداع العربى عام ١٩٩١. تغريدة البجعة روايته الثانية كانت فى القائمة القصيرة التى وصلت لجائزة البوكر العربية عام ٢٠٠٨. والمترجم آدام طالب خريج جامعة كاليفورنيا والجامعة الأمريكية بالقاهرة ويعمل حاليا على الدكتوراه فى الأدب العربى فى جامعة أكسفورد.

■

What the Dog Saw: And Other Adventures

ماذا رأى الكلب واكتشافات أخرى

By Malcolm Gladwell

Little, Brown and Company press 2009- 432 P.



لماذا توجد أنواع عديدة من الخردل فى مقابل نوع واحد من الكاتشب؟ ماذا يعلمنا لاعبو كرة القدم عن كيفية تعيين المدرسين؟ بماذا يخبرنا الشعر المصبوغ عن تاريخ القرن العشرين؟

فى العقد الماضى كتب مالكوم جلادويل ثلاثة كتب عن كيفية فهمنا لعالمنا ولأنفسنا، The Tipping Point; Blink; and Outliers، والآن فى كتابه «ماذا رأى الكلب»، يجمع جلادويل لأول مرة أفضل كتاباته من مجلة «ذا نيو يوركر».

هنا قصص ممتعة ممزوجة بالألم عن مخترع طرق تحديد النسل، والمبتكرين المتأنقين لصوص المكرونة. جلس جلادويل مع رون بوبيل، اكبر طاه فى الولايات المتحدة الأمريكية وأشترى أفرانا ذات مشواه واكتشف أسرار كاسر ميلان الذى يقدمها فى برنامجه الشهير «dog whisperer»، ويستطيع أن يجعل أكثر الحيوانات بربرية أليفة بلمسة من يده. فهو يكتشف الأذواق المميزة والسلوك العرقية والتحرك بعد فوات الأوان.

يقول جلادويل فى مقدمة كتابه «الكتابة الجيدة لا تنجح أو تفشل بناء على قوة قدرتها على الإقناع. إنما على قدر قدرتها على جذبك نحوها وجعلك تفكر لتعطيك لمحة من تفكير شخص آخر».

يعتبر «ماذا رأى الكلب» مثالا آخر على روح مبهجة ومعرفة قوية جعلت مالكوم جلادويل باحثا رائعا عن الجوانب العظيمة المختبئة حولنا.

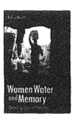
■

Women, Water, and Memory Recasting lives in Palestine

النساء والماء والذاكرة: إعادة تشكيل الحياة فى فلسطين

By: Nefissa Naguib

AUC Press, 2009



المياه هى من المصادر الأساسية للحياة، والمرأة كذلك أحد مقومات الحياة لكل من حولها، ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب للباحثة «نفيسة نجيب» الأستاذ المساعد فى جامعة أوسلو فى دراسات الانثروبولوجى والتنمية. فهى ترصد فى هذا الكتاب ممارسة المرأة جلب المياه من النهر قبل وبعد دخول الأنابيب، ففى هذه الرحلة اليومية للبحث عن مورد المياه تمارس المرأة أنوثتها بشكل أكثر حرية وتتحدث عن نفسها. وهنا اختارت الباحثة المرأة الفلسطينية التى اعتبرت دائماً من دعائم الصمود الفلسطينى والمياه الفلسطينية الشحيحة التى تدل على إصرار وعزيمة هذه المرأة فى الاستمرار. والكتاب يرصد الفترة من نهاية الحكم العثمانى حتى وقت الانتفاضة الفلسطينية. كتاب يتحدث عن السعادات الصغيرة: تدخين سيجارة، رقصة عفوية فى أحد الأفراح أو حتى الأوجاع الكبيرة: الأسرى ومن ماتوا واستشهدوا... فى كتاب يعد احتفاء بالذاكرة والمرأة والماء وبفلسطين.

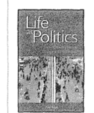
■

Life as Politics How ordinary people change the Middle East?

الحياة كسياسة: كيف يغير اشخاص عاديون الشرق الأوسط

Asef Bayat

AUC Press, 2009



إن التصور الأبسط عن الشرق الأوسط أنه حبيس تقاليده وتاريخه، فهو ارض المآذن والجوامع، النساء المحجبات والأنظمة الاستبدادية والصحراء الشاسعة. ولكن مثل هذه الصورة تغفل ما هو أهم: التغيير الاجتماعى والسياسى الذى يأتى بأشكال كثيرة، وهذا ما يحاول «عاصف بيات» أستاذ السوسيولوجى ودراسات الشرق الأوسط فى جامعة «ليدن» كشفه أن تحت الأنظمة الشرسة، والسلطة الدينية، والنخب الاقتصادية... أناس عاديون يمارسون التغيير بممارسة حياتهم اليومية. وبالرغم من أن هذه الممارسة لا تتجلى فى شكل مظاهرات أو احتجاجات كبيرة أو ثورة شاملة للملايين فى الشرق الأوسط إلا أنه يتم خلق مساحات إجتماعية جديدة لممارسة الحرية والذات، بدءاً من البائع المتجول الذى ينصب تجارته فى الميدان ويتعايش سلمياً مع السلطة الموجودة فى الشارع إلى ممارسة الحرية من خلال المدونات الإليكترونية. ومع أن هذه الممارسات ليست متحدة فى «حركة» واحدة إلا أنها تفرض واقعا جديدا. لذا فهذا الكتاب يعتبر نافذة على قضية شديدة التعقيد فى منطقة من أكثر مناطق العالم توتراً، ولذا فهو يقدم رؤية جديدة عن مفهوم الحركات الإجتماعية وديناميكا التغيير الاجتماعى.

■

The Help

المساعدة

By Kathryn Stockett

Amy Einhorn Books/Putnam press 2009- 464 P.



يا له من وقت مناسب لهذه الرواية المتفائلة الراقية التى ظهرت لأول مرة وافتتحت باكورة أعمال ايمى انهورن فى مجال النشر. تمت كتابتها خلال حركة حقوق المدنيين الوليدة فى ولاية الميسيسبى، حيث النساء السوداوات الموثوق بهن لتربية الأطفال البيض ولكن غير مسموح لهن، مثلا، باختيار اللون الذين يفضلون طلاء واجهة منازلهم به. تبدأ الرواية عندما نصح ناشر من نيو يورك الفتاة الصغيرة سكيتر التى تطمح فى أن تكون كاتبة أن تكتب عن ما يمكنه إزعاج وتحريك الجمهور فقررت الكتابة عن عالم الخادمات السمراوات اللاتى يقضين عمرهن فى تربية أطفال بيض وعندما يكبرون ويتسلل إليهم سم التفرقة العنصرية ينكرون حقهن وينسونهن وتنتقل الخادمات إلى بيت ابيض آخر.

المساعدة، قصة ايبلين ومينى والعديد من الخادمات السمراوات اللاتى يقصصن تاريخهن مع العنصرية أثناء تناولهن القهوة فى بيت ايبلين فى سرية لان سكيتر اضطرت أن تخبر والدتها إنها مكرسة حياتها لخدمة الدين والله! إنها رواية مليئة بالحب والذكريات وقد حققت أعلى مبيعات فور صدورها.

■

Life is more beautiful than paradise

الدنيا احلى من الجنة

Jihadist's own story A

Khaled al-Berry

AUC Press, 2009

الحديث عن مفاهيم مثل التطرف والتدين والإلتزام وهى تعبيرات قد تحمل نفس المعنى أو تتفاوت كلياً فيما تعنيه وأصبحت مصطلحات يلوكها الكثيرون دون فهم حقيقى لها أو وضعها فى سياق يجعل لها دلالة، فأصبح التعبير مطاطا ويحتمل التأويل وفقاً لايدولوجية الشخص وتوجهاته، ومن هنا تأتى اهمية هذه السيرة الذاتية التى كتبها «خالد البرى»، الكتاب الذى يبدأ فى صعيد مصر والكاتب فى سن الرابعة عشرة ويعيش فى «أسيوط»، وكيف سحره مفهوم «المسلم القوى» أو «الملتزم»، فانخرط فى هذه الجماعة وأصبح واحداً من أفرادها، حتى يقبض عليه وهو خارج من الجامعة بعد مظاهرة وفى السجن يعود إلى الحياة التى عاشها فى الخارج ويراجعها، وعند خروجه والتحاقه بجامعة القاهرة يبدأ الكاتب فى الابتعاد عن هذه الجماعة التى تعمل بالاسلام الراديكالى.

■

كـــتـب عبـــريـــة

مطاعم، العدد التاسع عشر، كتاب حانوخ لفين الشاب، رئيس التحرير إسحق لاؤور.



فى هذه الأيام تمر عشر سنوات على وفاة المسرحى الإسرائيلى حانوخ لفين، وهو المسرحى الأكثر استفزازا للجمهور الإسرائيلى بسبب آرائه الحادة ضد الجيش والشعب الإسرائيليين، وخاصة بسبب مسرحيتيه «ملكة الكبانية»، «وأنا وانت والحرب القادمة»، اللتين عرضتا بعد حرب ٦٧ وكانتا مثار احتجاجات شعبية رهيبة ضده. وبهذه المناسبة فلقد خرج العدد التاسع عشر من مجلة «مطاعم». دورية للنقد والفكر الراديكالى، مخصصا بالكامل للفين فى فترة شبابه، تحت عنوان «كتاب حانوخ لفين الشاب».

يبدأ رئيس تحرير المجلة الشاعر إسحق لاؤور بمقدمة قصيرة يطرح فيها السؤال عما أسماه بـ«لغز حانوخ لفين»، ويتساءل فيها كيف أمكن لشاب فى بداية طريقه أن يحظى بالشهرة بفضل الكراهية الشعبية الواسعة له من قبل اليمين ومن قبل قطاع من اليسار أيضا بسبب ثلاث أمسيات لعروض ساخرة كتبها وهى العروض التى أثارت غضب الجمهور وفى إحداها جاء المشاهدون وبأيديهم قنابل دخانية وألقوها على المنصة. وفى أمسية ثانية تم إخراج الممثلين من المسرح بعد ١٩ مشهدا من العرض فحسب. ولكن هذا الشاب غير المعروف، المستفز للغاية، تحول بعد هذا فى فترة قصيرة إلى كاتب معروف، وشعبى جدا فى إسرائيل حتى لدى من لا يذهبون للمسرح.

وينشر العدد قصيدة من القصائد الأولى التى كتبها لفين، يخاطب فيها عرب إسرائيل ويسخر من التمييز ضدهم: «أيها الشاب العربى، القسم الصحى لبلدية تل أبيب يدعوك!/ لو كنت موهوبا، طموحا ومبادراً / لو كنت مؤيدا للنظافة وغسل اليدين/ فمكانك عندنا/ كنس الشوارع فى الليل فى مناخ من الهدوء الجوى الذى يساعد على الاسترخاء والهواء المنعش/ تحت سماء تملؤها النجوم، شوارعنا تنتظرك/ شوارع مليئة بصناديق القمامة، فى ساعات الصباح المبكرة، صناديق موسيقية، قمامة مثيرة للمفاجآت لدى ظهور الفئران/ التفتيش على التبول العام هو عمل حيوى، مليء بالانتعاش/ تبولنا ينتظرك/ صحة المستشفى، لو كنت تشكو من شىء، لو شعرت بأنك مظلوم/ توجه للمستشفى المدينى واحقن اليهود/ مؤخراتنا تنتظرك!».

كما ينشر فى العدد العرض المسرحى الساخر الأول الذى كتبه لفين. وفيه يقرر الرب أن يخلق النور ويقول: «ليكن نور». ولكن كل اللجان تحتج، وكل منها تعبر عن رأيها فيما يجب أن يخلق بدلا من النور. لجنة الطلبة تقرر أنه يجب القول: «ليكن طلبة» (ويبصق الرب على العالم، ويغرق حتى من يعرفون السباحة).

■

الحياة السرية لموشيه ديان

مكان جيد فى الجانب، نئورا برنيح متلون، دار كوتاريم



السكرتيرة الشخصية لموشيه ديان تحكى قصته فى هذا الكتاب الجديد، الذى أخذ عنوان «مكان جيد فى الجانب» للكاتبة نئورا برنيح متلون. موشيه ديان، وهذا ما لا يعرفه عرب كثيرون، هو رمز شبه جنسى فى دولة إسرائيل، لتعدد مغامراته العاطفية. وهو ما يدفع الصحفى وأحد أقطاب المؤرخين الجدد فى إسرائيل، توم سيجيف، ليكتب عرضا للكتاب بصحيفة هآرتس. يبدأ العرض بقصة طريفة عن ديان. سمعت متلون، مؤلفة الكتاب والسكرتيرة السابقة لديان، قصصا كثيرة عن علاقة يقيمها رئيسها مع امرأة تعمل فى البناية، امرأة غير جندية. دعته متلون على كوب من الشاى. تحدثت معه بحزن وغضب. قالت له أنه يهين الوظيفة التى يعمل بها ويهين نفسه كإنسان.

يكمل سيجيف القصة: «طلب منها ديان الاحتراس من الشائعات وقال لها: هل تظنين أن الناس لا تتحدث عنا؟ حتى روث تعتقد أن هناك ما هو أكثر من علاقة العمل يجمع بيننا». كانت نئورا تدير مكتبه بينما هو رئيس قسم العمليات، وواصلت العمل لديه كسكرتيرة عندما أصبح رئيس هيئة الأركان.

فى الكتاب تحاول متلون الدفاع عن ديان من الشائعات التى ارتبطت به: «على مدار السنتين اللتين عملت فيهما عنده لم تنتقل رسائل أو أحاديث تليفونية من نساء». ولكنها لم تكن تعرف كل شىء، كما سيتضح لها يوما، عندما وضع ديان على مكتبه مظروفا وواصل طريقه لغرفته. فى المظروف كانت ثمة أوراق حملت عنوان «فصل من رواية»، وفيها وصف مفصل لعلاقات جنسية، وكاتبة الأوراق، هاداسا مور، لا تحاول إخفاء هوية أبطالها، وواحد منهم كان ديان، الذى أطلقت عليه اسما متخيلا.

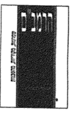
قرأت متلون هذا الفصل، وفيما بعد لاحظت أنه كتب احتجاجا موجها لدار النشر وأرسلها هى لتسليم المظروف. والسبب غير واضح: هل كان يأمل بمنع النشر أم كان يطالب بالحصول على نسخة من الكتاب المنشور الذى أصبح الأعلى مبيعا؟

فى الكتاب ثمة قصص أخرى، على سبيل المثال، ذات مرة اضطر ديان لدفع عشرة آلاف ليرة لامرأة هددت بمقاضاته لكونه أخل بوعده لها بالزواج منها. وظلت القصة خارج جدران المحكمة. ولكن هذه القصص، كما يقول سيجيف، لا تأخذ إلا حيزاً ضئيلا من الكتاب. نئورا برنيح متلون تهتم بالتاريخ والسياسة والاستراتيجية أكثر من اهتمامها بالشائعات.

ظل موشيه ديان فى الكتاب لغزا. متلون مثلا رأته بدون العصابة السوداء على عينيه، وهى العصابة التى تشكل لغزا لإسرائيليين كثيرين حاولوا تخيل ما وراءها، ولكنها مع هذا لم تستطع الدخول فى أعماقه. هذه صفة مشتركة بين أشخاص عديدين كتبوا كتبا عن عملهم المشترك مع ديان. لم يغص أحدهم فى أعماق شخصيته. يعلق سيجيف، الذى ينتمى لجماعة المؤرخين الجدد بأن: «ديان ظل رجلا وحيدا بلا ولاءات. لقد وجد صعوبات كثيرة فى خلق صلات حقيقية مع الناس، لم يكن ملتزماً لا تجاه رجل أو امرأة، قانون أو حقيقة. وظل متقلبا حتى بدا أنه يخون نفسه أيضا: هو الذكى، البارد والمتغطرس، لطيف المعشر وغير المكبوح، لقد بنى نفسه دائما بحماية من هم أقوى منه: دافيد بن جوريون، جولدا مائير ومناحيم بيجين. ودوما ما كان يخاف من المسئولية الكاملة».

■

التأثير الإسلامى على ابن ميمون



موسى بن ميمون، المحافظة، الأصالة والثورية، مجموعة مقالات فى مجلدين، تحرير أفيعزر رافيتسكى، مركز شازار.

واحد من المجالات التى يمكن للمسلمين فيها القول بتأثيرهم على اليهودية هى الشريعة. كتاب صادر مؤخرا عن مركز شازار الإسرائيلى بعنوان «موسى بن ميمون، المحافظة، الأصالة والثورية»، ويضم مجموعة مقالات فى مجلدين قام بتحريرهما أفيعزر رافيتسكى. يثبت تأثير الشريعة الإسلامية على العالم والطبيب اليهودى موسى بن ميمون والذى عاش فى العصر الأيوبى واشتهر بكونه طبيب السلطان صلاح الدين الأيوبى.

واحد من مقالات الكتاب يتحدث عن الحاخام أبراهام، ابن موسى بن ميمون، والذى كان قريبا من العالم الروحى والأدبى للمتصوفة المسلمين الذين عرفهم فى مصر. ولكن الابن كان يرى أن أغلب تقاليد الصوفيين قد نبعت من مصادر يهودية.

التأثير الدينى لدوائر إسلامية على أبراهام ابن موشيه بن ميمون يطرح سؤالا عما إذا كانت هناك فعلا علاقة بين تشريعات موسى بن ميمون نفسه وبين الشريعة الإسلامية، وهو السؤال الذى يتم طرحه أكثر من مرة فى البحث وتتم الإجابة عنه بالإيجاب أيضا أكثر من مرة. خصص جدعون لايفزون لهذا الموضوع مقالا طويلا ومفصلا. يخمن أنه: «كانت لموسى بن ميمون صلة مباشرة بمصادر التشريع الإسلامى، بما فيها القرآن، ومؤلفات أخرى، وأنه: «كان مكشوفا أمام نخبة من مؤلفات مشرعى القانون الإسلامى.، بل وكان يستطيع الوصول إلى المكتبات الثرية من حوله. يعتقد لايفزون أنه كانت بالفعل هناك «أسس كثيرة استعارها موسى بن ميمون من مصادر خارجية، ولكن هذه الاستعارة كانت تحدث عندما لم تكن تتوافر لدى بن ميمون مصادر يهودية واضحة ومهمة على قدر الحاجة. ربما كان الأكثر تأثيرا هو الفيلسوف ابن رشد، والذى كان يعمل فى الأندلس وشمال أفريقيا فى عصر موسى بن ميمون، وعلى أية حال، فبن ميمون أو أى من حوله لم يكونوا يشيرون فى أى مكان لصلتهم الجزئية بالشريعة الإسلامية».

واحد من المجالات التى يتم التعبير فيها عن هذا التأثير، وفق حديث الكاتب، هو القانون التشريعى وبالتحديد الحديث عن مكانة ووظيفة الملك. المصادر التلمودية قليلة فى هذا الشأن، وغير متبلورة، وثمة تشابه واضح بين مكانة ووظيفة الملك فى كتاب «هالاخوت ملاخيم» لموسى بن ميمون وبين مكانة ووظيفة الخليفة المسلم. كما أن هناك تشابهاً واضحاً أيضا فى مكانة المرأة وأحكام العائلة.

هذا التأثير، يؤدى لعدم ارتياح ما بين يهود كثيرين، وابن ميمون نفسه يبدى كذلك استهانة بل وعداء صلبا ضد الإسلام. سماحه للمسيحيين بدراسة العهد القديم، فى رأيه، ينبع من إيمانهم بقداسته، وأنهم «إذا أحاطوا بالتفسير الصحيح فمن المحتمل أن يعودوا لما هو أفضل.» وهو الشىء الذى لا يسرى على المسلمين، وهم لا يؤمنون بقداسة العهد القديم.

■

السـيـاسـة.. والمـعـرفـة

محمد السيد سعيد



■■ لا يوجد فى الحقيقة ما يسمى بمجتمع المعرفة، والمصطلح نفسه نتج عن حسرة المثقف الحكيم فى مجتمع يحتقر المعرفة ولا يعرف قيمتها.. المعرفة إذن قيمة وليست علاقة ومثلها فى ذلك مثل الثروة والقوة، كل تلك القيم تنتج عن نظام بعينه للعلاقات الاجتماعية ولكنها ليست هذه العلاقات نفسها. فالثروة تنتج عن أشكال فعالة لتوظيف وإكثار الثروة. ولكننا لا نعرف سوى القليل عن المجتمع لو وصفناه بصفة الثروة فقلنا مجتمعاً فقيراً أو مجتمعاً غنياً.. ويمكننا أن نتحدث عن مجتمع المعرفة بالمعنى نفسه، فهو هنا المجتمع الذى تكثر فيه المعرفة وتتاح أدوات إنتاجها وتدويرها أو نشرها. ولكن إنتاج كثرة من المعارف مثل إنتاج كثرة من الثروات ليس أمراً دالا بالضرورة على نمط توزيع المعرفة أو طرق إنتاجها أو علاقتها بالثروة وبالسلطة. ولهذا لا يعنى مصطلح «مجتمع المعرفة» الكثير.. وهناك سبب أهم لنقد مفهوم «مجتمع المعرفة» فتوفر تدفق جبار من المعارف لا يعنى الإفادة بها فعلاً فيما له دلالة على قيم هذا المجتمع ومستقبله ودوره فى العالم، ناهيك عن عدالته أو صواب اختياراته، ولكى نحكم على مجتمع ما بهذه المعايير لا بد أن نتشخص طبيعة عملية إنتاج المعرفة وتوزيعها والأهم طبيعة عملية إنتاج السلطة وتوزيعها وعلاقتها بالمعرفة ومنتجى المعرفة. لنفترض أننا نعرف قانوناً علمياً ما فى مجال المجتمع فهل نتصرف على أساسه بالضرورة؟ إننا نحتاج للمعرفة لأن ثمة متعة فى المعرفة بذاتها. ويستحيل فى نفس الوقت أن نكتفى بالمتعة المعرفية الساكنة فى الصدور لأنها حتماً تنقلب إلى غم وضيق إذا لم نتصرف على أساسها عندما نحتاجها حقاً.. فللمعرفة غرض جوهرى وهو إدراك الاختيارات المتاحة والأخذ بأفضل اختيار ممكن فى لحظة بعينها، ولكى نعرف أفضل اختيار لا بد أن نعى نتائجه السلبية والإيجابية بالمقارنة بغيره، وأبسط صور المقارنة السليمة هى مضاهاة تكلفة كل اختيار بعائده مادياً وأخلاقياً. فهذه المضاهاة هى المقياس الذى تستعمله المعرفة العقلانية للاختيار بين بدائل. لم يعد من الممكن لأى مجتمع يعيش عصر العلم الحديث ولو من بعد أن يتجاهل حصيلة المعرفة الناجمة عن البحث المنظم سواء كان علمياً أم إبداعياً، ولكن ليس هناك مجتمع موجود بالفعل يؤسس اختياراته وسياساته على المعرفة العلمية باعتبارها القيمة أو المحك المتفق عليه للاختيار.. وربما يجب أن ندهش لهذه الحقيقة على الأقل بالنسبة للمجتمعات المتقدمة التى يتوافر لديها سيل لا ينقطع من المعارف.. لماذا.. إذن.. لا تأخذ المجتمعات بالمعرفة العلمية كحكم نهائى وخالص للاختيار بين بدائل مختلفة وممكنة؟ هناك بالطبع أسباب عديدة، فالمجتمع يتشكل من بشر والسلوك البشرى فيه دوافع كثيرة لا صلة لها بالمعرفة أو العلم أو حتى السلامة العقلية والوجدانية، فالعقلانية واللا عقلانية يتعايشان بنسب مختلفة فى كل شخص وكل جماعة بشرية بل إنهما يتفاعلان بالضرورة.. فقد تستخدم النزعات اللا عقلانية موهبة العقل. وقد يسعى العقل لتهذيب أو السيطرة على النزعات اللا عقلانية لضمان تقييد الشرور الناجمة عنها.. والواقع أن أغلب المجتمعات تعرف العقلانية المستلبة بمعنى توظيف المعارف العلمية لتحقيق أغراض لا شأن لها بالمعرفة أو بالأخلاق.. وظاهرة الحرب وخاصة الحرب العدوانية هى تجسيد تقليدى لهذه الحالة.. ومن هنا يميز الفلاسفة بين المعرفة الاستعمالية والمعرفة النقدية أو الأخلاقية. ولأن المجتمعات المتقدمة من حيث التعريف هى تلك التى تستعمل المعرفة العلمية دون أن يكون الغرض من هذا الاستعمال خيراً أو نبيلاً بالضرورة نمت ثورة ضد. أو نزعة احتقار. هذه المعرفة بين طائفة من أنبل العلماء والمفكرين والحكماء داخل هذه المجتمعات المتقدمة، ولكن هذه الطائفة صغيرة العدد ولا تملك سوى نفوذ معنوى محدود.. بل أعتقد أنها تنكمش بالمقارنة بمرحلة ما بعد الحرب الثانية. ولكن هناك مصدراً آخر تماماً لنزعة احتقار المعرفة وهو السياسة.. فالسياسة تعبير عن مصالح وهى تتدخل فى تشكيل وتوظيف المعرفة وتدفقاتها أو طعن أبسط المعارف فى الصميم بأشكال غاية فى التنوع.. وتتوقف هذه الأشكال على مدى ما حققه أى مجتمع فى الأصل من إنجاز ديمقراطى.. فعندما نضاهى بين اختيار وآخر قد نسأل أيهما أقل تكلفة وأكثر عائداً، ولكننا يجب أن نسأل أيضاً: أفضل بالنسبة لمن؟ فأفضل اختيار بالنسبة للمجتمع مأخوذ كأنه فرد واحد ليس بالضرورة هو أفضل اختيار بالنسبة لمختلف الأفراد والأقسام التى يتشكل منها المجتمع، وقد يكون أفضل اختيار بالنسبة للمجتمع هو أسوأ اختيار بالنسبة لبعض شرائحه. هناك أمثلة معروفة وواضحة تماماً فالإقطاع مثلاً هو امتياز منسوب لطبقة لا لسبب سوى قوتها وتوارثها للقوة والسلطة، ومهما قال العلماء والعارفون إن الإقطاع اختيار سيئ بالنسبة للمجتمع لن يتخلى الإقطاعيون عن امتيازاتهم طوعاً ولا يقع الإقطاع فى مجال الأرض والاقتصاد وحدهما بل فى مجال السياسة أيضاً.. يعنى الإقطاع هنا منح طبقة أو شريحة ما لنفسها حق «امتلاك» السلطة وممارستها كشىء يخصها، هذا الإقطاع السياسى أسوأ وأصعب على التغيير من إقطاع الأرض أو حتى الإقطاع المالى.. ذلك أن الإقطاع السياسى عادة ما يكون هو المصدر لكل صور الإقطاع الأخرى بما فى ذلك الإقطاع المعرفى. يعنى الإقطاع المعرفى منح منتجين ما للمعرفة امتيازاً ثابتاً وسابقاً على ثبوت امتيازهم فى مجالهم أو قيمة وفائدة ما يملكونه وينتجونه من معارف.. وهم بهذا المعنى موظفون برتبة علماء أو حكماء أو كهنة. وبينما يحصل هؤلاء على امتيازاتهم بفضل التوظيف التعسفى للسلطة فهم يردون الجميل بمنح الاستبداد مسحة معرفية أو سمة رعاية المعرفة.. ومعنى ذلك أن المجتمع قد يكون إقطاعياً ولكنه ينتج معرفة بل يشيعها، فالاستبداد ليس ضد كل معرفة وإنما ضد المعرفة النقدية وحدها والواقع أن التطور الرأسمالى المعاصر يعيد إلى الحياة أشكالاً معينة من الإقطاع المعرفى حيث لا يكاد يكون هناك أمل حقيقى فى ترجمة المعرفة إلى خيرات مجتمعية إلا بالقدر الذى تحدده وتقرره مؤسسات الأعمال العملاقة والهياكل الجبارة لبيروقراطية الدولة وخاصة جهازها الأمنى. وتنهض الفكرة الديمقراطية باعتبارها تحريراً للمجتمع من هذا الإقطاع السياسى، فالديمقراطية وحكم القانون هما أفضل اختيار بالنسبة للمجتمع ككل.. ولكنهما ليسا أفضل اختيار بالنسبة للطغاة أو بالنسبة للطبقة أو الفئة التى تحكم بصورة استبدادية وتعسفية، لأن الديمقراطية تسلب منها امتيازات معينة تصل. فى حالة الدول العربية مثلاً. إلى امتلاك سلطة الحياة والموت على بقية المواطنين وتغير الديمقراطية تماماً مفهوم السلطة، فبدلاً من أن تكون امتيازاً لشخص أو طائفة من الأشخاص تصبح عقداً اجتماعياً أو وظيفة يمنحها المجتمع ويسحبها باختياره الحر لمن يراه. كما أنها تغير تماماً ممارسة وظائف السلطة فبدلاً من أن تكون أمراً من «سيد» تصبح أداء لخدمة عامة يحاسب من يؤدونها على نوعية أدائهم وقد يخلعون من وظائفهم، لأن صاحب السلطة هو المجتمع وهو الذى يعين ويفصل من يقومون بالوظائف العامة. والطغاة العصريون لا يحتقرون المعرفة بالضرورة كما أكدنا، ولكنهم يحتقرون حاملى المعرفة أو منتجيها، فغالباً ما تكون هناك أغلبية من منتجى المعرفة على استعداد تام لخدمة الطغاة مهما كانت أوهامهم أو أهدافهم مناقضة لأية قيمة أخلاقية أو معرفية.. وغالباً ما يعمق هذا الاستعداد للخدمة نزعة الطغاة لاحتقار العلماء أو منتجى المعرفة... ويجب أن نلفت النظر أيضاً إلى كيفية إنتاج المعرفة وطبيعة النظام التعليمى وتشكيل آليات الإعلام الحديث.. وقد يدهش البعض من الكيفية التى يتم بها بث برامج وأفكار أشد بدائية وهمجية ذهنياً وأخلاقياً فى شبكات تلفازية ومعلوماتية كبرى فى أكثر المجتمعات العصرية توفراً على إنتاج المعارف مثل الولايات المتحدة.. إن لم تكن تصدق ما أزعم هنا عليك متابعة عشرات من الشبكات التلفازية فى امريكا مثلاً وهى تبث خرافات بدائية بصورة بالغة العدوانية والبهلوانية.. وإن لم يكن لديك وقت يكفى أن تتابع واحدة من أكبر الشبكات التلفازية والإخبارية والمعلوماتية اسمها فوكس نيوز عندها قد تدرك أن طغاة العالم الثالث ليسوا وحدهم فى التلاعب الفظ بالعقول أو احتقار المعرفة النقدية أو كراهية العلماء ومعاقبتهم بهم. ■